دراكولا

السنابل

الروايات المشهورة

عرب كوميكس
ARABCOMICS.NET

نسيم

© الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان
١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة
جميع الحقوق محفوظة : لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب ، أو تخزينه
أو تسجيله بأية وسيلة ، أو تصويره دون موافقة خطية من الناشر.

الطبعة الثانية
رقم الإيداع : ٢٢٩٠ / ٨٨
الترقيم الدولى : ٠-٤٨-١٤٤٥-٩٧٧ ISBN

طبع بمطابع دار المعارف - القاهرة

دراكولا

السنابل

الروايات المشهورة

تأليف : بْرَام سْتوكر
إعْدَاد : الدكتور محمَّد محمُود رضوَان
رُسُوم : نسِيم ج. نصَيف

مَكتبَة لبُنَان
بَيروت

اَلْقِسْمُ اَلأَوَّلُ

قَلْعةُ دراكـولا

اَلْفَصْلُ اَلأَوَّلُ

لَـمْ يَكَدِ اَلقِطارُ يُغادِرُ بُودابِسْت حَتَّى أَحَسَّ جُوناثان هارْكَر أَنَّهُ يُوَدِّعُ اَلغَرْبَ وَيَسْتَقْبِلُ اَلشَّرْقَ . لَـمْ يَكُنْ جوناثان قَـدْ غادر إنْجِلْتِرا قَطُّ مِـنْ قَبْلُ ، وَلِذٰلِكَ بَدا لَهُ كُلُّ شَيْءٍ غَرِيبًا عِنْدَما بَدَأَ رِحْلَتَهُ . أَمّا اَلآنَ فَقَدِ ٱزْدادَ كُـلُّ شَيْءٍ غَرابةً : اَلطَّعامُ اَلحرِّيفُ اَلَّذي يَجْعَلُهُ يُحِسُّ وَكَأَنَّ فِـي فَمِهِ نارًا ، وَاَللُّغاتُ اَلَّتي لا يَعْرِفُها ، وَوادي اَلدَّانوبِ اَلـمُنْبَسِطُ اَلْـمُتَرامِي اَلأَطْرافِ ، وَاَلنَّهْرُ اَلْعَظيمُ ذاتُهُ . كانَتْ رُؤْيَةُ أَهْلِ اَلرِّيفِ بِمَلابِسِهِمِ اَلزّاهِيةِ فـي كُلِّ مَحَطَّةٍ تَجْعَلُهُ وَكَأَنَّهُ فـي عالَـمٍ آخَرَ ، وَلَسَوْفَ يَكونُ هُناكَ اَلكَثيرُ مِمّا يَرْوِيهِ لِصاحِبَتِهِ مينـا ، اَلفَتاةِ اَلَّتي يَعْتَزِمُ اَلزَّواجَ بِهـا .

وَفيما بَعْدُ ، حينَما تَحَرَّكَ اَلقِطارُ نَحْوَ اَلشَّمالِ ، تَغَيَّرَ كُـلُّ شَيْءٍ مَرَّةً أُخْرى ، فَقَدْ كانَتْ هُناكَ جِبالٌ ، وَغاباتٌ كَثيفةٌ ، وَأَنْهارٌ تَتَدَفَّقُ مِياهُها . وَتَمَلَّكَتْهُ اَلدَّهْشَةُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلى اَلقِلاعِ تَقِفُ شامِخَةً فَوْقَ اَلصُّخورِ اَلعالِيَةِ ، وَتَمَنّى أَنْ تَكونَ اَلقَلْعَةُ اَلَّتي هُـوَ ذاهِبٌ إِلَيْها عَلى شاكِلَةِ هٰذِهِ اَلقِلاعِ .

كانَ اَلظَّلامُ قَـدْ بَدَأَ يَزْحَفُ عِنْدَما وَصَلَ إِلى مَدينةِ بِيسْتريتْز اَلقَديمةِ اَلجَميلةِ ، اَلَّتي تَمْتَدُّ مِنْها طَريقٌ جَبَلِيَّةٌ تُوَصِّلُ إِلى بوكوڤينا . وَكانَتْ هٰذِهِ هِـيَ ثانِيةَ لَيْلَتَيْنِ قَضاهُما عَلى سَفَرٍ مُنْذُ غادَرَ بُودابِسْت . وَكانَ مَنْهُوكًا مَكْدودًا ، وَلِذٰلِكَ شَعَرَ بِالارْتِياحِ وَاَلسُّرورِ حِينَما رَأى فُنْدُقَ « اَلتّاجِ اَلذَّهَبِيِّ » اَلَّذي كانَ اَلكونْت دراكولا قَـدْ رَتَّبَ لَـهُ اَلإِقامةَ فيهِ ، وَاَلَّذي كانَ يَبْدو مِـنْ مَظْهَرِهِ أَنَّهُ فُنْدُقٌ مُريحٌ تَشيعُ فِيهِ اَلمَوَدَّةُ . وَصَعِدَ بِـهِ مُديرُ اَلفُنْدُقِ إِلى غُرْفةٍ بَهيجةٍ نَظيفةٍ تُطِلُّ عَلى ساحةٍ رِيفِيَّةٍ غُرِسَتْ فيها بَعْضُ أَشْجارِ اَلفاكِهةِ .

وَبَعْدَ أَنِ اَغْتَسَلَ جوناثان نَزَلَ لِيَتناوَلَ اَلطَّعامَ ، وَوَجَدَ عَلى اَلـمائِدةِ اَلـمُعَدَّةِ لَـهُ رِسالةً قَرَأَ فيها :

عَزيزي اَلسَّيِّدَ هارْكَر ،

وَهٰكَذا قَـدْ وَصَلْتَ إِلى ترانْسيلْڤانْيا ، وَإِنَّهُ لَيُسْعِدُني أَنْ أُتَرَقِّبَ لِقاءَكَ . أَرْجو لَـكَ نَوْمًا هادِئًا اَللَّيْلةَ ، وَفـي اَلسّاعةِ اَلثّالِثةِ بَعْدَ ظُهْرِ اَلغَدِ ، سَتَرْكَبُ اَلعَرَبةَ اَلَّتي حَجَزْتُ لَـكَ مَكانًا فيها ، وَاَلـمُتَّجِهةَ إِلى بُوكُوڤِينا ، فَإِذا بَلَغْتَ أَعْلى بُقْعَةٍ فـي اَلطَّريقِ اَلصّاعِدِ إِلى اَلجِبالِ فَسَوْفَ تَجِدُ عَرَبَتي في اَنْتِظارِكَ فَتُقِلُّكَ إِلى حَيْثُ تَلْقاني . لَعَلَّكَ سَعِدْتَ بِرِحْلَتِكَ مِـنْ لَنْدَن ، وَأَنا واثِقٌ أَنَّكَ سَوْفَ تَسْتَمْتِعُ بِالإِقامةِ فـي أَرْضِ اَلجَميلةِ .

صَـديقُـكَ

دراكولا

فَلَـمّا قَرَأَ جوناثان اَلرِّسالةَ قالَ لِنَفْسِهِ : « مـا أَكْرَمَهُ ! وَمـا أَشَدَّ مَهارَتَهُ فـي وَضْعِ بَرْنامَجِ رِحْلَتي ! » وَلٰكِنَّهُ حينَما سَأَلَ مُديرَ اَلفُنْدِق كَيْفَ وَصَلَتِ اَلرِّسالةُ بَدا عَلى اَلرَّجُلِ شَيءٌ مِـنْ عَدَمِ اَلارْتِياحِ ، وَتَظاهَرَ بِأَنَّهُ لَـمْ يَفْهَمْ لُغَتَهُ اَلأَلْـمانِيَّةَ . وَعِنْدَما حاوَلَ جُوناثان أَنْ يَعْرِفَ مِنْهُ مَعْلوماتٍ أَكْثَرَ عَـنْ قَلْعةِ دراكولا بَدا عَلَيْهِ أَنَّهُ غَيْرُ راغِبٍ فـي اَلحَديثِ ، وَكُلُّ ما قالَهُ إِنَّها تَبْعُدُ كَثيرًا عَـنْ بيسْتريتْز ، وَإِنَّهُ لَـمْ تُتَحْ لَـهُ فُرْصةُ زِيارَتِها قَـطُّ .

كانَ هٰذا اَلمَسْلَكُ غَريبًا ، وَلٰكِنْ عِنْدَما كانَ جُوناثان فـي طَريقِهِ بَعْدَ ظُهْرِ اَلْيَوْمِ اَلتّالي إِلى اَلعَرَبةِ ، كانَ مسْلَكُ زَوْجةِ مُديرِ اَلفُنْدُقِ أَشَدَّ غَرابةً . فَقَدْ حَدَثَ حينَما كانَ مُتَّجِهًا لِيَأْخُذَ مَكانَهُ فـي اَلعَرَبةِ أَنْ جاءَتْ إِلَيْهِ وَعَلى وَجْهِها نَظْرةُ خَوْفٍ وَرُعْبٍ وَسَأَلَتْهُ : « أَلابُدَّ لَكَ مِـنَ اَلذَّهابِ ؟ »

فَتَطَلَّعَ إِلَيْها جوناثان فـي دَهْشةٍ وَأَجابَها : « إِنَّني لَـمْ آتِ إِلى هُنا مِـنْ إِنْجِلْتِرا لِلنُّزْهةِ . إِنَّني هُنا فـي عَمَلٍ ، وَلَسْتُ أَمْلِكُ حَقَّ اَلتَّصَرُّفِ حَسْبَما أَرْغَبُ ، فَهَلْ مِـنْ سَبَبٍ

يَدْعوني إلى عَدَمِ ٱلذَّهابِ ؟ » .

فَقالَتِ ٱلسَّيِّدةُ وَهِيَ تَضَعُ يَدَها عَلى ذِراعِهِ : « أَرْجوكَ .. فَهُناكَ خَطَرٌ . »

وَحاوَلَ جوناثان أَنْ يَبْتَسِمَ ، وَلٰكِنَّ ٱلابْتِسامةَ لَمْ تُطاوِعْهُ ، فَقالَ لَها : « أَيُّ خَطَرٍ يُمْكِنُ أَنْ أَتَعَرَّضَ لَهُ ؟ إِنَّني ذاهِبٌ لِزِيارةِ ٱلكونْت دراكولا . »

وَهُنا بَدا عَلى ٱلسَّيِّدةِ ٱرْتِباكٌ شَديدٌ ، وَأَخَذَتْ تَفوهُ بِعِباراتٍ بِلُغةٍ غَيْرِ ٱلأَلْمانِية .. لُغةٍ غَيْرِ مَفْهُومةٍ لَهُ . وَكانَ هُناكَ آخَرونَ عَلى مَقْرَبةٍ جاءوا نَحْوَهُما . وَأَخيرًا خَلَعَتِ ٱلسَّيِّدةُ ٱلصَّليبَ ٱلْمُعَلَّقَ في عُنُقِها وَوَضَعَتْهُ حَوْلَ عُنُقِ جوناثان ، وَبَدا عَلَيْها وَهِيَ تَفْعَلُ ذٰلِكَ مَظْهَرُ ٱلجِدِّيَّةِ ٱلشَّديدةِ حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَمْلِكْ إِلَّا ٱلقَبولَ ، بِٱلرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ ٱلْمَأْلوفِ أَنْ يَضَعَ ٱلرَّجُلُ ٱلإِنْجليزِيُّ صَليبًا حَوْلَ عُنُقِهِ ، وَكانَ ٱلأَمْرُ غَريبًا بِٱلنِّسْبةِ لَهُ .

رَكِبَ جوناثان ٱلعَرَبةَ ، وَبَدَأَ ٱلسَّائِقُ رِحْلَتَهُ ، أَمَّا جُمْهورُ ٱلواقِفينَ فَقَدْ أَخَذوا يَرْسُمونَ في ٱلهَواءِ إِشارةَ ٱلصَّليبِ . وَكانَ هٰذا آخِرَ عَهْدِ جوناثان بِبِسْتريتْز .

سَأَلَ جوناثان وَعَلى وَجْهِهِ ٱبْتِسامةٌ : « هَلْ نَحْنُ مُعَرَّضونَ لِخَطَرٍ داهِمٍ ، وَمِنْ ثَمَّ نَحْتاجُ إِلى ٱلْتِماسِ كُلِّ هٰذِهِ ٱلبَرَكاتِ مِنَ ٱللهِ ؟ »

فَأَجابَ أَحَدُ ٱلْمُسافِرينَ في جِدِّيَّةٍ : « بَعْضُنا قَدْ يَكونُ في حاجَةٍ إِلَيْها . »

أَخَذَ جوناثان يَتَطَلَّعُ إِلى جَمالِ ٱلطَّبيعةِ ٱلفَتَّانِ ، مِمَّا جَعَلَهُ يَنْسَى ــ لِفَتْرةٍ مِنَ ٱلزَّمَنِ ــ كُلَّ هٰذِهِ ٱلغَرائِبِ . وَٱلحَقُّ أَنَّ ٱلكونْت دراكولا كانَ عَلى حَقٍّ أَنْ يَفْخَرَ بِمِثْلِ هٰذِهِ ٱلأَراضي ٱلرَّائِعةِ . كانَتْ هُناكَ أَشْجارٌ مُزْهِرةٌ ، وَحُقولٌ خُضْرٌ ذاتُ بَهْجةٍ ، وَأَكْواخٌ خَشَبِيَّةٌ ، وَجَداوِلُ جارِيةٌ ، ثُمَّ هُناكَ ٱلغابةُ ٱلَّتي يَكْتَنِفُها ٱلظَّلامُ ، وَٱلَّتي تَمْتَدُّ لِتُطَوِّقَ ٱلْمَكانَ .

كانَ ٱلطَّريقُ غَيْرَ مُمَهَّدٍ ، وَمَعَ ذٰلِكَ فَقَدْ كانَ ٱلسَّائِقُ يَمْضي بِٱلعَرَبةِ مُسْرِعًا ، كَأَنَّما يُريدُ أَنْ يُنْهِيَ ٱلرِّحْلةَ بِقَدْرِ ما يَسْتَطيعُ مِنْ سُرْعةٍ . وَفيما بَعْدُ ، حينَما بَدَأَ ٱلطَّريقُ يَتَصَعَّدُ

إِلى ٱلجِبالِ كانَ مُضْطَرًّا إِلى ٱلإِبْطاءِ . وَأَرادَ جوناثان حينَئِذٍ أَنْ يَنْزِلَ مِنَ ٱلعَرَبةِ وَيَسيرَ عَلى قَدَمَيْهِ بِمُحاذاتِها ، وَلٰكِنَّ ٱلسَّائِقَ لَمْ يَسْمَحْ لَهُ ، وَقالَ مُحَذِّرًا : « لا ! لا ! إِنَّ ٱلذِّئابَ هُنا خَطِرةٌ . »

وَحينَما ٱنْتَشَرَ ٱلظَّلامُ ٱنْتابَتِ ٱلْمُسافِرينَ ٱلرَّهْبةُ ، وَلٰكِنَّ ٱلسَّائِقَ زادَ في سُرْعةِ ٱلجِيادِ ، وَلَمْ يَكُنْ يَتَوَقَّفُ إِلَّا لَحْظةً رُبَّما يُشْعِلُ ٱلْمَصابيحَ . وَأَخيرًا بَلَغَتِ ٱلعَرَبةُ أَعْلى بُقْعةٍ في ٱلطَّريقِ ، وَمَضَتْ في طَريقٍ لا هُوَ مُرْتَفِعٌ وَلا هُوَ مُنْخَفِضٌ ، وَقَدَّرَ جوناثان أَنَّهُ لابُدَّ أَنْ يَكونَ هاهُنا ٱلْمَكانُ ٱلَّذي تَنْتَظِرُهُ فيهِ عَرَبةُ ٱلكونْت دراكولا .

وَفَجْأَةً أَخَذَ ٱلرُّكَّابُ ٱلآخَرونَ يُلَوِّحونَ بِأَيْديهِمْ يَلْتَمِسونَ لَهُ ٱلبَرَكاتِ كَما فَعَلَ أُولٰئِكَ ٱلَّذينَ كانوا عِنْدَ ٱلفُنْدُقِ . فَهَلْ كانَ هٰذا أَمْرًا مَأْلوفًا ، أَمْ أَنَّهُ كانَ هُناكَ خَطَرٌ حَقًّا ؟ ثُمَّ تَوَقَّفَتِ ٱلعَرَبةُ وَٱنْتَظَرَتْ ، وَكانَ كُلُّ مَنْ فيها صامِتًا يَرْقُبُ ٱلْمَصابيحَ ٱلْمُشْتَعِلةَ ، أَمَّا ٱلجِيادُ فَكانَتْ تَرْتَجِفُ مُتَمَلْمِلةً .

وَبَعْدَ لَحَظاتٍ قالَ ٱلسَّائِقُ : « لا تُوجَدُ عَرَبةٌ هُنا ، لَيْسَ هُناكَ أَحَدٌ في ٱنْتِظارِ ٱلسَّيِّدِ ٱلإِنْجليزِيِّ فَمِنَ ٱلأَفْضَلِ لَهُ أَنْ يَظَلَّ في ٱلعَرَبةِ مَعَنا إِلى بوكوڤينا ، ثُمَّ يَعودَ غَدًا ، بَلْ لَعَلَّ ٱلأَفْضَلَ لَهُ أَنْ يَعودَ بَعْدَ غَدٍ . »

فَقالَ أَحَدُ ٱلْمُسافِرينَ : « أَوْ لَعَلَّ ٱلخَيْرَ أَلَّا يَعودَ أَبَدًا . »

فَصاحَ آخَرُ : « نَعَمْ ، نَعَمْ ، خَيْرٌ ما يَفْعَلُهُ هُوَ أَنْ يَذْهَبَ إِلى بوكوڤينا . »

وَلَمْ يَكَدْ يُتِمُّ عِبارَتَهُ حَتَّى طَرَقَ أَسْماعَهُمْ صَوْتُ عَرَبةٍ أُخْرى مِنْ خَلْفِهِمْ . وَظَهَرَتْ أَرْبَعةُ جِيادٍ سودٍ ، يَسوقُها رَجُلٌ طَويلٌ يَرْتَدي قُبَّعةً كَبيرةً سَوْداءَ ، وَكانَتِ ٱلقُبَّعةُ تُخْفي مُعْظَمَ وَجْهِهِ ، فيما عَدا عَيْنَيْهِ ٱللَّتَيْنِ كانَ آحْمِرارُهُما يَلْمَعُ في ضَوْءِ ٱلْمِصْباحِ .

قالَ ٱلرَّجُلُ في لُغةٍ أَلْمانِيَّةٍ سَليمةٍ : « لَقَدْ وَصَلْتَ مُبَكِّرًا ٱللَّيْلةَ ياصَديقي . »

فَلَمْ يُجِبْهُ سائِقُ بيسْتريتْر ، وَكانَ واضِحًا أَنَّهُ خائِفٌ . فَرَدَّدَ آلرَّجُلُ مَرَّةً ثانِيةً : « لَقَدْ وَصَلْتَ مُبَكِّرًا آللَّيْلةَ . »

فَأَجابَهُ سائِقُ بيسْتريتْر : « إنَّ آلسَّيِّدَ آلإنْجليزِيَّ كانَ مُسْتَعْجِلًا . »

فَقالَ آلرَّجُلُ : « أَظُنُّ أَنَّ هٰذا هُوَ آلسَّبَبُ في أَنَّكَ أَرَدْتَ أَنْ تَأْخُذَهُ إلى بوكوڤينا . إنَّكَ لا تَسْتَطيعُ أَنْ تُخْفِيَ ما يَجُولُ في ذِهْنِكَ مِنْ أَفْكارٍ ياصَديقي . » قالَ ذٰلِكَ ، وَآبْتَسَمَ آبْتِسامةً قَبيحةً ، فَظَهَرَتْ في ضَوْءِ آلمَصابيحِ أَسْنانُهُ آلبَيْضاءُ غَيْرُ آلعادِيَّةِ .

وَمَرَّةً ثانِيةً لَمْ يُجِبْ سائِقُ بيسْتريتْر بِكَلِمةٍ ، وَإنَّما قَفَزَ إلى آلأَرْضِ بِسُرْعةٍ ، وَوَضَعَ

حَقائِبَ جوناثان في ٱلعَرَبةِ ٱلأُخْرى ، وَهَبَطَ جوناثان مِنَ ٱلعربةِ ، وَساعَدَهُ ٱلسَّائِقُ ٱلجَديدُ في صُعودِ عَرَبَتِهِ . وَلَمْ يَشْعُرْ جوناثان بِٱرْتِياحٍ حينَما ٱنْغَرَزَتْ أَصابِعُ ٱلسَّائِقِ ٱلقَويَّةُ ٱلنَّحيلةُ بِعُمْقٍ في ذِراعِهِ .

وَٱنْطَلَقَتْ عَرَبةُ بيسْتريتْر ثُمَّ ٱخْتَفَتْ في ٱلظَّلامِ . وَأَحسَّ جوناثان فَجْأَةً بِٱلوَحْدةِ ٱلموحِشةِ .

قالَ الرَّجُلُ : « إنَّ ٱللَّيْلةَ بارِدةٌ ، فَخُذْ هٰذا غِطاءً تَتَدَثَّرُ بِهِ . لَقَدْ طَلَبَ مِنِّي سَيِّدي أَنْ أُرْعاكَ خَيْرَ رِعايةٍ ، وَهُناكَ زُجاجةُ عَصيرٍ تَحْتَ ٱلمَقْعَدِ إذا رَغِبْتَ في الشُّرْبِ . »

وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ هٰذا ، وَإنَّما حَوَّلَ مَسارَ ٱلعَرَبةِ وَٱنْطَلَقَ بِها في طَريقٍ جانِبِيٍّ لَمْ يَلْحَظْهُ جوناثان مِنْ قَبْلُ ، وَكانَ يَمْتَدُّ لِيَتَصَعَّدَ إلى أَعْلَى ٱلجَبَلِ .

وَبَيْنَما كانَتِ ٱلعَرَبةُ تَسيرُ بِهِما في ٱللَّيْلِ ٱلبَهيمِ لَمْ يَكُنْ جوناثان في ٱلبِدايةِ يَسْتَطيعُ أَنْ يَرَى شَيْئًا . فَقَدْ كانَ ٱلظَّلامُ حالِكًا ، وَلَمْ تَكُنِ ٱلعَرَبةُ مُزَوَّدةً بِمَصابيحَ ، وَإنَّما كانَتْ تَطْرُقُ سَمْعَهُ طَوالَ ٱلوَقْتِ أَصْواتُ ٱلذِّئابِ ، فَيَعْوي ذِئْبٌ أَوَّلًا ، ثُمَّ يَعْوي آخَرُ بَعْدَهُ ، كُلٌّ يَرُدُّ عَلى صاحِبِهِ . وكانَتْ أَصْواتُها تَتَرَدَّدُ عَبْرَ ٱلوُدْيانِ ، وَكُلَّما مَضَتِ ٱلعَرَبةُ قُدُمًا ٱزْدادَتْ أَصْواتُها ٱرْتِفاعًا ، حَتَّى بَدا وَكَأَنَّ ٱلذِّئابَ تُحيطُ بِهِما مِنْ كُلِّ جانِبٍ . وَحينَما حَدَّقَ جوناثان بِعَيْنَيْهِ خِلالَ ٱلظَّلامِ رَأَى قَطيعًا مِنَ ٱلذِّئابِ تَلْتَفُّ حَوْلَهُما كَأَنَّما تَقومُ بِحِراسَتِهِما . فَكانَتْ حَلْقةً مِنَ ٱلعُيونِ ٱلحُمْرِ تَتَحَرَّكُ مَعَهُما بِنَفْسِ ٱلسُّرْعةِ ٱلَّتي تَتَحَرَّكُ بِها ٱلجِيادُ .

وَلَمْ يَكُنْ يَبْدو عَلى ٱلسَّائِقِ أَنَّهُ يَكْتَرِثُ بِما يَراهُ ، وَلٰكِنَّ ٱلجِيادَ كانَتْ خائِفةً ، وَحينَما ٱزْدادَتِ ٱلذِّئابُ قُرْبًا صاحَ ٱلسَّائِقُ فيها ، كَما يَصيحُ ٱلمَرْءُ في كِلابِهِ .

كانَتِ ٱلتَّجْرِبةُ بِٱلنِّسْبةِ لجوناثان أَشْبَهَ بِحُلْمٍ طَويلٍ مُزْعِجٍ وَلَمْ يَنْتَهِ هٰذا ٱلْحُلْمُ إلَّا حينَما تَغَيَّرَ صَوْتُ عَجَلاتِ ٱلعَرَبةِ ، بِما دَلَّ عَلى أَنَّهُما قَدِ ٱجْتازا ساحةَ ٱلدّارِ في قَلْعةِ دراكولا .

ٱلفَصْلُ ٱلثّاني

غادَرَتِ ٱلعَرَبةُ ٱلمَكانَ وَتَرَكَتْ جوناثانَ واقِفًا أَمامَ بابٍ قَديمٍ ضَخْمٍ ذي دَعائِمَ حَديدِيَّةٍ . وَلَمْ يَكُنْ بِٱلطّابَقِ ٱلأَرْضِيِّ أَيَّةُ نافِذةٍ ، وإنَّما كانَ هُناكَ ضَوْءٌ يَنْبَعِثُ مِنْ أَعْلَى ٱلمَبْنى مِمَّا يَدُلُّ عَلى أَنَّ ٱلقَلْعةَ لَمْ تَكُنْ خالِيةً مِنَ ٱلسُّكّانِ ، وَلَمْ يَكُنْ هُناكَ جَرَسٌ ، وَلِذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ في وُسْعِهِ إلَّا أَنْ يَنْتَظِرَ حَتَّى يَأْتِيَ أَحَدٌ لِيَقودَهُ إلى ٱلدّاخِلِ .

ظَلَّ جوناثان واقِفًا بِضْعَ دَقائِقَ لا تَطْرُقُ سَمْعَهُ إلَّا أَصْواتُ الذِّئابِ ، إلى أَنْ سَمِعَ جَلَبةً عِنْدَ ٱلجانِبِ ٱلدّاخِلِيِّ مِنَ ٱلبابِ ، ثُمَّ فُتِحَ ٱلبابُ ، وَظَهَرَ رَجُلٌ طَويلٌ أَسْوَدُ ٱلشَّعْرِ يَلْبَسُ رِداءً أَسْوَدَ ، وَيُمْسِكُ في يَدِهِ مِصْباحًا فِضِّيًّا . إبْتَسَمَ ٱلرَّجُلُ قائِلًا :

« إنَّني أُقَدِّمُ إلَيْكَ مَنْزِلي ، فَأَهْلًا بِكَ وَسَهْلًا . تَدْخُلُهُ حُرًّا وَتَرْحَلُ مِنْهُ سالِمًا ، وَٱتْرُكْ لَدَيْنا بَعْدَ رَحيلِكَ بَعْضًا مِنَ ٱلسَّعادةِ ٱلَّتي جِئْتَ بِها إلَيْنا . »

فَسَأَلَ جوناثان وَهُوَ يُصافِحُ ٱليَدَ ٱلَّتي ٱمْتَدَّتْ إلَيْهِ : « ٱلكونْت دراكولا ؟ »

فَأَجابَ ٱلرَّجُلُ : « أنا دراكولا . وَيَسُرُّني ياسَيِّدُ هاركَر أَنْ أَسْتَقْبِلَكَ في مَنْزِلي . سَأَحْمِلُ عَنْكَ حَقائِبَكَ ، فَٱلوَقْتُ مُتَأَخِّرٌ وَٱلخَدَمُ نائِمونَ . »

وَأَخَذَ جوناثان ٱلمِصْباحَ مِنْهُ ، وَتَبِعَهُ وَهُوَ يَصْعَدُ ٱلسُّلَّمَ ، ثُمَّ وُهُوَ يَعْبُرُ مِنْ خِلالِ حُجْرةٍ فَسيحةٍ مُضاءَةٍ إضاءَةً جَيِّدةً إلى غُرْفةِ نَوْمِهِ . وَكانَ سُرورُ جوناثان بالِغًا إذْ وَقَعَ بَصَرُهُ في ٱلحُجْرةِ ٱلَّتي ٱجْتازاها عَلى مِدْفَأَةٍ حَطَبٍ مُشْتَعِلةٍ ، وَمائِدةٍ عامِرةٍ بِٱلطَّعامِ .

لَمْ يَجْلِسِ ٱلكونْت مَعَ جوناثان إلى ٱلمائِدةِ مُعْتَذِرًا بِأَنَّهُ سَبَقَ أَنْ تَناوَلَ طَعامَهُ ، وَلِذٰلِكَ ، فَبَيْنَما كانَ جوناثان يَأْكُلُ ، أَخَذَ ٱلكونْت يُطالِعُ ٱلرِّسالةَ ٱلَّتي أَحْضَرَها جوناثان مَعَهُ مِنَ ٱلسَّيِّدِ هَوكينز ٱلمُحامي ٱلمُسِنِّ ٱلَّذي يَعْمَلُ في مَكْتَبِهِ . وَبَدا عَلى ٱلكونْت ٱلسُّرورُ بَعْدَ أَنْ قَرَأَ ٱلرِّسالةَ ، ثُمَّ أَعادَها إلى جوناثان لِكَيْ يَطَّلِعَ عَلى ٱلأَشْياءِ ٱلطَّيِّبةِ ٱلَّتي

كَتَبَها هَوكينز عَنْهُ .

وَبَعْدَ أَنْ تَناوَلَ جوناثان طَعامَهُ جَلَسَ ٱلضَّيْفُ وَٱلْمُضيفُ بِجِوارِ ٱلـمِدْفَأَةِ يَتَحَدَّثانِ . وَكانَ جوناثان مَسْرورًا لِأَنَّ ٱلكونْت كانَ يَتَحَدَّثُ بِلُغةٍ إِنْجليزِيَّةٍ سَليمةٍ ، كَما أَنَّ ٱلسُّرورَ كانَ بادِيًا عَلى ٱلكونْت لِأَنَّهُ وَجَدَ مَنْ يَتَحَدَّثُ مَعَهُ بِٱلإِنْجليزِيَّةِ ، وَكانَ هُوَ أَكْثَرَ ٱلاثْنَيْنِ حَديثًا مِمَّا هَيَّأَ لِجوناثان فُرْصَةَ ٱلتَّأَمُّلِ في وَجْهِهِ وَدِراسَتِهِ .

كانَ وَجْهُهُ غَيْرَ عادِيٍّ ، فَٱلأَنْفُ قَوِيٌّ حَسَنُ ٱلصُّورةِ ، وَٱلأُذُنانِ مُحَدَّدَتانِ ناتِئَتانِ ، وَالشَّفَتانِ خَمْراوانِ ، وَٱلأَسْنانُ حادَّةٌ بَيْضاءُ . وَلٰكِنَّ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذي كانَ يَلْفِتُ فيهِ ٱلنَّظَرَ بِصِفةٍ خاصَّةٍ هُوَ ذٰلِكَ ٱلشُّحوبُ غَيْرُ الطَّبيعِيِّ . لابُدَّ أَنَّ ٱلرَّجُلَ كَبيرُ ٱلسِّنِّ ، وَلٰكِنَّهُ ، مَعَ ذٰلِكَ ، كانَ يَبْدو قَوِيًّا نَشيطًا . وَقَدْ لَحَظَ جوناثان أَيْضًا يَدَيْهِ ٱللَّتَيْنِ نَبَتَ ٱلشَّعْرُ في راحَتَيْهِما ، وَأَصابِعَهُ ٱلطَّويلةَ ٱلحادَّةَ ٱلأَطْرافِ . وَلَـمْ يَكُنْ جوناثان يَشْعُرُ بِٱلارْتِياحِ حينَما كانَ ٱلكونْت يَتَحَدَّثُ فَيَلْـمِسُ أَحْيانًا ذِراعَهُ بِأَصابِعِهِ ، كَما أَنَّ ٱلرَّائِحةَ ٱلـمُنْبَعِثةَ مِنْ أَنْفاسِ ٱلكونْت كانَتْ تُثيرُ ٱلغَثَيانَ . لَقَدْ كانَتْ فيها رائِحةُ ٱلـمَوْتِ ، حَتَّى لَقَدْ تَساءَلَ في نَفْسِهِ : « تُرَى أَتَكونُ هِيَ ٱلسَّبَبَ في أَنَّ ٱلنَّاسَ يَخافونَهُ ؟ »

وَأَخيرًا ، خَيَّمَ ٱلسُّكونُ عَلى ٱلقَلْعةِ فيما عَدا عُواءَ ٱلذِّئابِ في ٱلخارِجِ وَٱلَّذي كانَ لا يَزالُ مَسْموعًا . وَقالَ ٱلكونت وَهُوَ يَنْهَضُ : « أَوْلادي في هِياجِ ٱللَّيْلةِ . إِنَّ لَدَيْنا بَعْضَ ٱلزُّوّارِ . »

وَحينَما نَهَضَ ، كانَ ضَوْءُ ٱلفَجْرِ قَدْ بَدَأَ يَنْتَشِرُ ، وَهٰكَذا ٱنْقَضَتْ أَوَّلُ لَيْلةٍ لِجوناثان في قَلْعةِ دراكولا .

كانَ جوناثان مُرْهَقًا مَكْدودًا ، وَلِذٰلِكَ نامَ طَويلًا ، وَلَـمَّا ٱسْتَيْقَظَ دَلَفَ إِلى ٱلحُجْرةِ ٱلَّتي تَناوَلَ فيها ٱلطَّعامَ في ٱللَّيْلةِ ٱلـماضِيةِ ، فَوَجَدَ طَعامَ ٱلإِفْطارِ مُعَدًّا ، وَإِبْريقَ ٱلقَهْوةِ قُرْبَ نارِ ٱلـمِدْفَأَةِ ، وَأُمْكِنَهُ في تِلْكَ ٱللَّحْظةِ أَنْ يَرَى قَلْعةَ دراكولا عَلى حَقيقَتِها : فَهِيَ قَلْعةٌ قَديمةٌ

مَليئةٌ بِالغُبارِ ، مَسَّها ٱلبِلَى ، مَعَ أَنَّ إِبْريقَ ٱلقَهْوةِ كانَ مِنَ ٱلذَّهَبِ .

وَحينَما فَرَغَ مِنْ تَناوُلِ طَعامِهِ نَظَرَ باحِثًا عَنْ جَرَسٍ يَدُقُّهُ لِكَيْ يَعْرِفَ ٱلخَدَمُ أَنَّهُمْ يَسْتَطيعونَ أَنْ يَرْفَعوا ٱلصُّحونَ . وَلٰكِنْ لَـمْ يَكُنْ هُناكَ جَرَسٌ ، بَلْ إِنَّهُ لَـمْ يَكُنْ هُناكَ خَدَمٌ عَلى ٱلأَقَلِّ في هٰذا ٱلجُزْءِ مِنَ ٱلقَلْعةِ ٱلَّذي كانَ يُمْكِنُهُ ٱلتَّجَوُّلُ فيهِ ، وَكانَتِ ٱلأَبْوابُ كُلُّها موصَدةً فيما عَدا بابًا واحِدًا كانَ يُؤَدِّي إِلى حُجْرةِ جُلوسٍ تَشْتَمِلُ عَلى مَجْموعةِ كُتُبٍ ، وَقَدْ أَخَذَتْهُ ٱلدَّهْشةُ حينَما وَجَدَ بَيْنَها كُتُبًا وَصُحُفًا إِنْجليزِيَّةً ، فَجَلَسَ لِيُطالِعَ . وَكانَ لا يَزالُ جالِسًا لِلْقِراءةِ في ٱلـمَساءِ حينَما دَخَلَ ٱلكونْت ٱلَّذي بادَرَهُ بِقَوْلِهِ :

« إِنَّني مَسْرورٌ لِأَنَّكَ عَرَفْتَ طَريقَكَ إِلى هُنا . إِنَّني ، مُنْذُ عَزَمْتُ عَلى شِراءِ مَنْزِلٍ في إِنْجِلْترا ، أُحاوِلُ أَنْ أَعْرِفَ شَيْئًا عَنِ ٱلحَياةِ ٱلإِنْجليزِيَّةِ . وَيُؤْسِفُني أَنَّ مَعْرِفَتي بِٱللُّغةِ ٱلإِنْجليزِيَّةِ كانَتْ عَنْ طَريقِ ٱلكُتُبِ فَحَسْبُ ، وَلٰكِنَّني آمُلُ أَنْ أَزْدادَ بِها عِلْـمًا بِٱلتَّحَدُّثِ إِلَيْكَ ياسَيِّدُ هاركَر . وَلِذٰلِكَ فَإِنِّي أَرْجو أَنْ تَطولَ إِقامَتُكَ في قَلْعَتي ، وَأَلَّا تَكونَ مُتَعَجِّلًا في ٱلعَوْدةِ . »

ثُمَّ ٱسْتَمَرَّ يَقولُ : « وَتَذَكَّرْ ياسَيِّدُ هاركَر ، مادُمْتَ هُنا ، أَنَّ ٱلدَّارَ دارُكَ . فَجُلْ فيها حَيْثُ تَشاءُ فيما عَدا ما وَراءَ ٱلأَبْوابِ ٱلـمُوصَدةِ ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّكَ ، بِٱلطَّبْعِ ، لَنْ تَرْغَبَ في دُخولِها . إِنَّ هُناكَ مِنَ ٱلأَسْبابِ ما يَدْعو إِلى هٰذِهِ ٱلإِجْراءاتِ ، فَنَحْنُ في ترانْسيلْڤانْيا ، وَترانْسيلْڤانْيا لَيْسَتْ إِنْجِلْترا . »

وَبَيْنَما كانَ يَقولُ ذٰلِكَ تَكَشَّفَتْ أَسْنانُهُ عَنِ ٱبْتِسامةٍ أَشْبَهَ بِٱبْتِسامةِ ٱلذِّئْبِ ، وَٱسْتَمَرَّ يَقولُ : « وَٱلآنَ ، زَوِّدْني بِمَعْلوماتٍ عَنِ ٱلـمَنْزِلِ ٱلَّذي ٱشْتَراهُ لي صاحِبُكَ ٱلسَّيِّدُ هَوكينز ، وَأَحْسَبُ أَنَّ هُناكَ بَعْضَ أَوْراقٍ لِأُوَقِّعَ عَلَيْها بِٱسْمي ، وَطَبيعِيٌّ أَنْ تَكونَ لَدَيَّ رَغْبةٌ في مَعْرِفةِ كُلِّ شَيْءٍ . »

فَرَدَّ جوناثان : « أَوَّلًا ، آمُلُ أَنْ تَجِدَ أَنَّ ٱلـمَنْزِلَ ٱلَّذي ٱشْتَرَيْناهُ لَكَ هُوَ ما كُنْتَ تَرْغَبُ فيهِ فِعْلًا ، وَأَصْدُقُكَ ٱلقَوْلَ : إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ ٱلنَّوْعِ ٱلَّذي يَرْغَبُ فيهِ أَغْلَبُ ٱلنَّاسِ ، وَلٰكِنَّهُ

يُطابِقُ ما طَلَبْتَهُ . إنَّهُ يُسَمَّى كارْفاكْس ، وَمُلْحَقٌ بِهِ أَرْضٌ واسِعةٌ تُغَطّي مُعْظَمَها ٱلأَشْجارُ بِما يُضْفي عَلَيْها بَعْضَ ٱلظُّلْمةِ . أَمَّا ٱلمَنْزِلُ ذاتُهُ فَواسِعٌ قَديمٌ قَليلُ ٱلنَّوافِذِ ، وَأَخْشَى أَنَّكَ لَنْ تَجِدَ صُحْبةً كَثيرةً في كارْفاكْس ، إذْ إنَّهُ لا توجَدُ مَنازِلُ كَثيرةٌ مُجاوِرةٌ . أَمَّا جارُكَ ٱلوَحيدُ في ٱلمِنْطَقةِ فَهُوَ طَبيبٌ يَتَوَلَّى إدارةَ مُسْتَشْفى لِلْمَجانينِ . »

فَرَدَّ ٱلكونْت : « إنَّني مَسْرورٌ لِأَنَّ ٱلمَنْزِلَ قَديمٌ ، فَلَقَدْ نَشَأْتُ في أُسْرةٍ عَريقةٍ ، وَلا أُحِبُّ أَنْ أُقيمَ في مَنْزِلٍ لَيْسَ لَهُ تاريخٌ ، ثُمَّ إنَّني لا أُبالي ٱلظَّلامَ . فَرَجُلٌ مُسِنٌّ مِثْلي ، يَعيشُ وَحيدًا وَيُفَكِّرُ كَثيرًا في ٱلمَوْتِ ، لا يُمْكِنُ أَنْ يَخْشَى ٱلظَّلامَ . »

ثُمَّ وَقَّعَ ٱلكونْت بِٱسْمِهِ عَلى ٱلأَوْراقِ ، وسارَ يَتْبَعُهُ جوناثان إلى حُجْرةِ ٱلمائِدةِ حَيْثُ كانَ ٱلطَّعامُ في ٱنْتِظارِهِما . وَمَرَّةً ثانِيةً ٱعْتَذَرَ ٱلكونت عَنْ عَدَمِ تَناوُلِ ٱلطَّعامِ عَلى زَعْمِ أَنَّهُ تَناوَلَهُ خارِجَ ٱلمَنْزِلِ .

اِنْقَضَتْ هٰذِهِ ٱلأُمْسِيَّةُ وَٱلأَماسِيُّ ٱلتّالِيةُ بِنَفْسِ ٱلنَّمَطِ ، وَمَعَ أَنَّهُ كانَ يَبْدو غَريبًا ، في نَظَرِ جوناثان ، أَنْ يَقْضِيَ ٱلوَقْتَ بِٱلحَديثِ في ٱللَّيْلِ ، وَٱلنَّوْمِ في ٱلنَّهارِ ، فَقَدْ بَدا لَهُ أَنَّ هٰذا هُوَ ٱلأُسْلوبُ ٱلَّذي تَعَوَّدَهُ ٱلكونْت ، وَأَحَسَّ أَنَّ مِنَ ٱلواجِبِ عَلَيْهِ أَنْ يُرْضِيَهُ . أَمّا ٱلكونْت فَقَدْ كانَ مَسْلَكُهُ دَمِثًا لَطيفًا ، وَكانَ حَديثُهُ دائِمًا شائِقًا وَمَعَ ذٰلِكَ فَقَدْ كانَ جوناثان ، لِسَبَبٍ غامِضٍ لا يَعْلَمُهُ ، مُتَوَجِّسًا خيفةً مِنْهُ . وَلَمْ يَكُن مَصْدَرُ ذٰلِكَ هُوَ ، فَقَطْ ، تِلْكَ ٱلنَّظْرةَ ٱلَّتي كانَ يَلْمَحُها أَحْيانًا في عَيْنَيْه ٱلغَريبَتَيْنِ بِسَبَبِ حُمْرَتِهِما ، وَإِنَّما هُوَ ، كَذٰلِكَ ، إحْساسُهُ أَنَّ ٱلكونْت لَيْسَ رَجُلًا عادِيًّا ، وَأَنَّ فيهِ قُوًى غَيْرَ طَبيعِيَّةٍ . وَحانَتْ فُرْصةٌ وَجَدَ فيها جوناثان بُرْهانًا يُؤَيِّدُ هٰذا ٱلإحْساسَ ، وَكانَ ذٰلِكَ عَقِبَ قُدومِهِ بِحَوالَى أُسْبوعٍ . كانَ جوناثان يَقِفُ بِجِوارِ ٱلنّافِذةِ يَحْلِقُ ذَقَنَهُ وَقَدْ وَضَعَ أَمامَهُ مِرْآةً صَغيرةً كانَتْ صَديقَتُهُ مِينا ، لِحُسْنِ ٱلحَظِّ ، قَدْ أَهْدَتْها إلَيْهِ . وَنَقولُ « لِحُسْنِ ٱلحَظِّ » لِأَنَّهُ لَمْ تَكُنْ هُناكَ مِرآةٌ في غُرْفَتِهِ ، وَلا في أَيٍّ مِنْ غُرَفِ ٱلقَلْعةِ ٱلأُخْرى .

وَفَجْأَةً أَحَسَّ بِمَلْمَسِ يَدٍ ، وَسَمِعَ صَوْتًا يُحَيِّيهِ تَحِيَّةَ ٱلصَّباحِ ، فَقَفَزَ مِنَ ٱلمُفاجَأةِ ،

وَنَظَرَ فَإِذا ٱلكونْت واقِفٌ بِجانِبِهِ . كانَ ٱلكونْت مِمَّنْ يَمْشونَ بِهُدوءٍ ، وَمِنَ ٱلمُمْكِنِ أَنْ يَكونَ قَدْ دَخَلَ ٱلحُجْرةَ فَلَمْ يَسْمَعْ وَقْعَ أَقْدامِهِ ، أَمَّا غَيْرُ ٱلمُمْكِنِ فَهُوَ أَنْ يَدْخُلَ ٱلحُجْرةَ وَلا يُرى ، وَقالَ جوناثان في نَفْسِهِ : « كَيْفَ لَمْ أَرَهُ في ٱلمِرْآةِ وَهُوَ يَدْخُلُ ٱلحُجْرةَ ، ثُمَّ إنَّهُ يَقِفُ ٱلآنَ أَمامَ ٱلمِرْآةِ ، وَمَعَ أَنَّني أَرى نَفْسي فيها فَإِنَّني لا أَراهُ . »

وَبَيْنَما كانَ جوناثان لا يَزالُ يُحَدِّقُ في ٱلمِرْآةِ لَحَظَ أَنَّهُ جَرَحَ ذَقَنَهُ وَأَنَّ ٱلدَّمَ أَخَذَ يَسيلُ عَلى عُنُقِهِ ، فَٱلْتَفَتَ نَحْوَ ٱلكونْت مَرَّةً ثانِيةً لِيَتَأَكَّدَ ما إذا كانَ في ٱلحُجْرةِ حَقيقةً ، فَأَصابَهُ

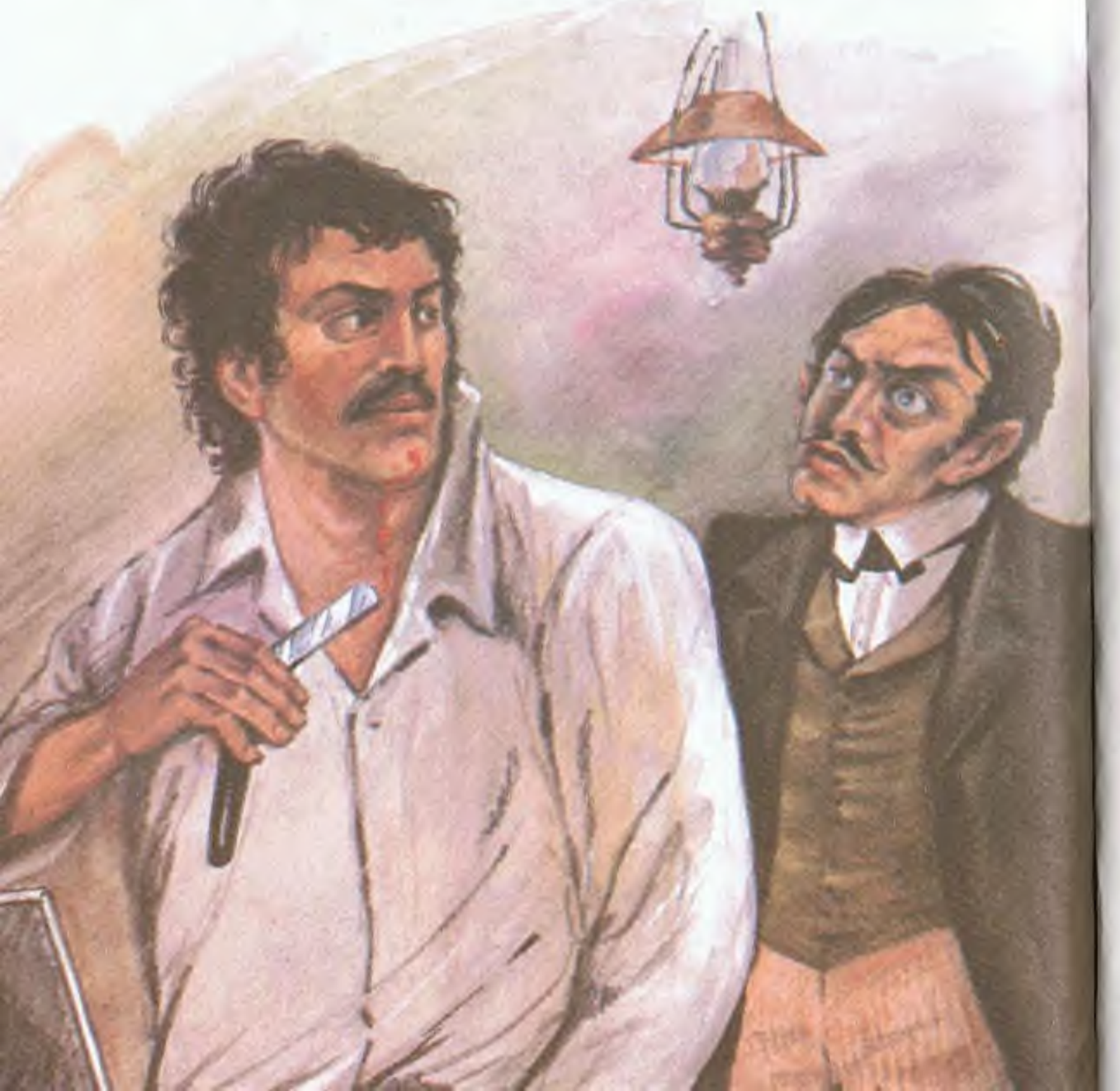

ٱلْفَزَعُ وَتَجَمَّدَ فِي مَكانِهِ . كانَ دراكولا يُراقِبُهُ وَكَأَنَّه حَيَوانٌ جائِعٌ . وَبَدا وَكَأَنَّهُ يَتأَهَّبُ لِمُهاجَمَتِهِ .

كانَ ٱلدَّمُ في هٰذِهِ ٱللَّحْظَةِ قَدْ وَصَلَ حَتَّى ٱلصَّليبِ ٱلَّذي قَدَّمَتْهُ لَهُ سَيِّدَةُ ٱلْفُنْدُقِ ، وَبِدونِ تَفْكيرٍ مَسَحَ جوناثان ٱلدَّمَ بِظَهْرِ يَدِهِ . وَفي أَثناءِ ذٰلِكَ رَفَعَتْ يَدُهُ ٱلصَّليبَ ، وَإِذا بِوَجْهِ ٱلكونْت يَتَغَيَّرُ وَيَبْدو كَٱلْمَجْنونِ ، وَوَقَفَ يَرْتَعِشُ فَتْرَةً مِنَ ٱلزَّمَنِ كَأَنَّما تُغالِبُهُ ٱلرَّغْبَةُ في ٱلْهُجومِ عَلى جوناثان ، وَلٰكِنَّهُ ، لِأَمْرٍ مّا ، غَيْرُ قادِرٍ . وَفَجْأَةً تَناوَلَ ٱلْمِرْآةَ ٱلصَّغيرَةَ وَأَلْقاها مِنَ ٱلنّافِذَةِ . وَمَضَتْ لَحْظَةُ سُكونٍ طَويلَةٌ ، وَجَدَ جوناثان نَفْسَهُ في أَثْنائِها يَحْسِبُ ٱلْوَقْتَ ٱلَّذي انْقَضى قَبْلَ أَنْ يَسْمَعَ صَوْتَ تَهَشُّمِ ٱلْمِرْآةِ عَلى ٱلصُّخورِ . أَمّا ٱلكونْت فَقَدِ ٱسْتَدارَ إِلَيْهِ قائِلًا : « إِنَّ ٱلشَّيْطانَ أَعْطى ٱلنّاسَ ٱلْمَرايا لِكَيْ يَجْعَلَهُمْ مُتَعالينَ مُتَكَبِّرينَ . إِنَّني لا أَسْمَحُ بِها في مَنْزِلي . » ثُمَّ قالَ وَهُوَ يُغادِرُ ٱلْحُجْرَةَ : « حاوِلْ أَلّا تَجْرَحَ نَفْسَكَ ، فَإِنَّ ذٰلِكَ في بَلَدِنا أَكْثَرُ خُطورَةً مِمّا تَتَصَوَّرُ . »

وَفي ٱلْبِدايَةِ ، لَمْ يَكُنْ في وُسْعِ جوناثان إِلّا أَنْ يَظَلَّ واقِفًا وَرَغْوَةُ ٱلصّابونِ تَجِفُّ عَلى وَجْهِهِ . كانَ عاجِزًا عَنْ أَنْ يَفْعَلَ أَيَّ شَيْءٍ . وَتَدافَعَتِ ٱلتَّساؤُلاتُ في ذِهْنِهِ : لِماذا ٱسْتُثيرَ ٱلرَّجُلُ هٰذِهِ ٱلاسْتِثارَةَ بِمَنْظَرِ ٱلدِّماءِ ؟ وَأَيُّ نَوْعٍ مِنَ ٱلرِّجالِ هٰذا ٱلَّذي لا تُمْكِنُ رُؤْيَتُهُ في ٱلْمِرْآةِ ؟

ثُمَّ نَظَرَ مِنَ ٱلنّافِذَةِ مُتَطَلِّعًا إِلى أَسْفَلَ . إِنَّ ٱلْمِرْآةَ لابُدَّ أَنْ تَكونَ قَدْ هَوَتْ مِئَةَ مِتْرٍ قَبْلَ أَنْ تَصْطَدِمَ بِٱلأَرْضِ . ما أَصْعَبَ ٱلْهُروبَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْقَلْعَةِ ! وَمَرَّتْ بِخاطِرِهِ أَفْكارٌ عَنِ ٱلأَبْوابِ ٱلْمُوصَدَةِ ، وَأَخَذَ يَتَساءَلُ : تُرى أَهُوَ زائِرٌ لِلْكونْت دراكولا ، أَمْ هُوَ سَجينٌ لَدَيْهِ ؟ أَهُوَ ضَيْفُهُ أَمْ أَسيرُهُ ؟

ٱلْفَصْلُ ٱلثّالِثُ

كانَ جوناثان مُحاميًا دَرَسَ ٱلقانونَ ، وَقَدْ عَلَّمَتْهُ هٰذِهِ ٱلدِّراسَةُ كَيْفَ يُواجِهُ ٱلْحَقائِقَ . وَمِنَ ٱلْحَقائِقِ ٱلَّتي كانَ عَلَيْهِ أَنْ يُواجِهَها آنَذاك أَنَّهُ سَجينٌ مِنْ نَوْعٍ ما . وَلٰكِنَّ ٱلْمُؤَكَّدَ أَنَّهُ سِجْنٌ مُؤَقَّتٌ لِبِضْعَةِ أَيّامٍ أُخْرى ، وَأَنَّهُ إِذا كانَ دراكولا قَدْ أَفْزَعَهُ فَهٰذا لا يَعْني بِالضَّرورَةِ أَنَّهُ في خَطَرٍ ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُخْفِيَ ما يَجُولُ في ذِهْنِهِ مِنْ أَفْكارٍ ، وَيُحاوِلَ أَنْ يَعْرِفَ ٱلْمَزيدَ مِنَ ٱلْمَعْلوماتِ .

وَفي هٰذا ٱلْمَساءِ سَمِعَ خُطُواتِ ٱلكونْتِ وَهُوَ يَدْخُلُ بَعْدَ عَوْدَتِهِ مِنْ خارِجِ ٱلْمَنْزِلِ ، وَلاحَظَ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ مُباشَرَةً إِلى حُجْرَةِ ٱلْجُلوسِ . فَمَشَى جوناثان بِخُطًى خَفيفَةٍ نَحْوَ بابِ حُجْرَةِ ٱلكونْتِ وَشاهَدَهُ يُرَتِّبُ فِراشَهُ . وَفيما بَعْدُ ، حينَ رَآهُ وَهُوَ يُعِدُّ بِنَفْسِهِ ٱلْمائِدَةَ في حُجْرَةِ ٱلطَّعامِ ، ٱتَّضَحَ لَهُ ــ عَلى ٱلأَقَلِّ ــ أَمْرٌ مِنَ ٱلأُمورِ : ٱتَّضَحَ لَهُ أَنَّهُ لَيْسَ هُناكَ خَدَمٌ في ٱلْقَلْعَةِ . لَقَدْ كانَ ٱلكونْتُ نَفْسُهُ هُوَ ٱلَّذي يَقومُ بِكُلِّ أَعْمالِ ٱلْمَنْزِلِ ، وَهُوَ ٱلَّذي يَسوقُ ٱلْعَرَبَةَ . إِذًا ، فَإِنَّ جوناثان وَحْدَهُ في ٱلْقَلْعَةِ مَعَ دراكولا . وَحْدَهُ ؟ لٰكِنْ لا ، لَيْسَ وَحْدَهُ تَمامًا كَما ٱكْتَشَفَ بَعْدَ أَيّامٍ قَليلَةٍ .

* * *

وَمَضَتِ ٱلأَيّامُ عَلى وَتيرَةٍ واحِدَةٍ . يَسْتَيْقِظُ جوناثان مِنْ نَوْمِهِ في وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ فَيَتَناوَلُ إِفْطارَهُ ، ثُمَّ يُطالِعُ في حُجْرَةِ ٱلْجُلوسِ ، وَفي ٱللَّيْلِ يَسْتَمِعُ إِلى ٱلكونْتِ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنْ تاريخِ أُسْرَتِهِ وَعَنْ بَلَدِهِ . وَكانَ حَديثُهُ عَنْ أُسْرَتِهِ أَوْ عَنْ بَلَدِهِ شَيِّقًا واحِدًا تَقْريبًا ، ذٰلِكَ أَنَّ أَعْضاءَ أُسْرَةِ دراكولا كانُوا هُمُ ٱلْمِحْوَرَ لِجَميعِ ٱلأَحْداثِ ٱلَّتي تُمَثِّلُ تاريخَ تَرانْسيلْڤانْيا وَهُنا كانَ حَديثُهُ شائِقًا . وَكانَ يَرْوي قِصَصَهُ بِأُسْلوبٍ يَفيضُ بِٱلعاطِفَةِ وَٱلْمَشاعِرِ ، حَتّى لَقَدْ يُخَيَّلُ إِلى ٱلسّامِعِ أَنَّهُ كانَ مُشْتَرِكًا بِنَفْسِهِ في ٱلْمَعارِكِ ٱلَّتي يَتَحَدَّثُ عَنْها .

وَفي بَعْضِ ٱلأَحْيانِ كانَ يَتَحَدَّثُ عَنْ أَشْياءَ عادِيَّةٍ .. عَنْ إِنْجِلْتِرا .. عَنِ ٱلقانونِ ..

عَنِ السُّفُنِ وَالقِطاراتِ . وَكانَ جوناثان يَأْخُذُهُ العَجَبُ مِنْ كَثْرَةِ المَعْلُوماتِ الَّتي يُلِمُّ بِها . وَكانَ مِنْ بَيْنِ الاهْتِماماتِ الَّتي أَبْداها رَغْبَتُهُ في تَصْديرِ بَضائِعَ إلى إنْجِلْتِرا ، وَلِذٰلِكَ كانَ يُريدُ اخْتِيارَ مَدينةٍ ساحِلِيَّةٍ حَيْثُ يُمْكِنُهُ شَحْنُ البَضائِعِ إلَيْها مُباشَرَةً .

قالَ الكونْتُ : « لا أُريدُ مَدينةً كَبيرَةً . فَقَدْ يَكُونُ فِي ذٰلِكَ مَشَقَّةٌ وَمَضْيَعَةٌ لِلْوَقْتِ ، فَماذا تَرى ياسَيِّدُ هارْكَر ؟ »

فَقالَ جوناثان : « لِماذا لا تَكونُ هُوِيتْبِي ؟ »

* * *

كانَ جوناثان يُفَكِّرُ في مِينا وَصَديقَتِها الجَميلَةِ لُوسي ، إذْ كانَتا تَعْتَزِمانِ الذَّهابَ لِقَضاءِ العُطْلَةِ في تِلْكَ المَدينَةِ القَديمَةِ الرّائِعَةِ الَّتي تَقَعُ فِي الشَّمالِ الشَّرْقِيِّ ، وَالَّتي تَشْتَهِرُ بِصَيْدِ الأَسْماكِ . حَدَّثَهُ جوناثان عَنِ المَدينَةِ وَعَنْ صاحِبَتِهِ مِينا . وَبَدا عَلى الكونْتِ الاهْتِمامُ وَالرِّضا ، فَقَدْ كانَتْ هُوِيتْبِي مُلائِمَةً لَهُ ، وَأَعْرَبَ كَذٰلِكَ عَنْ سَعادَتِهِ البالِغَةِ بِعَزْمِ جوناثان عَلى الزَّواجِ . وَتَمَنّى لَهُ أَطْيَبَ الأُمْنِيّاتِ .

وَقَدْ سَرَّ جوناثان ما رَآهُ مِنِ اهْتِمامِهِ بِزَواجِهِ ، فَأَخْرَجَ صُوَرًا فوتوغْرافِيَّةً لِمِينا وَلُوسي ، وَابْتَسَمَ الكونْت حينَ شاهَدَ الصُّوَرَ ، وَقالَ : « يالَهُما مِنْ فَتاتَيْنِ جَميلَتَيْنِ ! »

وَقَدْ نَطَقَ العِبارَةَ بِطَريقَةٍ جَعَلَتْ جوناثان يَأْسَفُ لِتَسَرُّعِهِ في إطْلاعِهِ عَلى الصُّوَرِ ، ثُمَّ قالَ الكونْتُ :

« صَديقَتُكَ الآنِسَةُ مِينا ! مِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّها تَرْغَبُ في مَعْرِفَةِ أَخْبارِكَ ، وَكَذٰلِكَ السَّيِّدُ هَوْكِينز . هَلْ كَتَبْتَ إلَيْهِما مُنْذُ قُدومِكَ ؟ »

فَأَجابَ جوناثان : « لا .. لَمْ تُتَحْ لِيَ الفُرْصَةُ ، لِكَيْ أَبْعَثَ بِأَيَّةِ رَسائِلَ . »

قالَ الكونْتُ : « إذًا فَاكْتُبِ الآنَ ياصَديقِيَ العَزيزَ . اكْتُبْ إلى السَّيِّدِ هَوْكِينز وَأَخْبِرْهُ أَنَّكَ

سَوْفَ تُقيمُ مَعي شَهْرًا آخَرَ . »

وَما إنْ سَمِعَ جوناثان كَلامَهُ حَتّى جَمَدَ الدَّمُ في عُروقِهِ ، وَقالَ : « أَتُريدُني أَنْ أُقيمَ هُنا هٰذِهِ الفَتْرَةَ الطَّويلَةَ ؟

فَأَجابَ الكونْتُ : « آمُلُ ذٰلِكَ . لَقَدْ بُعِثْتَ لِتَرْعى أَعْمالي ، وَأَعْمالي تَتَطَلَّبُ مِنْكَ أَنْ تَكونَ هُنا لِفَتْرَةٍ طَويلَةٍ . »

وَهُنا ، أَحَسَّ جوناثان ــ أَكْثَرَ مِمّا كانَ يُحِسُّ مِنْ قَبْلُ ــ أَنَّهُ أَشْبَهُ بِالسَّجينِ . قالَ لِنَفْسِهِ : « كَيْفَ أَسْتَطيعُ أَنْ أُواصِلَ الحَياةَ في هٰذِهِ القَلْعَةِ لِمُدَّةِ شَهْرٍ آخَرَ ؟ وَمَعَ هٰذا فَماذا أَسْتَطيعُ أَنْ أَفْعَلَ ؟ إنَّني أَعْمَلُ لَدَى السَّيِّدِ هَوْكِينز ، وَالكونْت دراكولا يَدْفَعُ أَجْرًا في مُقابِلِ خِدْماتي . »

وَاسْتَمَرَّ الكونْتُ يَقولُ : « إنَّني أَطْلُبُ إلَيْكَ أَلّا تَكْتُبَ في رَسائِلِكَ إلّا ما يَمَسُّ العَمَلَ . مَعَ اسْتِثْناءِ ما تَقولُهُ مِنْ إنَّكَ بِخَيْرٍ . »

ثُمَّ ناوَلَ جوناثان أَوْراقًا وَظُروفًا لِكِتابَةِ الرَّسائِلِ . وَكانَتِ الظُّروفُ مِنَ الرِّقَّةِ وَالشَّفافِيَةِ بِحَيْثُ يُمْكِنُ أَنْ يَقْرَأَ ما هُوَ مَكْتوبٌ في الرِّسالَةِ مِنْ خِلالِ الظَّرْفِ .

* * *

وَهٰكَذا جَلَسَ جوناثان ، وَكَتَبَ بِضْعَ رَسائِلَ لا تَتَضَمَّنُ أَيَّ أَمْرٍ مِنَ الأُمورِ الَّتي كانَ يَوَدُّ لَوِ اسْتَطاعَ أَنْ يَكْتُبَ عَنْها . وَأَخَذَ الكونْت الرَّسائِلَ ، وَقَبْلَ أَنْ يَذْهَبَ قالَ : « دَعْني أُحَذِّرْكَ ياصَديقِيَ الشّابَّ ، إذا غادَرْتَ هٰذِهِ الحُجُراتِ وَذَهَبْتَ إلى أَيِّ جُزْءٍ آخَرَ مِنَ القَلْعَةِ ، فَلا تَسْتَسْلِمْ لِلنَّوْمِ هُناكَ . إنَّ القَلْعَةَ قَديمَةٌ ، وَقَدْ وَقَعَتْ أَحْداثٌ غَريبَةٌ هُنا ، وَمِنَ المُحْتَمَلِ أَنْ تَرى أَحْلامًا مُزْعِجَةً ، أَمّا في حُجْرَتِكَ فَإنَّكَ في مَأْمَنٍ . »

فَقالَ جوناثان في نَفْسِهِ : « في مَأْمَنٍ ؟! كَيْفَ أَسْتَطيعُ أَنْ أَكونَ آمِنًا وَأَنْتَ هُنا ؟ »

* * *

هَبَطَ جوناثان إلى حَيْثُ آلبابُ آلكبيرُ آلَّذي يُؤَدِّي إلى ساحةِ آلدّارِ . كانَ آلبابُ مُوصدًا كآلعادةِ ، وَلابُدَّ أَنْ يَكونَ آلـمِفْتاحُ في حُجْرةِ آلكونْت . وَكانَتْ هُناكَ حُجْرةٌ صَغيرةٌ أَوِ آثْنَتانِ غَيْرَ مُوصَدَتَيْنِ ، وَلٰكِنَّ أَيًّا مِنْهُما لَـمْ تَكُنْ تُؤَدِّي إلى أَيِّ مَكانٍ . ثُمَّ لاحَظَ أَنَّ هُناكَ بابًا في نِهايَةِ دِهْليزٍ قَصيرٍ . وَقَدْ بَدا في بادِئِ آلأَمْرِ أَنَّهُ موصَدٌ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ في آلحَقيقَةِ ساقِطًا وَمُسْتَنِدًا إلى آلأَرْضِ ، فَاسْتَطاعَ جوناثانُ أَنْ يَرْفَعَهُ ثُمَّ يَدْفَعَهُ لِيَنْفَتِحَ قَليلًا بِما يَكْفي لِكَيْ يَعْبُرَ مِنْ خِلالِ آلفُتْحةِ . ثُمَّ أَخَذَ يَتَحَسَّسُ طَريقَهُ وَيَصْعَدُ سُلَّـمًا مُظْلِمًا حَتّى وَجَدَ نَفْسَهُ في حُجْرةٍ بَهيجةٍ تُضيئُها أَشِعَّةُ آلقَمَرِ ، وَتَوَقَّعَ أَنْ تَكونَ مُجاوِرةً لِحُجْرةِ نَوْمِهِ . وَبَدا مِمَّا فيها مِنْ أَثاثٍ أَنَّها رُبَّما كانَتْ تَسْتَخْدِمُها سَيِّداتُ آلقَلْعةِ مُنْذُ زَمانٍ طَويلٍ .

وَمَدَّ جوناثانُ رأسَهُ مِنَ آلنّافِذةِ مُتَمَتِّعًا بِٱسْتِنْشاقِ هَواءِ آللَّيْلِ . وَكانَ وُجودُهُ في جُزْءٍ آخَرَ مِنْ أَجْزاءِ آلقَلْعةِ يُشْعِرُهُ أَنَّهُ قَدِ آنْتَصَرَ عَلى دراكولا بَعْضَ آلانْتِصارِ . وَفي هٰذِهِ آللَّحْظةِ سَمِعَ صَوْتًا مِنْ أَسْفَلَ . وَأَدْرَكَ مِنْهُ أَنَّ هُناكَ شَخْصًا ما يُطِلُّ مِنْ نافِذةٍ . وَتَطَلَّعَ صَوْبَهُ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَرَى آلوَجْهَ ، وَلٰكِنَّهُ أَدْرَكَ أَنَّهُ لابُدَّ أَنْ يَكونَ آلكونْت دراكولا . وَسَرَّهُ أَنَّ دراكولا لَـمْ يَكْتَشِفْ وُجودَهُ ، وَلٰكِنْ سَرْعانَ ما تَحَوَّلَ آلسُّرورُ إلى خَوْفٍ ، فَبِحَرَكةٍ فُجائِيَّةٍ كانَ جِسْمُ دراكولا كُلُّهُ يَبْرُزُ خارِجَ آلنّافِذةِ ، وَبَدَأَ يَهْبِطُ عَلى آلجِدارِ وَرَأْسُهُ إلى أَسْفَلَ كَمِثْلِ دُبابَةٍ تَدِبُّ هابِطةً عَلى جِدارٍ . وَكانَتْ أَصابِعُ يَدَيْهِ وَقَدَمَيْهِ تَتَشَبَّثُ بِكُلِّ فَراغٍ بَيْنَ آلأَحْجارِ ، وَجَوانِبُ ثَوْبِهِ تَرْتَفِعُ حَوْلَ جَسَدِهِ إلى أَعْلى كَأَنَّها أَجْنِحةٌ . وَهٰكَذا أَخَذَ يَهْبِطُ حَتّى آخْتَفى خِلالَ آلظِّلالِ عِنْدَ أَسْفَلِ جُدْرانِ آلقَلْعةِ .

كادَ جوناثانُ يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ آلفَزَعِ ، وَلَـمْ يَكُنْ في أَوَّلِ آلأَمْرِ قادِرًا عَلى آلتَّفْكيرِ أَوِ آلتَّصَرُّفِ بِأَيَّةِ صورَةٍ . ما هٰذا آلدَّراكولا ؟!

وَأَخيرًا تَنَبَّهَ إلى أَنَّ آلـ ا ـبَ آلَّذي كانَ يَلْبَسُهُ حَوْلَ عُنُقِهِ قَدِ آشْتَبَكَ بِقِطْعةٍ مِنْ حَديدِ آلنّافِذةِ فَسَقَطَ خارِجَها . وَجالَ في خاطِرِهِ أَنَّ لِهٰذا آلصَّليبِ قُوَّةً تَقْهَرُ دراكولا . أَمّا آلآنَ وَقَدْ فَقَدَ آلصَّليبَ ، فَقَدْ شَعَرَ بِالضَّعْفِ وَآلوَهَنِ ، فَتَمَدَّدَ فَوْقَ سَريرٍ في مُواجَهةِ آلنّافِذةِ مُنْتَظِرًا أَنْ تَعودَ إلَيْهِ قُوَّتُهُ .

أَمّا آلَّذي حَدَثَ بَعْدَ ذٰلِكَ فَقَدْ كانَ مِنَ آلغَرابَةِ بِحَيْثُ يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ حُلْـمًا مِنَ آلأَحْلامِ . ذٰلِكَ أَنَّهُ ــ مَعَ أَنَّ عَيْنَيْهِ مُغْمَضَتانِ ــ كانَ عَلى يَقينٍ مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ وَحيدًا في آلحُجْرةِ . كانَتْ هُناكَ ثَلاثُ فَتَياتٍ يَرْقُبْنَهُ مِنْ خِلالِ آلظِّلالِ ، وَيَتَحَدَّثْنَ في هَمْسٍ ، وَحينَما تَحَرَّكْنَ خارِجَ آلظِّلالِ إلى حَيْثُ ضَوْءُ آلقَمَرِ رَأى ، مِنْ خِلالِ عَيْنَيْهِ نِصْفِ آلـمَفْتوحَتَيْنِ ، أَنَّ آلثَّلاثَ جَميعَهُنَّ كُنَّ جَميلاتٍ فاتِناتٍ . وَعِنْدَما ضَحِكْنَ كَشَفَ ضَوْءُ آلقَمَرِ عَنْ أَسْنانٍ طَويلَةٍ بيضٍ .

وَعِنْدَما آزْدَدْنَ مِنْهُ قُرْبًا آسْتَطاعَ أَنْ يَرَى آلانْبِهارَ في عُيونِهِنَّ آلحُمْرِ . وَأَنْ يَسْمَعَهُ في تَنَفُّسِهِنَّ ، وَفي آلطَّريقةِ آلَّتي أَطْلَقْنَ بِها ضَحِكاتِهِنَّ . لَقَدْ كُنَّ شِرِّيراتٍ فَاعْتَراهُ آلذُّعْرُ مِنْهُنَّ ، وَلٰكِنَّ شَيْئًا ما ــ في نَفْسِ آلوَقْتِ ــ جَعَلَهُ يُشارِكُهُنَّ في آلانْبِهارِ وَيَرْغَبُ في أَنْ يَتَقَدَّمْنَ مِنْهُ .

وَإِذا بِٱثْنَتَيْنِ مِنْهُنَّ أَخيرًا تَدْفَعانِ آلثّالِثةَ آلشَّقْراءَ نَحْوَهُ ، فَتَقَدَّمَتْ وَآنْحَنَتْ بِجِوارِ آلسَّريرِ وَوَضَعَتْ خَدَّها مُلاصِقًا لِخَدِّهِ . وَأَحَسَّ جوناثان أَنْفاسَها في عُنُقِهِ كَما أَحَسَّ أَنَّ سِنَّتَيْنِ حادَّتَيْنِ مِنْ أَسْنانِها تَلْـمِسانِ بَشَرَتَهُ وَتَسْتَقِرّانِ بِلُطْفٍ فَوْقَها . فَأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ ، وَآنْتَظَرَ ما يَحْدُثُ وَهُوَ غَيْرُ قادِرٍ عَلى آلحَرَكةِ ، بَلْ غَيْرُ راغِبٍ فيها .

* * *

وَكانَ ما حَدَثَ بَعْدَ ذٰلِكَ أَشْبَهَ بِما يَحْدُثُ وَسْطَ عاصِفةٍ هَوْجاءَ . فَقَدْ أَحَسَّ أَنَّ آلكونْت مَوْجودٌ في آلحُجْرةِ . أَحَسَّ بِهِ حَتّى قَبْلَ أَنْ يَرَى يَدَهُ وَهِيَ تُطْبِقُ عَلى عُنُقِ آلفَتاةِ آلَّتي بِجِوارِ سَريرِهِ وَيَقْذِفُ بِها عَبْرَ آلحُجْرَةِ . كانَ غَضَبانَ غَضَبًا لَـمْ يَشْهَدْهُ مِنْ قَبْلُ . كانَ وَجْهُهُ في صُفْرةِ آلـمَوْتِ . كانَتْ عَيْناهُ يَنْبَعِثُ مِنْهُما آلشَّرَرُ ، وَكانَ جَسَدُهُ كُلُّهُ يَرْتَجِفُ آرْتِجافًا .

صاحَ آلكونْت : « كَيْفَ تَجْرُؤْنَ عَلى لَـمْسِهِ ؟ كَيْفَ تَجْرُؤْنَ عَلى عِصْيانِ أَوامِري ؟ »

فَقالَتْ : إِحْداهُنَّ : « إِنَّكَ لا تَسْتَطيعُ أَنْ تَفْهَمَ . إِنَّكَ لَسْتَ آمْرَأَةً . » ثُمَّ أَخَذْنَ جَميعًا يَضْحَكْنَ .

فَصاحَ آلكونْت : « أَلَمْ أَقُلْ لَكُنَّ أَلّا يَقْتَرِبَ أَحَدٌ مِنْهُ ؟ »

فَأَجابَتْ أُخرى : « سَيِّدي ، لَقَدْ كانَ يَرْقُدُ هُنا . ماذا كُنّا نَسْتَطيعُ أَنْ نَفْعَلَ ؟ »

فَقالَ دراكولا : « هٰذا الرَّجُلُ لي وَحْدي ، وَإلى أَنْ أُصْبِحَ في غَيْرِ حاجَةٍ إِلَيْهِ ، فَحينَئِذٍ وَحينَئِذٍ فَقَطْ .. » وَلَمْ يُكْمِلْ دراكولا عِبارَتَهُ ، وَلٰكِنَّ مَعْناها كانَ واضِحًا لجوناثان. وَسَأَلَتْ إِحْدَى آلفَتَياتِ وَهِيَ تَنْظُرُ إلى آلكِيسِ آلَّذي كانَ بِجِوارِ قَدَمَيْ دراكولا : « إِذًا أَلَنْ نَحْصُلَ عَلى شَيْءٍ آللَّيْلَة ؟ »

وَإذا بِآلكيسِ يَتَحَرَّكُ فَوْقَ آلأَرْضِ وَتَخْرُجُ مِنْهُ صَيْحاتٌ كَصَيْحاتِ آلأَطْفالِ . فَدَفَعَ دراكولا آلكِيسَ بِقَدَمِهِ عَبْرَ آلحُجْرَةِ إِلَيْهِنَّ ، فَٱنْكَفَأَنَ عَلَيْهِ مِثْلَ آلحَيَواناتِ آلجائِعَةِ ، عَلى حِينَ أُخِذَتِ آلصَّيْحاتُ مِنْ داخِلِ آلكِيسِ تَعْلو ثُمَّ تَعْلو . وَإذا بِضَبابٍ يَغْشَى آلحُجْرَةَ ، وَغَلَبَ عَلى جوناثان نُعاسٌ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُقاوِمَهُ . وَلٰكِنَّ سِرَّ قَلْعَةِ دراكولا لَمْ يَعُدْ بِالنِّسْبَةِ لَهُ سِرًّا .. لَقَدْ كانَتْ بَيْتَ مَصّاصي دِماءٍ .

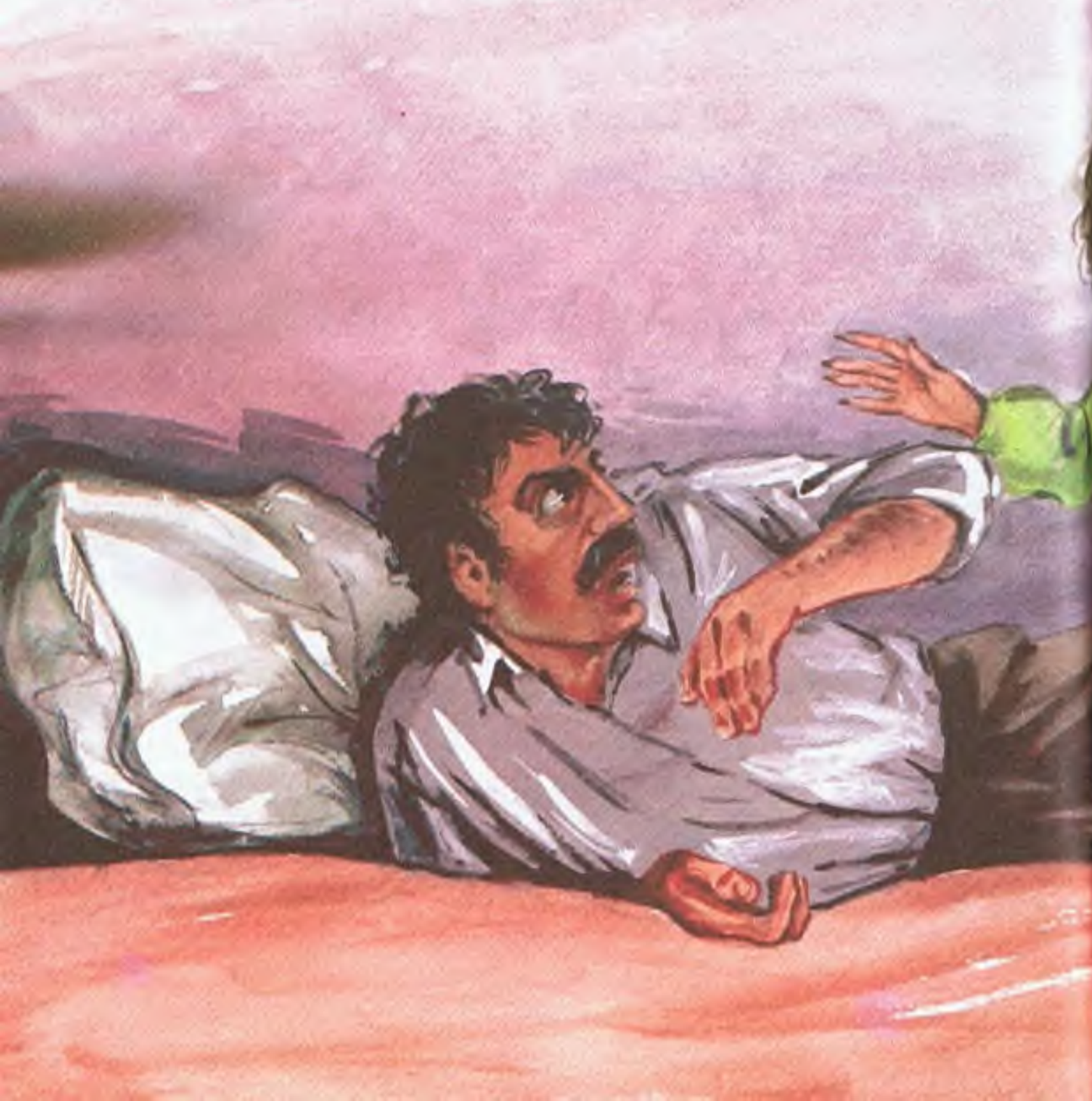

اَلْفَصْلُ اَلرَّابِعُ

حينَما اسْتَيْقَظَ جُوناثان وَجَدَ نَفْسَهُ فَوْقَ سَرِيرِهِ في حُجْرَتِهِ ، فَهَلْ كانَ اَلأَمْرُ مُجَرَّدَ حُلْمٍ ؟ وَإذا كانَ اَلأَمْرُ كَذٰلِكَ ، فَلِماذا إذًا يَرى مَلابِسَهُ غَيْرَ مُرَتَّبَةٍ طِبْقًا لِلنِّظامِ اَلْمَأْلُوفِ ؟ وَلِماذا يَرى ساعَتَهُ في غَيْرِ مَكانِها اَلْمَعْهودِ ؟!

اِرْتَدى جوناثان ملابِسَهُ وَنَزَلَ إلى اَلْباب اَلْمُؤَدِّي إلى اَلْجُزْءِ اَلآخَرِ مِنَ اَلْقَلْعَةِ فَوَجَدَهُ مُوصَدًا ، لا بِطَرِيقَةٍ عادِيَّةٍ ، وَإنَّما قَدْ أوصِدَ في غَضَبٍ وَعُنْفٍ حَتَّى إنَّ بَعْضَ قِطَعٍ مِنَ اَلْجِدارِ قَدْ تَساقَطَتْ . إذًا ، فَإنَّهُ لَمْ يَكُنْ حُلْمًا .

وَفي اَلْمَساءِ لَمْ يُشِرِ اَلْكونْت بِأَيِّ كَلِمَةٍ إلى اَللَّيْلَةِ اَلْماضِيَةِ ، وَلٰكِنَّهُ أَخْرَجَ وَرَقًا لِلْكِتابَةِ ، وَطَلَبَ مِنْ جُوناثان أَنْ يَكْتُبَ ثَلاثَ رَسائِلَ إلى مِينا ؛ يَقولُ في أَوَّلِها إنَّ عَمَلَهُ كادَ يَنْتَهي ، وَإنَّهُ سَوْفَ يَعودُ في خِلالِ أَيّامٍ قَلِيلَةٍ ؛ وَيَقُولُ في اَلثّانِيَةِ إنَّهُ سَيَعودُ في صَباحِ اَلْيَوْمِ اَلتّالي ؛ وَيَقولُ في اَلثّالِثَةِ إنَّهُ غادَرَ اَلْقَلْعَةَ وَوَصَلَ إلى بِيسْتْرِيتْز .

قالَ اَلْكونْت : « إنَّ اَلْبَريدَ بَطيءٌ ، وَلا أُريدُ لِأَصْدِقائِكَ أَنْ يَظُنُّوا أَنَّ شَيْئًا قَدْ حَدَثَ لَكَ ، وَسَوْفَ أَبْعَثُ بِهٰذِهِ اَلرَّسائِلِ في اَلْوَقْتِ اَلْمُناسِبِ ، وَبِذٰلِكَ يَعْرِفونَ مَتى يَتَوَقَّعونَ مِيعادَ وُصولِكَ . »

قالَ جوناثان في نَفْسِهِ : « هَلْ أَمْلِكُ إلّا الطّاعَةَ ؟ إنَّني تَحْتَ رَحْمَتِهِ تَمامًا . »

وَبَدَأَ اَلْيَوْمُ اَلتّالي بِدايَةً طَيِّبَةً ، فَقَدِ اسْتَيْقَظَ عَلى ضَجيجِ أَصْواتٍ .. أَصْواتِ رِجالٍ عادِيِّينَ ، فَجَرى إلى نافِذَةِ حُجْرَةِ اَلْمائِدَةِ وَأَطَلَّ مِنْها ، فَشاهَدَ بَعْضَ اَلْغَجَرِ في رُكْنٍ مِنْ أَرْكانِ ساحَةِ اَلدّارِ وَهُمْ يُنْزِلونَ مِنْ عَرَبَةِ نَقْلٍ صَناديقَ خَشَبِيَّةً طَويلَةً . وَكانَ وُقوعُ بَصَرِهِ عَلى أُناسٍ عادِيِّينَ — حَتّى وَلَوْ كانوا مِنْ أُولٰئِكَ اَلْغَجَرِ اَلتِّرانْسيلْڤانِيِّينَ اَلْجُفاةِ — مِمّا يَبْعَثُ في اَلنَّفْسِ اَلأَمَلَ . فَهاهُنا — في ساحَةِ اَلدّارِ — رِجالٌ طُلَقاءُ رُبَّما يَسْتَطيعونَ أَنْ يَحْمِلوا

رِسالَةً مِنْهُ إلى اَلْعالَمِ اَلْخارِجِيِّ . وَجَرى إلى غُرْفَتِهِ لِيُحْضِرَ أَوْراقًا مِنْ حَقيبَتِهِ ، وَلٰكِنْ أَيْنَ حَقيبَتُه بِما فيها مِنْ بِطاقاتٍ وَنُقودٍ ؟ أَيْنَ حُلَّتُهُ اَلَّتي كانَ يَرْتَديها وَقْتَ اَلسَّفَرِ ؟ أَيْنَ مِعْطَفُهُ ؟ كُلُّ ذٰلِكَ قَدِ اَخْتَفى . تُرى أَيُّ شَرٍّ جَديدٍ كانَ دراكولا يُدَبِّرُهُ لَهُ ؟

وَعِنْدَما عادَ إلى اَلنّافِذَةِ كانَ اَلْغَجَرُ قَدْ رَحَلوا ، وَلٰكِنَّهُ ظَلَّ طَوالَ اَلْيَوْمِ يَسْمَعُ أَصْواتَ حَفْرٍ في اَلْقَلْعَةِ . وَتَأَكَّدَ لَهُ أَنَّ هُناكَ شَيْئًا يَحْدُثُ ، فَما هُوَ ؟ وَلِكَيْ يَهْتَدِيَ إلى هٰذا اَلشَّيْءِ لَمْ يَكُنْ أَمامَهُ إلّا أَنْ يُراقِبَ اَلْكونْت . وَفي اَلْمَساءِ جَلَسَ بِجِوارِ نافِذَةِ غُرْفَةِ نَوْمِهِ في اِنْتِظارِ سَماعِ صَوْتِ أَصابِعِ اَلْيَدَيْنِ وَأَصابِعِ اَلْقَدَمَيْنِ وَهِيَ تَتَشَبَّثُ بِاَلْجِدارِ .

وَما كادَتِ اَلشَّمْسُ تَغيبُ حَتّى سَمِعَ هٰذا اَلصَّوْتَ ، وَكانَ دراكولا قَدْ خَرَجَ مِنَ اَلنّافِذَةِ ، وَبَدَأَ يَتَحَرَّكُ إلى أَسْفَلِ اَلْجِدارِ كَما فَعَلَ في اَللَّيْلَةِ اَلسّابِقَةِ ، مَعَ فارِقٍ واحِدٍ ، فَقَدْ كانَ في هٰذِهِ اَلْمَرَّةِ يَلْبَسُ مَلابِسَ جوناثان .

وَبَدا كُلُّ شَيْءٍ واضِحًا أَمامَ جوناثان ، فَالْكونْت يَنْوي أَنْ يَدَعَ اَلنّاسَ يَرَوْنَهُ في بِيسْتْرِيتْز فَيَظُنُّونَ أَنَّهُ جوناثان ، وَيَقومَ بِإرْسالِ اَلرَّسائِلِ مِنْها ، وَمِنْ ثَمَّ يَعْتَقِدُ اَلَّذينَ يَتَلَقَّونَها أَنَّ جوناثان في طَرِيقِهِ إلى بِلادِهِ . وَكانَ لابُدَّ لِجوناثان أَنْ يَهْرُبَ ، وَلابُدَّ أَنْ يَحْصُلَ عَلى مِفْتاحِ اَلْبابِ ، وَلِكَيْ يَفْعَلَ ذٰلِكَ فَلابُدَّ أَنْ يَجِدَ وَسيلَةً لِدُخولِ حُجْرَةِ اَلْكونْت .

وَكانَتْ هٰذِهِ اَلْحُجْرَةُ تَقَعُ تَحْتَ حُجْرَتِهِ تَمامًا ، وَهُوَ يَسْتَطيعُ أَنْ يَتَدَلّى بِحَبْلٍ إلَيْها ، وَلٰكِنْ أَيْنَ اَلْحَبْلُ ؟ لَمْ يَكُنِ اَلْكونْت لِيَتْرُكَ مِثْلَ هٰذِهِ اَلأَشْياءِ في مُتَناوَلِ زائِرِيهِ ، فَأَخَذَ يُجيلُ اَلنَّظَرَ فيما حَوْلَه . وَكانَتِ اَلْحُجْرَةُ ذاتَ سَتائِرَ طَويلَةٍ ، فَفَكَّرَ أَنَّهُ يَسْتَطيعُ أَنْ يَنْزِعَ اَلْقَضيبَ اَلنُّحاسِيَّ اَلْمَتينَ اَلَّذي تَتَدَلّى مِنْهُ اَلسَّتائِرُ ، ثُمَّ يُثَبِّتُ طَرَفَيْهِ في اَلْجِدارِ عَلى جانِبَيِ اَلنّافِذَةِ ، وَمِنْ ثَمَّ تُصْبِحُ اَلسِّتارَةُ مُدَلّاةً حَتّى نافِذَةِ اَلْكونْت . وَيَسْتَطيعُ — بَعْدَ أَنْ يَتَسَلَّقَ اَلنّافِذَةَ — أَنْ يَتَشَبَّثَ بِأَطْرافِ أَصابِعِ رِجْلَيْهِ فيما بَيْنَ أَحْجارِ اَلْجِدارِ مِنْ فَراغاتٍ واسِعَةٍ ، وَمِنْ ثَمَّ يَهْبِطُ إلى حُجْرَةِ اَلْكونْت . وَقَدْ يَكونُ في هٰذِهِ اَلْمُغامَرَةِ شَيْءٌ مِنَ اَلْخَطَرِ ، وَلٰكِنَّهُ أَمْرٌ لابُدَّ مِنْهُ .

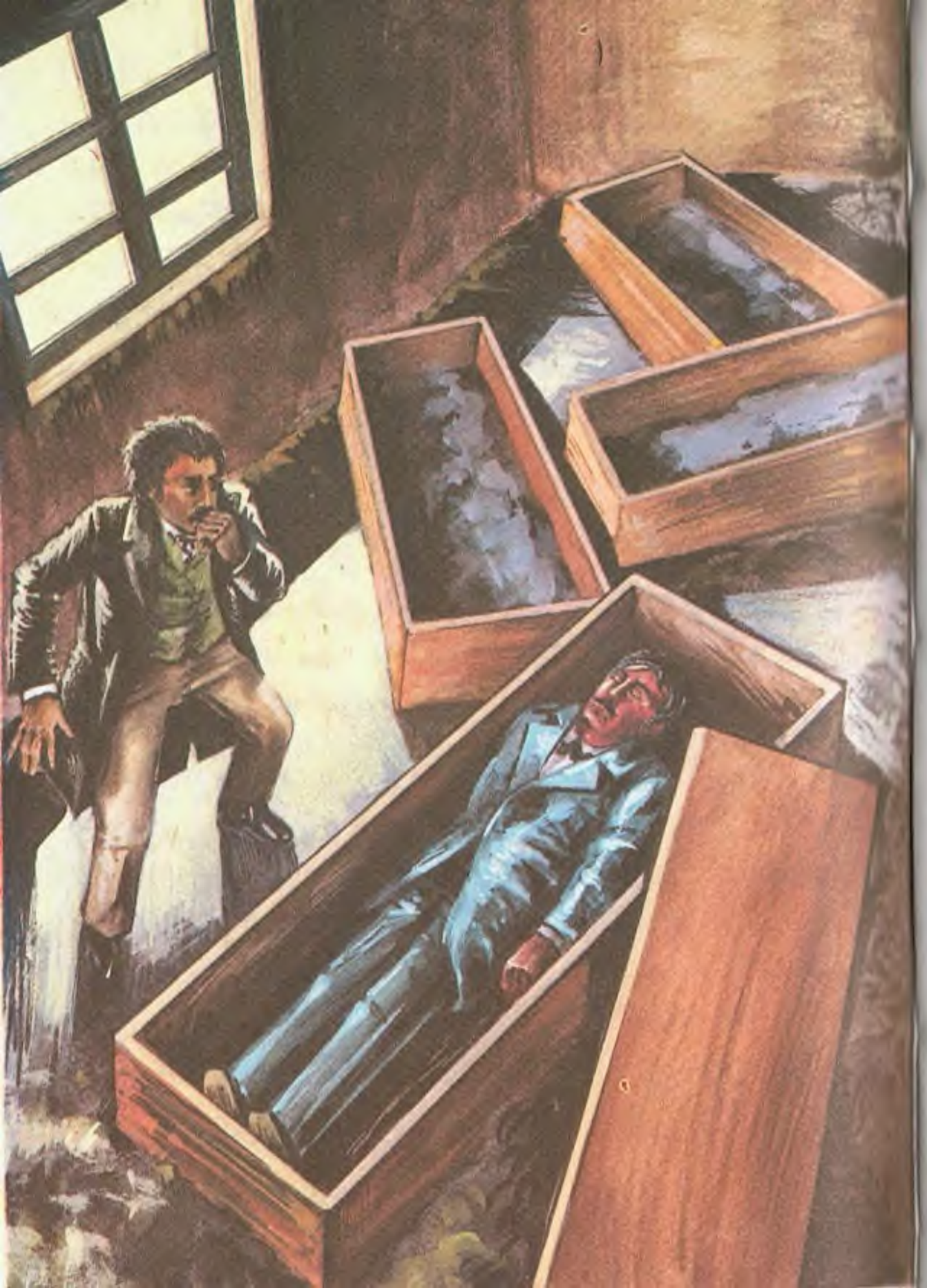

لَـمْ يَكُنْ لَدَيْهِ ما يُمْكِنُ أَنْ يَفْعَلَهُ في هٰذِهِ اللَّيْلَةِ ، فَلِلَّيْلِ مَخاطِرُهُ في هٰذِهِ ٱلقَلْعةِ . وَفَوْقَ ذٰلِكَ ، فَمِنَ ٱلـمُحْتَمَلِ أَنْ يَكونَ ٱلكونْتُ قَدْ أَخَذَ ٱلـمِفْتاحَ مَعَهُ ، وَلِذٰلِكَ قالَ في نَفْسِهِ : « لابُدَّ أَنْ أَنْتَظِرَ حَتَّى ٱلغَدِ . فَٱلكونْت دراكولا لا يَظْهَرُ كَثيرًا في الصَّباحِ ، وَيَبْدو أَنَّهُ يَنامُ هٰذِهِ ٱلفَتْرَةِ ، وَلِذٰلِكَ فَالصَّباحُ هُوَ ٱلوَقْتُ ٱلـمُناسِبُ . »

عِنْدَما جَلَسَ جوناثان عَلى حافَةِ النّافِذَةِ مُمْسِكًا بِالسِّتارةِ كانَ يَتَمَنَّى لو أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ في هٰذا ٱلـمَكانِ (وَلَـمْ تَكُنْ هٰذِهِ هِيَ ٱلـمَرَّةَ ٱلأُولَى الَّتي تَمَنَّى فِيها هٰذِهِ ٱلأُمْنِيَةَ مُنْذُ وَفَدَ إلى قَلْعةِ دراكولا) وَلٰكِنَّ ٱلأُمورَ سارَتْ كَما يَشْتَهي . وَلَـمْ يَمْضِ إلّا قَليلٌ حَتّى كانَ قَدِ ٱسْتَقَرَّ واقِفًا في حُجْرةِ ٱلكونْت .

وَتَساءَلَ جوناثان في نَفْسِهِ : « أَهٰذِهِ حُجْرَةُ ٱلكونْت حَقًّا ؟ إنَّها تَبْدو كَأَنْ لَـمْ تُسْتَخْدَمْ مُنْذُ سَنَواتٍ ، فَٱلغُبارُ ٱلكَثيفُ يُغَطّي كُلَّ ما فيها حَتَّى مَجْموعةً مِنَ ٱلنُّقودِ ٱلذَّهَبِيَّةِ كانَتْ في أَحَدِ ٱلأَرْكانِ . وَمِنَ ٱلـمُؤَكَّدِ أَنَّ ٱلـمَفاتيحَ لَيْسَتْ هُنا . فيا تُرَى هَلِ النُّزولُ عَلى هٰذِهِ السَّلالِـمِ ٱلحَجَرِيَّةِ يُؤَدّي إلى غُرْفةِ ٱلكونْت ٱلحَقيقِيَّةِ ؟ »

وَشَرَعَ يَهْبِطُ السُّلَّـمَ ، فَإذا بِهٰذِهِ ٱلرّائِحةِ ٱلتُّرابِيَّةِ ٱلغريبَةِ الَّتي كانَتْ قَدِ انْبَعَثَتْ مِنْ أَنْفاسِ دراكولا تَزْكُمُ أَنْفَهُ ، وَكُلَّـما ٱزْدادَ تَقَدُّمًا ، ازْدادَتِ ٱلرّائِحةُ قُوَّةً وَخُبْثًا كَما لَوْ كانَتْ تَنْبَعِثُ مِنْ جُحْرِ ثَعْلَبٍ .

وَأَخيرًا انْتَهى إلى غُرْفةٍ ذاتِ أَرْضِيَّةٍ تُرابِيَّةٍ ، يَتَسَرَّبُ إلَيْها الضَّوْءُ مِنْ نافِذةٍ صَغيرةٍ عالِيةٍ . وَهُناكَ في أَقْصَى ٱلغُرْفةِ كانَتْ تُوجَدُ الصَّناديقُ الَّتي أَحْضَرَها ٱلغَجَرُ ، وَالَّتي تَبْلُغُ ٱلخَمْسينَ صُنْدوقًا . وَكانَتْ كُلُّها مَمْلُوءَةً بِالتُّرابِ ، وَعَلى مَقْرَبةٍ مِنْها صُنْدوقٌ آخَرُ أَقْدَمُ مِنْ بَقِيَّةِ ٱلصَّناديقِ .

كانَتْ أَشِعَّةُ شَمْسِ الصَّباحِ ، الَّتي بَدَأَتْ تَتَسَرَّبُ عِنْدَئِذٍ مِنَ النّافِذةِ ، تَقَعُ عَلى هٰذا الصُّنْدُوقِ . وَكَأَنَّما كانَتِ الشَّمْسُ تُرْشِدُ جوناثان إلى الصُّنْدوقِ فَاتَّجَهَ إلَيْهِ ، ونَظَرَ في داخِلِهِ . وَكانَتْ نَظْرَةٌ واحِدةٌ فِيها ٱلكِفايَةُ ، لِكَيْ يَنْدَفِعَ إلى ٱلوَراءِ وَيُطْلِقَ صَيْحةً مُدَوِّيَةً .

كانَ دراكولا يَنامُ مُمَدَّدًا عَلى سَريرٍ مِنْ تُرابٍ ، وَلَـمْ يَكُنْ وَجْهُهُ شاحِبًا باهِتًا كَما كانَ مِنْ قَبْلُ ، وَإِنّما كانَ أَحْمَرَ داكِنًا ، وَلَـمْ يَكُنْ شَعْرُهُ أَسْوَدَ كَما عَهِدَهُ ، وَإِنَّما كانَ رَمادِيًّا غامِقًا . وَكانَ الدَّمُ يَسيلُ مِنْ جانِبَيْ فَمِهِ مُنْحَدِرًا إِلى عُنُقِهِ وَمِنْ ثَمَّ إِلى مَلابِسِهِ . كانَ جِسْمُهُ كُلُّهُ مُتَوَرِّمًا بِالدِّماءِ الَّتي تَنْبَعِثُ رائِحَتُها ، أَمّا وَجْهُهُ فَقَدْ كانَتْ تَبْدو عَلَيْهِ نَظْرَةُ آلحَيوانِ آلـمُتَوَحِّشِ الَّذي قَتَلَ فَريسَتَهُ ثُمَّ أَكَلَ مِنْها حَتّى بَشِمَ وَلَـمْ يَعُدْ يَسْتَطيعُ آلـمَزيدَ .

كانَ عَلى جوناثان أَنْ يُرْغِمَ نَفْسَهُ إِرْغامًا عَلى أَنْ يَلْـمِسَ هٰذِهِ آلحَقيبَةَ الدَّمَوِيَّةَ التّي هِيَ جِسْمُ دراكولا . وَإِذْ فَعَلَ ذٰلِكَ ، لَـمْ يَكُنْ في وُسْعِهِ أَنْ يُغادِرَ آلـمَكانَ إِلّا بَعْدَ أَنْ يُفَتِّشَ في جُيوبِهِ بَحْثًا عَنِ آلـمِفْتاحِ ، وَلٰكِنَّ جُيوبَهُ كانَتْ خالِيَةً . لَقَدْ كان دراكولا مِنَ الذَّكاءِ بَحيْثُ لا يَدَعُ نَفْسَهُ تَقَعُ في مِثْلِ هٰذِهِ آلـمِصْيَدَةِ .

لَقَدْ أَرادَ جوناثان ــ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ في حَياتِهِ ــ أَنْ يَرْتَكِبَ جَريمَةَ قَتْلٍ لِكَيْ يَقْضِيَ عَلى هٰذا الشَّيْءِ آلبَغيضِ الَّذي يَرْقُدُ في صُنْدوقِهِ . وَنَظَرَ حَوْلَهُ فَرَأى حَجَرًا ثَقيلًا كانَ قَدْ سَقَطَ مِنَ آلجِدارِ ، فَأَخَذَهُ وَرَفَعَهُ إِلى مافَوْقَ رَأْسِهِ ، وَلٰكِنَّهُ تَراجَعَ فَتَرَكَهُ يَسْقُطُ عَلى آلأَرْضِ . لَقَدْ رَأى أَنَّهُ لَيْسَتْ هُناكَ جَدْوى مِنْ مُحاوَلَةِ قَتْلِ شَيْءٍ لا يُمْكِنُ أَنْ يُقْتَلَ . لَقَدْ كانَ واثِقًا أَنَّ مَصّاصي آلدِّماءِ لا يَموتُونَ كَما يَموتُ آلنّاسُ آلعادِيُّونَ .

عادَ جوناثان إِلى حُجْرَتِهِ ، وَٱرْتَمى فَوْقَ سَريرِهِ في حالَةٍ مِنَ آلَيَأْسِ آلـمَريرِ . ها هُوَذا آلآنَ في مَوْقِفٍ غَريبٍ . لَيْسَ مَوْقِفَ سَجينِ مَصّاصِ الدِّماءِ ــ حَيْثُ لا حَوْلَ لَهُ وَلا طَوْلًا ــ فَحَسْبُ ، وَلٰكِنْ هُناكَ ما هُوَ أَسْوَأُ مِنْ ذٰلِكَ . لَقَدْ كانَ يُقَدِّمُ مُساعَدَةً جَمَّةً ، لِـمَصّاصِ الدِّماءِ لِكَيْ يَجِدَ دَمًا جَديدًا في بَلَدٍ آخَرَ .

وَفي هٰذِهِ اللَّيْلَةِ ظَهَرَ آلكونْت في آلوَقْتِ الَّذي تَعَوَّدَ أَنْ يَظْهَرَ فيهِ . وَلَـمْ يَكُنْ أَحْمَرَ اللَّوْنِ أَوْ مُتَوَرِّمَ آلجِسْمِ كَما كانَ يَبْدو في أَوَّلِ النَّهارِ . قالَ آلكونْتُ :

« اللَّيْلَةَ ياصَديقي لابُدَّ أَنْ يُوَدِّعَ كُلٌّ مِنّا صاحِبَهُ ، فَسَوْفَ تَعودُ غَدًا إِلى بَلَدِكَ ، وَأَنا أَيْضًا سَأَقومُ بِرِحْلَةٍ . وَفي الصَّباحِ سَوْفَ تَأْخُذُكَ عَرَبَتي إِلى طَريقِ بِيسْتْريتْز حَيْثُ تَصِلُ إِلَيْها

في مَساءِ آلغَدِ . وَآمَلُ أَنْ أَراكَ مَرَّةً ثانِيَةً في قَلْعَةِ دراكولا . »

فَسَأَلَ جوناثان : « لِماذا لا أَذْهَبُ اللَّيْلَةَ ؟ »

فَأَجاب آلكونْت : « لِأَنَّ عَرَبَتي مَشْغولَةٌ اللَّيْلَةَ ياسَيِّدي آلعَزيزَ . »

قالَ جوناثان : « وَلٰكِنَّني أَسْتَطيعُ السَّيْرَ عَلى قَدَمَيَّ . إِنَّني أَرْغَبُ في آلرَّحيلِ آلآنَ . »

قالَ آلكونْت : « وَحقائِبُكَ ؟ »

قالَ جوناثان : « لا يُهِمُّني أَمْرُ حَقائِبي ، وَأَسْتَطيعُ أَنْ أُرْسِلَ فِيما بَعْدُ مَنْ يَأْخُذُها . »

فَٱبْتَسَمَ آلكونْت قائِلًا : « تَعالَ مَعي . إِنَّكَ لَنْ تَبْقى في مَنْزِلي ساعَةً أَكْثَرَ مِمّا تُريدُ ، وَلَوْ أَنَّني حَزينٌ لِرَحيلِكَ وَحَزينٌ لِرَغْبَتِكَ في التَّعْجيلِ بِالرَّحيلِ . »

وَمَضَى آلكونْت وَجوناثانُ يَتْبَعُهُ إِلى أَسْفَلِ السُّلَّمِ حَيْثُ آلبابُ آلكَبيرُ . قالَ لجوناثان : « أَصْغِ . »

وَإِذا بِأَصْواتِ ذِئابٍ كَثيرَةٍ تَنْبَعِثُ مِنْ مَكانٍ قَريبٍ مِنْهُما . وَكَأَنَّما انْبَعَثَتْ هٰذِهِ آلأَصْواتُ بِمُجَرَّدِ أَنْ رَفَعَ دراكولا يَدَهُ ، ثُمَّ شَرَعَ يَفْتَحُ آلبابَ الَّذي لَـمْ يَكُنْ مُوصَدًا بِآلقُفْلِ . وَلَـمْ يَكَدْ يَنْفَتِحُ قَليلًا حَتّى عَلَتْ أَصْواتُ الذِّئابِ . وَٱسْتَطاعَ جوناثان أَنْ يَراها وَهِيَ تَثِبُ هُنا وَهُناكَ وَأَفْواهُها آلـمُتَعَطِّشَةُ آلحَمْراءُ مَفْغورَةٌ عَلى آخِرِها ، وَٱسْتَمَرَّ آلبابُ يَنْفَتِحُ شَيْئًا فَشَيْئًا . وَأَدْرَكَ جوناثان أَنَّه لا يَقِفُ فاصِلًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ آلذِّئابِ الشَّرِسَةِ آلجائِعَةِ إِلّا آلكونْت . وَبَدَأَتِ آلهَواجِسُ في نَفْسِهِ : أَهٰذا هُوَ الَّذي كانَ آلكونْتُ يُدَبِّرُهُ ؟ أَنْ يُقَدِّمَهُ طَعامًا سائِغًا لِهٰذِهِ آلحَيَواناتِ الَّتي كانَتْ تَذْهَبُ وَتَجيءُ كَأَنَّها خَدَمٌ ، وَالَّتي يُسَمِّيها آلكونْت « أَوْلادَهُ » ؟

وَأَخيرًا صاحَ جوناثان : « أَغْلِقِ آلبابَ . سَأَنْتَظِرُ حَتَّى الصَّباحِ . »

نَطَقَ بِآلعِبارَةِ وَهُوَ يُديرُ رَأْسَهُ لِكَيْلا يَرَى دراكولا دُموعَهُ الَّتي لَـمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَمْنَعَها .

أَمّا دراكولا فَقَدْ صَفَقَ آلبابَ بِشِدَّةٍ ، وَأَخَذَتْ أَصْواتُ الذِّئابِ تَخْفُتُ بَعيدًا . وَحانَتِ آلْتِفاتَةٌ مِنْ جوناثان إلى آلوَراءِ وَهُوَ يَصْعَدُ السُّلَّمَ عائِدًا ، فَإِذا آلكونْت يَضْحَكُ بِلا صَوْتٍ .

بَعْدَ نِصْفِ ساعةٍ سَمِعَ جوناثان أَصْواتَ خُيولٍ ، وَغِناءَ آلعَجَرِ في ساحَةِ الدّارِ . وَتَطَلَّعَ مِنْ نافِذَتِهِ فَرَأى عَرَبَةَ النَّقْلِ مُحَمَّلَةً بِالصَّناديقِ آلخَشَبِيَّةِ ، وَأَدْرَكَ أَنَّ دراكولا كانَ في واحِدٍ مِنها .. في طَريقِهِ إلى إنْجِلْترا .

وَآطْمَأَنَّ جوناثان إلى أَنَّهُ سَوْفَ يَكونُ في صَبيحةِ آلْيَوْمِ التّالي حُرًّا في مُغادَرَتِهِ آلقَلْعة . وَكانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ تَكونَ هُناكَ عَرَبةٌ تُقِلُّهُ ، وَلٰكِنَّهُ يَسْتَطيعُ آلمَشْيَ عَلى أَيَّةِ حالٍ . وَلَمْ يَكُنْ يَخْشَى الذِّئابَ ، لِأَنَّ آلوَقْتَ سَيَكونُ نَهارًا ، وَدراكولا غائِبٌ ، وَلٰكِنْ بَقِيَتْ هُناكَ مُشْكِلةٌ . صَحيحٌ أَنَّ دراكولا قَدْ ذَهَبَ ، وَهٰذا جَميلٌ ، وَلٰكِنَّ آلوقْتَ لَيْلٌ ، وَمَخاطِرُ اللَّيْلِ لَمْ تَذْهَبْ مَعَ دراكولا . لَقَدْ كانَ وُجودُ آلكونْت في آلقَلْعةِ يَجْعَلُهُ بِمَأْمَنٍ مِنْ هٰذِهِ آلمَخاطِرِ . وَتساءَلَ في نَفْسِهِ : « وَآلآنَ ، وَقَدْ ذَهَبَ ، فَمَنِ الَّذي يَحْميني مِنْها ؟ » وَقَفَزَتْ إلى خاطِرِهِ آلكَلِماتُ الَّتي قالَها دراكولا لِلْفَتَياتِ الثَّلاثِ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ اللَّيْلاءِ : « وَإلى أَنْ أُصْبِحَ في غَيْرِ حاجةٍ إلَيْهِ . » وَآلآنَ .. لَقَدْ حانَتْ هٰذِهِ اللَّحْظةُ .

وَأَخَذَ يُصْغي . في آلبِدايةِ كانَ كُلُّ شَيْءٍ هادِئًا كُلَّ آلهُدُوءِ . ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ بَدَأَ يَسْمَعُ ضَحِكاتٍ ، ثُمَّ حَفيفَ أَثْوابٍ حَريرِيَّةٍ في آلأَرْكانِ ، فَتَجَمَّدَ الدَّمُ في عُروقِهِ ، وَتَأَكَّدَ أَنَّهُ أَصْبَحَ تَحْتَ رَحْمةِ هٰؤلاءِ النِّسْوَةِ ، وَفَكَّرَ في نَفْسِهِ : « تُرى هَلْ يُقَدَّرُ لي أَنْ أَرى إنْجِلْترا ، وَمينا ، مَرَّةً أُخْرى ؟ »

آلْقِسْمُ آلثّانِي
هُـوِيتْـبِي

آلْفَصْلُ آلخامِسُ

كانَتْ مينا مُوراي تَجْلِسُ في مَقْعَدِها تَتَطَلَّعُ إلى آلبَحْرِ وَقَدْ أَمْسَكَتْ بِرِسالةٍ في يَدِها . وَكانَتْ صَديقَتُها لُوسي وِسْتِنْرا تَجْلِسُ بِجِوارِها وَهِيَ تَقْرَأُ كِتابًا . وَلَمْ تَكُنْ تَلْحَظُ نَظْرَةَ آلقَلَقِ الَّتي في عَيْنَيْ مينا .

كانَتْ مينا فَتاةً جَميلةً ، وَلٰكِنَّ لُوسي كانَتْ أَكْثَرَ جَمالًا . كانَتْ ذاتَ جَمالٍ فَتّانٍ ، رَشيقةَ آلقَوامِ ، ذاتَ شَعْرٍ طَويلٍ أَشْقَرَ ، وَبَشَرَةٍ صافِيةٍ مَلْساءَ . وَلِذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ غَريبًا أَنْ يَقَعَ كَثيرٌ مِنَ الشُّبّانِ في غَرامِها ، وَلَوْ أَنَّها لَمْ تَكُنْ تَميلُ حَقًّا إلّا إلى اثْنَيْنِ فَقَطْ ، أَحَدُهُما طَبيبٌ شابٌّ ماهِرٌ يُدْعَى جاك سيوارْد ، كانَ يَتَوَلّى آلإِشْرافَ عَلى مُسْتَشْفى لِلْمَجانينِ عَلى مَقْرَبَةٍ مِنَ آلمَنْزِلِ الَّذي تُقيمُ فيهِ في مَشارِفِ لَنْدن . وَآلآخَرُ يُدْعَى أَرْثَر هُولْمْوود ، وَهُوَ آبْنُ أَحَدِ اللُّوردات . وَأَخيرًا اسْتَقَرَّ آخْتِيارُ لُوسي عَلى آرْثَر ، وَمَعَ أَنَّها كانَتْ تُحِبُّ جاك سيوارْد كَثيرًا فَإِنَّها رَأَتْ أَنَّ ما يَتَّصِفُ بِهِ مِنْ جِدِّيَّةٍ وَوَقارٍ لا يَتَّفِقُ مَعَ ما تَتَّصِفُ هِيَ بِهِ مِنْ حُبٍّ لِلْمَرَحِ وَالدُّعابَةِ . ثُمَّ إنَّها لَمْ تَشَأْ أَنْ تَقْضِيَ بَقِيَّةَ حَياتِها في دارٍ لِلْمَجانينِ . وَفَوْقَ هٰذا فَإِنَّ آرْثَر هُوَ الَّذي كانَ يَسْتَأْثِرُ بِحُبِّها آلحَقيقِيِّ . وَكانَ مِنَ الطَّبيعِيِّ أَنْ يَشْعُرَ الدُّكْتور سيوارد بِآلحُزْنِ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ يُحِبُّ آرْثَر هُولْمْوود ، وَلِذٰلِكَ فَقَدِ آسْتَقَرَّ رَأْيُهُ في النِّهايةِ عَلى أَنَّهُ إذا لَمْ يَكُنْ قَدِ آسْتَطاعَ أَنْ يَظْفَرَ بِلُوسي زَوْجةً لَهُ فَإِنَّهُ ــ عَلى آلأَقَلِّ ــ يَسْتَطيعُ أَنْ يَظَلَّ صَديقًا لَها . وَقالَ في نَفْسِهِ : « مَنْ يَدْري ، رُبَّما تَحْتاجُ يَوْمًا ما إلى صَديقٍ يُحِبُّكَ . »

وَإذا كانَتْ لُوسي جَميلةً مُسَلِّيةً تَفيضُ بِآلحَيَوِيَّةِ ، فَإِنَّ مينا هِيَ الَّتي كانَتْ تُدَبِّرُ كُلَّ شَيْءٍ دائِمًا . فَهِيَ الَّتي تَوَلَّتْ حَجْزَ آلغُرَفِ الَّتي سَوْفَ تُقيمانِ فيها في هُوِيتْبِي ، وَآشْتَرَتِ التَّذاكِرَ لِلرِّحْلةِ ، وَآتَّخَذَتْ كَذٰلِكَ التَّرْتيباتِ لِأُمِّ لُوسي لِكَيْ تَلْحَقَ بِهِما فيما بَعْدُ ، فَقَدْ كانَتِ السَّيِّدةُ وِسْتِنْرا ــ والِدةُ لُوسي ــ مَريضَةً بِآلقَلْبِ ، وَرَأَتْ مينا أَنَّ قَضاءَ أَيّامٍ عَلى

شاطئ البَحْرِ قَدْ يَعودُ عَلى صِحَّتِها بِالخَيْرِ .

كانَتْ هَوْيْتِي مَدينةً مَأْهولَةً ، فَهُناكَ دائِمًا زَوارِقُ لِلصَّيد تَغْدو مِنْها وَتَروحُ . وَطُيورُ البَحْرِ الصّاخِبةُ تُحَلِّقُ ثُمَّ تَنْقَضُّ مِنَ السَّماءِ لِتَلْتَقِطَ الأَسْماكَ الَّتي يُلْقي بِها الصَّيّادونَ . وَفي النّاحِيةِ الجَنوبِيَّةِ لِلنَّهْرِ الَّذي يَجْري في وادٍ عَميقٍ مُخْتَرِقًا المَدينةَ ، كانَ المَرْءُ يَسْتَطيعُ أَنْ يَتَسَلَّقَ إِلى الكَنيسَةِ القَديمَةِ حَيْثُ يَلْتَمِسُ الهُدُوءَ وَالسَّكينةَ ، وَحَيْثُ كانَتْ عِظامُ الكَثيرينَ مِنَ البَحّارَةِ الَّذينَ غَرِقوا في البَحْرِ مُلْقاةً في ساحَةِ الكَنيسَةِ . وَكانَ أَهْلُ المَدينةِ يُحِبُّونَ أَنْ يَجْلِسُوا عَلى المَقاعِدِ الَّتي وُضِعَتْ عَلى طولِ المَمَرِّ بَيْنَ القُبورِ حَيْثُ يَسْتَطيعُ المَرْءُ مِنْ ساحَةِ الكَنيسَةِ أَنْ يُشاهِدَ المَدينةَ كُلَّها ، وَأَنْ يَمْتَدَّ بَصَرُهُ إِلى مَسافةٍ بَعيدةٍ فَوْقَ البَحْرِ .

وَكَثيرًا ما كانَتْ مِينا وَلُوسي تَجْلِسانِ هُناكَ تَسْتَمِعانِ إِلى قُدامى الصَّيّادينَ الَّذينَ اعْتَزَلوا العَمَلَ ، وَكانوا يَقْضُونَ وَقْتَهُمْ بَيْنَ رِوايةِ القِصَصِ ، وَبَيْنَ الاسْتِمْتاعِ بِالتَّحَدُّثِ إِلى الفَتَياتِ الحَسْناواتِ .

قالَتْ مِينا وَهِيَ تُقَلِّبُ بَيْنَ أَصابِعِها الوَرَقَةَ الرَّقيقَةَ الَّتي كُتِبَتْ فيها الرِّسالَةُ : « إِنَّها رِسالَةٌ غَريبةٌ .. تَمامًا كَالرِّسالَتَيْنِ الأُخْرَيَيْنِ . كُلُّ ما يَقولُهُ فيها إِنَّهُ بِخَيْرٍ ، وَإِنَّهُ في طَريقِهِ إِلى الوَطَنِ . قَطْعًا كانَ يَسْتَطيعُ أَنْ يَكْتُبَ أَكْثَرَ مِنْ هٰذا . إِنَّهُ لَمْ يَخُطَّ كَلِمةً واحِدةً عَنْ رِحْلَتِهِ ، أَوْ عَنِ السَّيِّدِ الَّذي يُقيمُ مَعَهُ . الواقِعُ أَنَّها لَيْسَتْ رِسالةً وُدِّيَّةً . »

فَضَحِكَتْ لُوسي وَقالَتْ : « أَعْتَقِدُ أَنَّ الرِّجالَ لَيْسُوا كَالنِّساءِ في كِتابةِ الرَّسائِلِ ، فَهُمْ يَجِدونَ مَشَقَّةً في تَسْجيلِ مَشاعِرِهِمْ بِالكِتابةِ . »

فَرَدَّتْ مِينا : « لَعَلَّكِ عَلى حَقٍّ ياعَزيزَتي لُوسي ، وَلٰكِنَّني سَأَكونُ مَسْرورةً أَنْ أَراه ثانِيةً ، وَأَنْ أَتَأَكَّدَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ عَلى ما يُرامُ . لَقَدْ كانَ المَفْروضُ أَنْ يَعودَ إِلى لَنْدن مُنْذُ أُسْبوعَيْنِ . »

لَمْ تَكُنْ مِينا سَعيدةً ، وَالعُطْلَةُ الَّتي بَدَأَتْ بِدايةً سارَّةً بِالنِّسْبةِ لَها انْقَلَبَتْ إِلى تَعاسةٍ بِسَبَبِ قَلَقِها عَلى جوناثان . لَقَدْ كانَ لَدَيْها إِحْساسٌ — لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُعَبِّرَ عَنْهُ بِالكَلِماتِ — أَنَّ هُناكَ أُمورًا لا تَسيرُ في مَسارِها الصَّحيحِ ، وَهِيَ تَشْعُرُ أَنَّ الأُمورَ لَنْ تَعودَ إِلى نِصابِها إِلّا إِذا رَجَعَ جوناثان إِلى الوَطَنِ . كَذٰلِكَ لَمْ تَكُنْ لُوسي عَلى عادَتِها ، وَحينَما رَأَتْها مِينا كَذٰلِكَ

قالَتْ لِنَفْسِها : « أَتُراها الهُمومُ الَّتي أُعاني مِنْها هِيَ الَّتي جَعَلَتْ لُوسي قَلِقةً ؟ أَمْ أَنَّ هُناكَ سَبَبًا آخَرَ ؟ » وَالحَقيقةُ أَنَّ لُوسي كانَتْ قَدْ بَدَأَتْ تُمارِسُ أَمْرًا لَمْ تُمارِسْهُ مُنْذُ كانَتْ طِفْلةً صَغيرةً ؛ بَدَأَتْ تَمْشي في أَثْناءِ نَوْمِها . وَفي أَثْناءِ اللَّيْلَتَيْنِ الماضِيَتَيْنِ كانَتْ مِينا تَسْتَيْقِظُ مِنْ نَوْمِها فَتَجِدُ صَديقَتَها تَمْشي حَوْلَ الحُجْرَةِ عَلى غَيْرِ هُدًى ، كَأَنَّها تُريدُ شَيْئًا وَلٰكِنَّها لا تَدْري ما هُوَ . أَوْ رُبَّما كانَ الطَّقْسُ هُوَ السَّبَبَ ، فَطَوالَ اليَوْمِ كانَ الجَوُّ يَبْدو وَكَأَنَّما يُنْذِرُ بِعاصِفةٍ شَديدةٍ ، وَكانَ الهَواءُ ساخِنًا مُثْقَلًا بِالسُّحُبِ ، وَالضَّبابُ يَكادُ يَحْجُبُ الشَّمْسَ .

وَقَضَتِ الفَتاتانِ فَتْرةَ ما بَعْدَ الظُّهْرِ في هُدُوءٍ ، ثُمَّ خَرَجَتا تَتَمَشَّيانِ نَحْوَ ساحَةِ الكَنيسَةِ ثانِيةً . وَحينَما اجْتازَتا الجِسْرَ الَّذي يَقَعُ في وَسَطِ المَدينَةِ كانَتا تَرَيانِ زَوارِقَ الصَّيْدِ وَهِيَ آتِيةٌ . وَمَعَ أَنَّ الرِّيحَ لَمْ تَكُنْ شَديدةً ، وَالبَحْرَ لَمْ يَكُنْ هائِجًا فَإِنَّ الصَّيّادينَ كانُوا يَتَوَقَّعونَ قَلَقًا سَيِّئًا ، وَلَمْ يَشاءُوا أَنْ يُبْحِروا خَشْيَةَ أَنْ تُدْهِمَهُمُ العاصِفةُ .

عِنْدَما وَصَلَتِ الفَتاتانِ إِلى الكَنيسةِ وَجَدَتا أَنَّ أَحَدَ أَصْدِقائِهِما الصَّيّادينَ المُسِنِّينَ يَجْلِسُ عَلى مَقْعَدِهِما المُفَضَّلِ يَتَطَلَّعُ إِلى البَحْرِ . كانَ هٰذا الصَّيّادُ هُوَ السَّيِّدَ سْوِيلْز ، الشَّيْخَ الَّذي كانَ يَزْعَمُ أَنَّ عُمْرَهُ قارَبَ المِئةَ عامٍ ، وَلَوْ أَنَّهُ كانَ مِنَ الصَّعْبِ تَصْديقُ مِثْلِ هٰذا الزَّعْمِ . وَسَأَلَتْهُ لُوسي وَهِيَ تَجْلِسُ بِجانِبِهِ : « أَتَظُنُّ أَنَّ عاصِفةً سَتَهُبُّ ياسَيِّدُ سْوِيلْز ؟ »

فَأَجابَ البَحّارُ الشَّيْخُ : « نَعَمْ ياعَزيزَتي ، وَهُوَ أَمْرٌ غَريبٌ ، لِأَنَّ هٰذا الوَقْتَ مِنَ السَّنةِ لَيْسَ وَقْتَ عَواصِفَ ، أَنا ما رَأَيْتُ طَقْسًا كَهٰذا قَطُّ . وَمَعَ هٰذا فَإِنَّ الطَّقْسَ لَيْسَ هُوَ الشَّيْءَ الغَريبَ الوَحيدَ في هٰذِهِ الأَيّامِ . »

قالَ هٰذا وَهُوَ يُشيرُ إِلى البَحْرِ ، ثُمَّ أَضافَ : « انْظُرا إِلى السَّفينَةِ . »

وَتَطَلَّعَتِ الفَتاتانِ فَشاهَدَتا سَفينةً شِراعِيَّةً لَيْسَتْ كَبيرَةَ الحَجْمِ عَلى بُعْدِ حَوالَى كيلو مِتْرٍ مِنَ الشّاطِئِ .

وَقالَتْ لُوسي : « عَفْوًا ياسَيِّدُ سْوِيلْز إِنَّنا كَما تَرى — لَسْنا مِنَ البَحّارةِ ، وَالسَّفينَةُ تَبْدو لَنا عادِيَّةً جِدًّا ، تُرَى هَلِ العَلَمُ الَّذي تَرْفَعُهُ هُوَ العَلَمُ الرُّوسِيُّ ؟ »

فَأَجابَ ٱلبَحّارُ ٱلشَّيْخُ : « نَعَمْ ، إنَّها سَفينَةٌ روسِيَّةٌ .. هٰذا صَحيحٌ ، وَلٰكِنْ لَيْسَ هٰذا هُوَ ٱلـمُهِمّ ؛ إنَّها سَفينَةٌ عادِيَّةٌ ما في ذٰلِكَ شَكٌّ ، وَلٰكِنَّ ٱلأَمْرَ الشّاذَّ هُوَ أنَّها مُسَيَّرَةٌ بِطَريقَةٍ غَيْرِ عادِيَّةٍ . فَهُناكَ رَجُلٌ عِنْدَ عَجَلَةِ ٱلقِيادَةِ ، وَلٰكِنَّ السَّفينَةَ تَتَحَرَّكُ عَلى غَيْرِ هُدًى ، كَأَنَّما الرَّجُلُ لا يَدْري أَيْنَ يُوَجِّهُها . ٱنْظُرا ! إنَّها تَمْضي ثانِيَةً . إنَّها تَتَحَرَّكُ حَيْثُما تَدْفَعُها ٱلرّيحُ . إنَّ الرَّجُلَ الَّذي يَقِفُ عَلى عَجَلَةِ ٱلقِيادَةِ لا يَسْتَطيعُ أَنْ يَحْزِمَ أَمْرَهُ ، أَيَأْتي إلى هُوِيتْبي أَمْ يَسْتَديرُ إلى ٱلبَحْرِ وَيُواجِهُ ٱلعاصِفَةَ . وَلٰكِنْ إذا لَـمْ يَحْزِمْ أَمْرَهُ عَلى عَجَلٍ فَسَوْفَ تَرْتَطِمُ السَّفينَةُ بِالصُّخورِ . »

ٱلفَصْلُ ٱلسّادِسُ

عِنْدَما ثارَتِ ٱلعاصِفَةُ كانَتْ هَوْجاءَ عَلى غَيْرِ ٱلعادَةِ ؛ فَقَبْلَ ٱلسّاعَةِ الثّامِنَةِ مَساءً بِقَليلٍ هَبَّتِ الرّيحُ . وَما إنْ حَلَّتِ السّاعَةُ ٱلعاشِرَةُ حَتّى أَخَذَتِ ٱلأَشْجارُ تَتَمايَلُ بِعُنْفٍ ، وَسُطوحُ ٱلـمَنازِلِ تَتَطايَرُ ، وَٱلأَمْواجُ ٱلعاتِيَةُ تَتَكَسَّرُ فَوْقَ السُّورِ ٱلبَحْرِيِّ الَّذي يَحْمي مَرْسَى زَوارِقِ الصَّيْدِ . لَقَدْ كانَتْ عاصِفَةً مِنْ ذٰلِكَ النَّوْعِ الَّذي لا يَتَكَرَّرُ حُدوثُهُ إلّا مَرَّةً واحِدَةً كُلَّ خَمْسينَ عامًا ، وَالَّذي يَرْوي عَنْهُ ٱلأَجْدادُ لِلْأَحْفادِ .

وَمِنْ حُسْنِ ٱلحَظِّ أَنَّ مُعْظَمَ الزَّوارِقِ كانَتْ قَدْ عادَتْ إلى هُوِيتْبي بَعْدَ الظُّهْرِ ، أَمّا ٱلقِلَّةُ الَّتي تَأَخَّرَتْ في ٱلعَوْدَةِ فَقَدْ لَقِيَتْ بَعْضَ ٱلـمَشَقَّةِ في الدُّخولِ . وَعِنْدما وَصَلَ آخِرُ زَوْرَقٍ مِنْ زَوارِقِ هُوِيتْبي كانَتِ ٱلجَماهيرُ الَّتي تَجَمَّعَتْ لِلْـمُراقَبَةِ قَدْ عادَتْ إلى بُيوتِها ، فيما عَدا ٱلقَليلينَ الَّذينَ ٱسْتَثارَهُمُ ٱلـمَوْقِفُ فَفَضَّلوا ٱلبَقاءَ عَلى النَّوْمِ ، لَعَلَّ بَعْضَ ٱلقَوارِبِ تَأْتي بَعْدَ ذٰلِكَ . وَلٰكِنَّ الَّذي أَتى كانَ شَيْئًا آخَرَ .

لَـمْ يَرَهُ أَحَدٌ في أَوَّلِ ٱلأَمْرِ ، إذْ لَـمْ يَكُنْ يَنْبَعِثُ مِنْهُ أَيُّ ضَوْءٍ ، وَمِنْ ثَمَّ كانَ ظُهورُهُ مفاجَأَةً مُفْزِعَةً تَمامًا . فَبَيْنَما لَـمْ يَكُنْ هُناكَ في دَقيقَةٍ مِنَ الدَّقائِقِ شَيْءٌ عَلى ٱلإطْلاقِ ، فَإذا هُناكَ في الدَّقيقَةِ التّالِيَةِ سَفينَةٌ رَفَعَتْ جَميعَ أَشْرِعَتِها ، وَالرّيحُ تَدْفَعُها مِنَ ٱلخَلْفِ . وَعِنْدَما مَرَّتْ مِنْ خِلالِ ٱلفُتْحَةِ الَّتي في السُّورِ ٱلبَحْرِيِّ تَبَيَّنَ أَنَّها السَّفينَةُ الرُّوسِيَّةُ الَّتي جَذَبَتِ ٱهْتِمامَ السَّيِّدِ سْوِيلْز .

لِماذا قَضَى الرُّبّانُ هٰذا ٱلوَقْتَ الطَّويلَ لِكَيْ يَتَّخِذَ قَرارَهُ بِالرُّسُوِّ في هُوِيتْبي ؟ وَأَيُّ نَوْعٍ مِنَ الرَّبّانِةِ هٰذا الذي يُبْحِرُ بِغَيْرِ ضَوْءٍ ، وَفي لَيْلَةٍ عاصِفَةٍ مِثْلِ هٰذِهِ اللَّيْلَةِ ؟

وَعِنْدَما أَصْبَحَتِ السَّفينَةُ أَقْرَبَ شاهَدَ ٱلـمُحْتَشِدونَ عَلى الشّاطِئِ ، رَجُلًا بِجِوارِ عَجَلَةِ ٱلقِيادَةِ فَتَصايَحُوا وَأَخَذوا يُلَوِّحونَ بِالتَّحِيَّةِ ، وَلٰكِنْ لَـمْ يَكُنْ هُناكَ جَوابٌ . وَحِينَما صارَتْ أَكْثَرَ قُرْبًا بَدَأَ واحِدٌ مِنْهُم يَتَوَقَّفُ عَنِ الصِّياحِ ، ثُمَّ تَلاهُ آخَرُ .. وَخَيَّمَ سُكُونٌ . كانَ الرَّجُلُ مُقَيَّدًا إلى ٱلعَجَلَةِ ، وَكانَ يُحَدِّقُ نَحْوَهُمْ بِعَيْنَيْنِ لا تُبْصِرانِ . وَتَكَشَّفَ ٱلأَمْرُ ، فَالسَّفينَةُ قَدْ شَقَّتْ أَعْتى ٱلأَمْواجِ وَدَخَلَتِ ٱلـمَرْفَأَ بِقِيادَةِ رَجُلٍ مَيِّتٍ .

وَتَحَرَّكَتِ السَّفينةُ نَحْوَ ٱلجِسْرِ ، وَأَخَذَ الرُّكّابُ ٱلقليلُونَ الَّذين كانُوا يَقِفون فوْق ظَهْرِها يَجْرونَ طَلَبًا لِلنَّجاةِ . وَلَوْ أَنَّ السَّفينةَ ٱسْتَمَرَّتْ في سَيْرِها لَحَطَّمَتِ ٱلجِسْرَ وَحَمَلَتْهُ بَعيدًا . وَلٰكِنَّها لَمْ تَسْتَمِرَّ ، فَقَدْ حَدَثَ في آخرِ لَحْظةٍ أَنْ تَغَيَّرَ مَجْرَى الرِّيحِ فَدَفَعَتِ السَّفينةَ نَحْوَ الشّاطِئِ الرَّمْليِّ ٱلجَنوبيِّ لِلنَّهْرِ . وَكانَتِ الدَّفْعةُ قَوِيَّةً حَتّى إِنَّ ٱلأَشْرِعةَ وَٱلحِبالَ وَقِطَعَ ٱلخَشَبِ هَوَتْ بِشِدَّةٍ مُحْدِثةً دَوِيًّا عاليًا . وَحِينَئِذٍ ، وَبَيْنَما كانَ ٱلحَشْدُ الَّذي عَلى الشّاطِئِ ٱلمُقابِلِ يُراقِبُ ما يَحْدُثُ ، إِذا بِكَلْبٍ ضَخْمٍ أَسْوَدَ يَنْدَفِعُ فَجْأَةً مِنْ وَسَطِ السَّفينةِ ، كَما لَوْ كانَتْ قُوَّةُ الصَّدْمةِ الَّتي جَعَلَتِ السَّفينةَ تَرْتَطِمُ بِٱلأَرْضِ هِيَ الَّتي دَفَعَتْهُ . وَقَفَزَ ٱلكَلْبُ عاليًا فَوْقَ الرِّجالِ ، ثُمَّ أَخَذَ يَعْدُو مُتَّجِهًا إِلى الشَّوارِعِ الضَّيِّقةِ الَّتي تَعْلُوها ٱلكَنيسةُ .

وَفي الصَّباحِ التّالي كانَتِ ٱلعاصِفةُ قَدْ هَدَأَتْ ، وَبَكَّرَتْ مِينا بِٱلخُرُوجِ إِلى ٱلمَدينةِ حَتّى قَبْلَ أَنْ تَتَناوَلَ ٱلإِفْطارَ . وَقَدْ شَجَّعَها عَلى هٰذا ٱلبُكورِ أَنَّ الشَّمْسَ مُشْرِقةٌ ، وَالسَّماءَ زَرْقاءُ صافِيةٌ ، ثُمَّ أَخْبارُ هٰذا ٱلوُصُولِ ٱلغَريبِ لِلسَّفينةِ الرُّوسِيَّةِ في اللَّيْلةِ ٱلماضِيةِ . وَلَمْ تَكُنْ لُوسي قَدْ نامَتْ في اللَّيْلِ نَوْمًا هادِئًا ، وَلِذٰلِكَ رَأَتْ مِينا أَنَّهُ خَيْرٌ لَها أَنْ تَتْرُكَها في فِراشِها .

كانَتِ ٱلمدينةُ كُلُّها تَتَحَدَّثُ عَنِ السَّفينةِ الرُّوسِيَّةِ ، وَسَرْعانَ ما عَرَفَتْ مِينا كُلَّ شَيْءٍ مِنَ السَّيِّدِ سْوِيلْز . عَرَفَتْ أَنَّ الطَّبيبَ الَّذي فَحَصَ جُثَّةَ رُبّانِ السَّفينةِ يَرى أَنَّ ٱلوَفاةَ حَدَثَتْ مُنْذُ أَيّامٍ ، وَأَنَّ الرُّبّانَ هُوَ الَّذي قَيَّدَ نَفْسَهُ إِلى ٱلعَجَلةِ ، وَأَنَّ ٱلحَبْلَ الَّذي قَيَّدَ نَفْسَهُ بِهِ قَدْ شَقَّ جِلْدَهُ وَتَغَلْغَلَ حَتّى ٱلعَظْمِ . وَيَبْدو أَنَّ السَّفينةَ دِيمِيتِر لَمْ تَتَّخِذْ طَريقَها إِلى هْوِيتْبِي مُصادَفةً ، فَقَدْ كانَ أَحَدُ تُجّارِ ٱلمَدينةِ يَتَوَقَّعُ وُصولَها ؛ إِذْ كانَ قَدْ تَلَقّى تَفْويضًا بِتَسَلُّمِ صَناديقَ خَشَبِيَّةٍ مُعَيَّنةٍ تَحْمِلُها السَّفينةُ ، عَلى أَنْ يَشْحَنَها بَعْدَ ذٰلِكَ إِلى لَنْدَن بِٱلقِطارِ .

أَمّا ٱلكَلْبُ ٱلأَسْوَدُ فَلَمْ يَرَهُ أَحَدٌ بَعْدَ ذٰلِكَ ، وَكانَ مِنَ ٱلغَريبِ أَنَّ حَيَوانًا ضَخْمًا مِثْلَ هٰذا يُمْكِنُ أَنْ يَخْتَفِيَ نِهائِيًّا . وَلٰكِنَّ مَدينةَ هْوِيتْبِي كانَتْ أَكْثَرَ أَمْنًا بِدُونِهِ . وَقَدْ عَثَرَ ٱلأَهالي عَلى كَلْبٍ قَوِيٍّ ضَخْمٍ مِنْ كِلابِ ٱلمَدينةِ مَيِّتًا وَقَدْ مُزِّقَ نِصْفُ عُنُقِهِ تَمْزيقًا . وَسادَ ٱلاعْتِقادُ أَنَّ كَلْبَ السَّفينةِ دِيمِيتِر هُوَ الَّذي فَعَلَ بِهِ هٰذا .

عادَتْ مِينا إِلى ٱلمَنْزِلِ ، وَأَنْبَأَتْ لُوسي فِي أَثْناءِ تَناوُلِ ٱلإِفْطارِ ما عَرَفَتْهُ مِنْ أَخْبارٍ . وَمَعَ أَنَّ لُوسي أَبْدَتِ ٱهْتِمامًا بِما سَمِعَتْ فَإِنَّ مِينا لَمْ يَرُقْها حالُها ، فَقَدْ كانَتْ تَبْدُو في وَجْهِها نَظْرَةٌ ناعِسةٌ حالِمةٌ . وَرَأَتْ مِينا أَنَّها في حاجةٍ إِلى ٱسْتِنْشاقِ الهَواءِ النَّقِيِّ ، فَأَخَذَتْها لِتَقْضِيَ ٱلْيَوْمَ مَعَها خارِجَ ٱلمَنْزِلِ . وَحينَما رَجَعَتا في ٱلمَساءِ عَرَفَتا مَزيدًا مِنَ ٱلأَخْبارِ عَنِ السَّفينةِ دِيمِيتِر مِمّا نَشَرَتْهُ صُحُفُ ٱلمَساءِ . فَقَدْ عَثَروا عَلى السِّجِلِّ الَّذي يُدَوِّنُ فيهِ رُبّانُ السَّفينةِ مُلاحَظاتِهِ ٱلْيَوْمِيَّةَ عَنِ الرِّحْلةِ وَٱسْتَطاعَ أَحَدُ رَبابِنةِ هْوِيتْبِي ٱلقُدامى مِمَّنْ يَعْرِفُونَ اللغةَ الرُّوسِيَّةَ أَنْ يُتَرْجِمَ ما فِيهِ إِلى ٱلإِنْجليزِيَّةِ . وَهٰذا ما قَرَأَتْهُ مِينا وَلُوسي في صَحيفةِ هْوِيتْبِي بوسْت ٱلمَسائِيَّةِ :

« أَبْحَرَتِ السَّفينةُ دِيمِيتِر مِنْ قارْنا الَّتي تَقَعُ عَلى ٱلبَحْرِ ٱلأَسْوَدِ وَعَلى ظَهْرِها رُبّانٌ وَضابِطانِ وَخَمْسةٌ مِنَ ٱلبَحّارةِ وَطاهٍ . وَفي ٱلبِدايةِ كانَ كُلُّ شَيْءٍ يَسيرُ سَيْرًا حَسَنًا ، وَلٰكِنْ بَعْدَ ٱنْقِضاءِ نَحْوَ أُسْبوعٍ لاحَظَ الرُّبّانُ أَنَّ رِجالَهُ يَبْدو عَلَيْهِمُ ٱلقَلَقُ وَٱلانْزِعاجُ . وَحاوَلَ الضّابِطُ ٱلأَوَّلُ أَنْ يَهْتَدِيَ إِلى السَّبَبِ ، فَلَمّا ٱسْتَمَعَ إِلَيْهِمُ ٱعْتَقَدَ أَنَّ ما يَتَحَدَّثونَ بِهِ هُراءٌ ، بَلْ إِنَّهُ قابَلَهُ بِغَضَبٍ . وَبَعْدَ مُضِيِّ يَوْمَيْنِ عَلى هٰذا ٱخْتَفى أَحَدُ الرِّجالِ ، وَكانَ قَدِ ٱنْتَهى مِنْ نَوْبةِ ٱلمُراقَبةِ الَّتي يَقومُ بِها . وَشُوهِدَ يُغادِرُ مَكانَهُ لِيَهْبِطَ مِنْ سَطْحِ السَّفينةِ إِلى مَخْدَعِهِ . وَلٰكِنَّهُ في ٱلحَقيقةِ لَمْ يَذْهَبْ إِلى سَريرِهِ قَطُّ . وَشاعَ بَيْنَ الرِّجالِ جَميعًا أَنَّ هُناكَ أَمْرًا غَيْرَ طَبيعِيٍّ في السَّفينةِ . وَبَعْدَ مُضِيِّ يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ رَوَى أَحَدُ الرِّجالِ لِلرُّبّانِ أَنَّهُ بَيْنَما كانَ في نَوْبَتِهِ لِلْمُراقَبةِ في اللَّيْلةِ ٱلماضِيةِ شاهَدَ رَجُلًا غَريبًا يَصْعَدُ إِلى ظَهْرِ السَّفينةِ وَيَمْشي مُتَّجِهًا إِلى ٱلجُزْءِ ٱلخَلْفِيِّ مِنْها ، وَهُناكَ ٱخْتَفى تَمامًا .

"وَحينَئِذٍ أَمَرَ الرُّبّانُ بِتَفْتيشِ السَّفينةِ كُلِّها ، وَكانَتْ جَميعُ الصَّناديقِ الَّتي في ٱلقاعِ مُحْكَمةَ ٱلإِغْلاقِ بِحَيْثُ لا يَسْتَطيعُ أَحَدٌ ــ إِنْ كانَ مُخْتَبِئًا فيها ــ أَنْ يَخْرُجَ مِنْها عَلى ٱلإِطْلاقِ . وَكانَتِ ٱلأَرْبِطةُ بَيْنَها مُحْكَمةً بِحَيْثُ لا يَسْتَطيعُ أَحَدٌ أَنْ يَخْتَبِئَ فيما بَيْنَها . وَلَمْ يُسْفِرِ ٱلبَحْثُ عَنْ وُجودِ أَحَدٍ ، وَلِذٰلِكَ عادَتْ إِلى رِجالِ السَّفينةِ الطُّمَأْنينةُ ، وَلَمْ يَحْدُثْ ما يُعَكِّرُ صَفْوَهُمْ ، إِلى أَنْ واجَهوا جَوًّا عاصِفًا في خَليجِ بِسْكاي . هُناكَ فُقِدَ رَجُلٌ

آخَرُ مِنَ ٱلبَحّارةِ ، وَبَعْدَ ذٰلِكَ فُقِدَ ٱثْنانِ آخَرانِ ، وَكانَ ٱخْتِفاؤُهُمْ جَميعًا يَتِمُّ بِنَفْسِ الطَّريقةِ الَّتي حَدَثَتْ مَعَ ٱلأَوَّلِ . وَكانَتْ نَتيجةُ ذٰلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَرْضَ أَحَدٌ بَعْدَ ذٰلِكَ بِٱلمُراقَبةِ وَحْدَهُ .

وَعِنْدَما بَلَغوا ٱلقَنالَ ٱلإِنْكِليزيَّ ٱسْتَمر ٱلجَوُّ ٱلعاصِفُ ، وَٱسْتَمر ٱخْتِفاءُ الرِّجالِ حَتّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمُ ٱلعَدَدُ ٱلكافي لِرَفْعِ أَشْرِعةِ السَّفينةِ وَإِنْزالِها . وَفي النِّهايةِ لَمْ يَكُنْ باقِيًا عَلى ظَهْرِ السَّفينةِ إِلَّا الرُّبّانُ ، وَالضّابِطُ ٱلأَوَّلُ .

« وَإِلى هُنا كانَ مِنَ الصَّعْبِ قِراءَةُ ٱلمُلاحَظاتِ ٱلمُدَوَّنةِ بِالسِّجِلِّ ، وَلٰكِن يَبْدو أَنَّ الضّابِطَ ٱلأَوَّلَ جُنَّ جُنُونُهُ فَراحَ يَفْتَحُ الصَّناديقَ الَّتي في قاعِ السَّفينةِ . وَلَمْ يَكَدْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ حَتّى صاحَ صَيْحةً ثُمَّ جَرى إِلى ظَهْرِ السَّفينةِ وَقَفَزَ إِلى أَعْماقِ ٱلبَحْرِ . وَبَعْدَ هٰذا أَصْبَحَتْ كَلِماتُ السِّجِلِّ مُسْتَعْصِيةً عَلى ٱلقِراءَةِ . »

وَفي ٱليَوْمِ التّالي شُيِّعَتْ جِنازةُ رُبّانِ السَّفينةِ الَّذي ٱعْتَقَدَ صَيّادُو هُوِيتْبِي أَنَّهُ كانَ بَحّارًا شُجاعًا ، وَأَنَّه أَدّى واجِبَهُ خَيْرَ ما يَكونُ ٱلأَداءُ . وَقَدْ سارَ في جِنازَتِهِ جَمْعٌ غَفيرٌ مِنَ النّاسِ ، وَسارَتْ مَعَهُمْ مِينا وَلُوسي ، وَلٰكِنَّ مِينا ــ بَعْدَ ذٰلِكَ ــ تَمَنَّتْ لَوْ أَنَّها لَمْ تَكُنْ صَحِبَتْ مَعَها لُوسي ، وَذٰلِكَ لِأَنَّهما سَمِعَتا في ٱلجِنازةِ أَخْبارًا سَيِّئةً .

كانَتا تَتَوَقَّعانِ أَنْ تَرِيا صَديقَهُما ٱلمُسِنَّ السَّيِّدَ سْوِيلْز . لَمْ يَكُنْ هُناكَ وَجاءَ إِلَيْهِما أَحَدُ رِفاقِهِ الصَّيّادينَ ٱلمُسِنِّينَ وَأَخْبَرَهُما أَنَّ السَّيِّدَ سْوِيلْز قَدْ وُجِدَ مَيِّتًا وَهُوَ جالِسٌ عَلى مَقْعَدِهِ ٱلمُعْتادِ في ساحَةِ ٱلكَنيسةِ ، وَالسَّبَبُ أُزْمَةٌ قَلْبِيَّةٌ . صَحيحٌ أَنَّ الرَّجُلَ كانَ شَيْخًا كَبيرًا ، وَلٰكِنَّ مِينا كانَتْ تَرى أَنَّهُ في غايَةِ ٱلقُوَّةِ . وَقَدْ قَرَرَ الطَّبيبُ الَّذي فَحَصَهُ أَنَّهُ يَبْدو مِنَ النَّظْرةِ الَّتي كانَتْ في عَيْنَيْهِ أَنَّ شَيْئًا مّا قَدْ أَفْزَعَهُ . وَلٰكِنْ ما الَّذي يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ في ساحَةِ ٱلكَنيسةِ ٱلهادِئةِ هٰذِهِ لِكَيْ يُفْزِعَ رَجُلًا مُسِنًّا فَيَقْضيَ عَلَيْهِ ؟!

ٱلْفَصْلُ ٱلسّابِعُ

في هٰذِهِ اللَّيْلةِ ٱسْتَيْقَظَتْ مِينا مِنْ نَوْمِها وَقَدِ ٱنْتابَها شُعورٌ غَريبٌ . كانَ هُناكَ فَراغٌ في ٱلحُجْرةِ ، وَحَتّى قَبْلَ أَنْ تَنْهَضَ مِنْ فِراشِها وَتَنْظُرَ ، كانَتْ تُحِسُّ أَنَّ لُوسي لَيْسَتْ بِٱلحُجْرةِ . اِتَّجَهَتْ إِلى ٱلبابِ فَوَجَدَتْهُ مُغْلَقًا وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُوصدًا بِٱلمِزْلاجِ كَما تَرَكَتْهُ . اِرْتَدَتْ مِعْطَفًا وَحِذاءً ، وَسارَعَتْ بِالنُّزولِ إِلى ٱلقاعةِ السُّفْلى ، فَإِذا بِها تَجِدُ ٱلبابَ ٱلأَماميَّ لِلْمَنْزِلِ نِصْفَ مَفْتوحٍ ، فَتَأَكَّدَتْ أَنَّ لُوسي لابُدَّ قَدْ خَرَجَتْ . وَلَمْ تَكُنْ لَدى مِينا فِكْرةٌ واضِحةٌ عَنِ ٱلمَكانِ الَّذي قَصَدَتْهُ . وَلٰكِنَّها ما كادَتْ تَخْطو خارِجَ ٱلمَنْزِلِ حَتّى سَمِعَتِ السّاعةَ تَدُقُّ ٱلواحِدةَ . لَقَدْ كانَتْ ساعةَ ٱلكَنيسةِ مِمّا جَعَلَ فِكْرَها يَنْساقُ إِلى هُناكَ . لَقَدْ كانَتا تَذْهَبانِ إِلى ساحَتِها كُلَّ يَوْمٍ تَقْريبًا ، فَلَعَلَّ لُوسي قادَتْها قَدَماها إِلى هُناكَ وَهِيَ نائِمةٌ .

كانَتِ اللَّيْلةُ حالِكةَ الظَّلامِ ، وَلٰكِنْ كانَ هُناكَ ضَوْءٌ فُجائِيٌّ يَنْبَعِثُ بَيْنَ ٱلحينِ وَٱلحينِ كُلَّما دَفَعَتِ الرِّيحُ تَجَمُّعاتِ السُّحُبِ ٱلمُتَكَسِّرةِ لِتَجْتازَ وَجْهَ ٱلقَمَرِ . وَحينَما وَصَلَتْ مِينا إِلى طَرَفِ ساحةِ ٱلكَنيسةِ كانَ هُناكَ مِنَ الظَّلامِ أَكْثَرُ مِمّا كانَ مِنَ الضَّوْءِ . وَلٰكِنْ ، في هٰذِهِ اللَّحظةِ ذاتِها اِنْبَعَثَ ضَوْءُ ٱلقَمَرِ السّاطِعُ ، وَتَمَلَّكَتْها ٱلفَرْحَةُ حينَ رَأَتْ صَديقَتَها مُضْطَجِعةً فَوْقَ مَقْعَدِها ٱلمُعْتادِ ، ٱلمَقْعَدِ نَفْسِهِ الَّذي ماتَ فَوْقَهُ السَّيِّدُ سْوِيلْز ٱلمِسْكينُ . وَفي نَفْسِ اللَّحْظةِ تَقْريبًا جاءَتِ السَّحابةُ التّالِيةُ لِتُغَطِّيَ ٱلقَمَرَ ثانِيةً ، وَلٰكِنَّ مِينا ٱعْتَراها إِحْساسٌ ــ في خِلالِ اللَّحْظةِ الَّتي ٱنْبَعَثَ فِيها ضَوْءُ ٱلقَمَرِ ــ أَنَّ لُوسي لَمْ تَكُنْ وَحْدَها ، فَلَقَدْ شاهَدَتْ في ظِلِّ ٱلمَقْبَرةِ ٱلكائِنةِ خَلْفَ ٱلمَقْعَدِ شَكْلًا مّا ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُحَدِّدَ ما إِذا كانَ شَكْلَ إِنْسانٍ أَوْ حَيَوانٍ . وَلٰكِنْ هُناكَ شَيْءٌ طَويلٌ يَجْثُمُ فَوْقَ جِسْمِ لُوسي .

وَصاحَتْ مِينا : « لُوسي ! لُوسي ! »

ثُمَّ جَرَتْ نَحْوَها ، وَلٰكِنْ عِنْدَما وَصَلَتْ إِلى ٱلمَقْعَدِ كانَتْ لُوسي وَحْدَها . كانَتْ لا تَزالُ نِصْفَ مُضْطَجِعةٍ ، وَرَأْسُها فَوْقَ ظَهْرِ ٱلمَقْعَدِ ، أَمّا عُنُقُها فَكانَ مَكْشوفًا . وَتَوَقَّفَتْ

مِينا وَهِيَ تَسْأَلُ نَفْسَها : « تُرَى ، أَلُوسِي الَّتي تَحْلُمُ ، أَمْ إِنَّني أَنا ٱلحالِمةُ ؟ إِنَّ ضَوْءَ ٱلقَمَرِ ــ عادَةً ــ يَجْعَلُ ٱلمَرْءَ يَتَصَوَّرُ أَشْياءَ غَيْرَ مَوْجودةٍ ، وَمَعَ هٰذا فَإِنَّني أُحِسُّ إِحْساسًا أَكيدًا أَنَّهُ كانَ مَعَها شَيْءٌ مّا ، أَوْ شَخْصٌ مّا . »

كانَتْ لُوسي مُسْتَغْرِقة في نَوْمٍ عَميقٍ ، وَلٰكِنَّها كانَتْ تَتَنَفَّسُ بِطَريقةٍ غَيْرِ طَبيعِيّةٍ تَنَفُّسًا سَريعًا مُضْطَرِبًا . وَجَلَسَتْ مِينا عَلى ٱلمَقْعَدِ بِجِوارِها لَحَظاتٍ وَهِيَ حَيْرى ؛ ماذا تَفْعَلُ بَعْدَ هٰذا ؟ قَدْ يَكونُ مِنَ ٱلخَطَرِ أَنْ تُوقِظَها دَفْعَةً واحِدةً ، وَلٰكِنْ ــ في نَفْسِ ٱلوَقْتِ ــ قَدْ تُصابُ بِٱلبَرْدِ إِذا تُرِكَتْ عَلى حالِها هٰذِهِ فَتْرَةً طَويلةً . خَلَعَتْ مِينا مِعْطَفَها وَطَوَّقَتْها بِهِ ، وَفي أَثْناءِ ذٰلِكَ سَقَطَ الزِّرُّ ٱلعُلْوِيُّ مِنَ ٱلمِعْطَفِ ، فَأَخَذَتِ ٱلمِشْبَكَ ٱلمُرَصَّعَ الَّذي كانَتْ تَلْبَسُهُ ثُمَّ شَبَكَتْ بِهِ ٱلفُتْحةَ مِنْ ناحِيةِ عُنُقِها . وَيَبْدو أَنَّ ٱلمِشْبَكَ ٱنْغَرَزَ في جِلْدِها ، إِذْ إِنَّ لُوسي صَرَخَتْ صَرْخةَ أَلَمٍ وَوَضَعَتْ يَدَها عَلى عُنُقِها . ثُمَّ خَلَعَتْ مِينا حِذاءَها وَوَضَعَتْهُ في قَدَمَي لُوسي ، وَساعَدَتْها عَلى ٱلمَشْيِ بِبُطْءٍ . وَشَيْئًا فَشَيْئًا عادَتْ إِلَيْها ٱلحَياةُ مِنْ جَديدٍ ، وَعادَتا إِلى ٱلمَنْزِلِ حَيْثُ كانَتِ الشَّوارِعُ خالِيةً .

وَفي صَبيحةِ ٱلْيَوْمِ التّالي تَرَكَتْ مِينا صَديقَتَها تَنامُ حَتّى وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ ، وَحِينَما ٱسْتَيْقَظَتْ ، كانَ يَبْدو عَلى وَجْهِها الشُّحوبُ ، وَلٰكِنَّها لَمْ تُصَبْ بِٱلبَرْدِ . أَمّا ٱلعاقِبةُ السَّيِّئةُ الَّتي خَرَجَتْ بِها مِنْ تَجْرِبةِ اللَّيْلةِ ٱلماضِيةِ فَهِيَ بُقْعَتانِ صَغيرَتانِ حَمْراوانِ في عُنُقِها . وَأَخَذَتْ مِينا تَلومُ نَفْسَها إِذْ لَمْ تَكُنْ حَريصةً حِينَما ٱسْتَخْدَمَتِ ٱلمِشْبَكَ ، وَلٰكِنَّ لُوسي طَمْأَنَتْها وَقالَتْ إِنَّها لا تُحِسُّ بِأَلَمٍ فِيهِما ، وَكانَ يَبْدو عَلَيْها أَنَّها لا تَرْغَبُ في ٱلخَوْضِ في هٰذا ٱلمَوْضُوعِ .

في تِلْكَ اللَّيْلةِ كانَتْ مِينا تَأْمُلُ أَنْ تَنامَ لُوسي نَوْمًا أَهْدَأَ مِمّا كانَ في اللَّيْلةِ ٱلماضِيةِ ، وَلٰكِنَّ ٱلأَمْرَ لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ . فَحينَما حانَ وَقْتُ النَّوْمِ ، لَمْ تَكْتَفِ مِينا بِإِيصادِ ٱلبابِ بِٱلمِفْتاحِ فَحَسْبُ ، بَلْ إِنَّها أَخَذَتِ ٱلمِفْتاحَ مَعَها في فِراشِها أَيْضًا ، وَكانَ هٰذا مِنْ حُسْنِ ٱلحَظِّ . لِأَنَّها سَمِعَتْ لُوسي وَهِيَ تَنْهَضُ مِنْ فِراشِها وَتُحاوِلُ فَتْحَ ٱلبابِ مَرَّةً أُولى وَثانِيةً . وَفي ٱلمَرَّةِ الثّالِثةِ ٱسْتَيْقَظَتْ مِينا لِتَجِدَ لُوسي تَسْحَبُ السَّتائِرَ إِلى الخَلْفِ ، وَخَشِيَتْ أَنْ

تَسْقُطَ مِنَ النّافِذةِ فَأَخَذَتْها إِلى فِراشِها ، ثُمَّ أَعادَتِ السَّتائِرَ إِلى حَيْثُ كانَتْ .

كانَ ٱلقَمَرُ لا يَزالُ بَدْرًا كامِلًا . وَكانَ كُلُّ شَيْءٍ في ٱلخارِجِ يَبْدو جَميلًا أَخّاذًا . وَكانَ ٱلهُدُوءُ مُخَيِّمًا فِيما عَدا خُفاشًا ضَخْمًا كانَ يَحُومُ في دَوائِرَ واسِعةٍ ، وَيَقْتَرِبُ حَتّى يَكادَ يَلْتَصِقُ بِالنّافِذةِ . وَلٰكِنْ يَبْدو أَنَّ ظُهورَ مِينا قَدْ أَفْزَعَهُ ، فَأَخَذَ يَطيرُ عَبْرَ ٱلوادي في ٱتِّجاهِ ٱلكَنيسةِ .

كانَتْ صِحَّةُ لُوسي تَزْدادُ سُوءًا ، وَكانَ ذٰلِكَ مَبْعَثَ قَلَقٍ لِمِينا . وَكانَتْ تَصَرُّفاتُ لُوسي في مُعْظَمِ ٱلأَوْقاتِ هِيَ تَصَرُّفاتِ الصَّديقةِ ٱلوَدودِ الَّتي عَرَفَتْ مِينا مُنْذُ زَمانٍ طَويلٍ وَأَحَبَّتْها . وَلٰكِنْ ــ في أَوْقاتٍ أُخْرى ــ كانَتْ تَبْدو وَكَأَنَّها شَخْصٌ غَريبٌ ، وَكانَتْ لُوسي دائِمةَ الشُّحوبِ وَٱلإِرْهاقِ في ٱلأَيّامِ ٱلأَخيرةِ . وَلِذٰلِكَ كَتَبَتْ مِينا إِلى والِدةِ لُوسي تَطْلُبُ مِنْها أَنْ تُعَجِّلَ بِٱلحضورِ إِلى هُوَيْتْبي . صَحيحٌ أَنَّهُ كانَتْ هُناكَ خُطُورةٌ في تَحْميلِ السَّيِّدةِ وِسْتِنْرا مَشَقّاتِ السَّفَرِ بِسَبَبِ قَلْبِها الضَّعيفِ . وَلٰكِنْ إِذا كانَتْ لُوسي مَريضةً فَإِنَّ مِنْ حَقِّ أُمِّها أَنْ تَعْرِفَ . كَذٰلِكَ طَلَبَتْ مِينا مِنْ لُوسي أَنْ تَعْرِضَ نَفْسَها عَلى طَبيبٍ ، فَٱسْتَجابَتْ لَها وَهِيَ غَيْرُ راضِيةٍ كُلَّ الرِّضا . وَقَدْ قَرَّرَ الطَّبيبُ أَنَّها لا تُعاني مِنْ أَيِّ مَرَضٍ ، وَإِنَّما هِيَ في حاجةٍ إِلى الرّاحةِ وَٱلهُدوءِ .

وَلَمْ تَشَأْ مِينا أَنْ تَسْأَلَ لُوسي عَنْ مَوْضُوعِ مَشْيِها في أَثْناءِ النَّوْمِ ، إِذْ وَجَدَتْ أَنَّهُ مِنَ ٱلخَيْرِ أَلّا تُقْلِقَها بِٱلحَديثِ ٱلمُباشِرِ فِيهِ عَقِبَ وُقوعِهِ . وَلٰكِنْ ، بَعْدَ ظُهْرِ أَحَدِ ٱلأَيّامِ ، وَحِينَما كانَتا تَجْتازانِ ساحةَ ٱلكَنيسةِ وَجَدَتْ مِينا أَنَّ ٱلوَقْتَ مُناسِبٌ لِكَيْ تَطْرُقَ ٱلمَوْضوعَ . وَفَكَّرَتْ أَنَّه إِذا كانَ هُناكَ ما يُقْلِقُ لُوسي فَإِنَّ التَّحَدُّثَ فِيهِ رُبَّما يُساعِدُها وَيَكونُ خَيْرًا لَها ، وَلِذٰلِكَ سَأَلَتْها : « بِمَ كُنْتِ تَحْلُمينَ في تِلْكَ اللَّيْلةِ حِينَما جِئْتِ إِلى هُنا وَحْدَكِ ؟ »

فَأَجابَتْ لُوسي مُتَسائِلةً : « هَلْ كُنْتُ أَحْلُمُ ؟ نَعَمْ ، لابُدَّ أَنَّهُ كانَ حُلْمًا ، وَلٰكِنَّهُ يَبْدو كَٱلحَقيقةِ تَمامًا . لَقَدْ أَحْسَسْتُ بِرَغْبةٍ شَديدةٍ في أَنْ أَكونَ في ساحةِ ٱلكَنيسةِ . وَمَعَ هٰذا ، فَلَسْتُ أَدْري لِماذا ؟ ذٰلِكَ لِأَنَّني أَذْكُرُ أَنَّني كُنْتُ خائِفةً مِنْ شَيْءٍ مّا أَيْضًا . وَمَعَ

أُنِّي لابُدَّ كُنْتُ نائِمةً ، فَإِنَّني أَتَذَكَّرُ سَيْرِي في الشَّوارِعِ ، وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ آلـمَدينَةَ مُمْتَلِئةٌ بِآلكِلابِ . كانَتِ الضَّوْضاءُ عَلى أَشُدِّها ، وَعِنْدَما كُنْتُ أَعْبُرُ آلجِسْرَ إِذا بِسَمَكةٍ تَقْفِزُ ، فَتَوَقَّفْتُ كَيْ أُجيلَ بَصَرِي في آلـماءِ . ثُمَّ صَعِدْتُ إِلى آلكَنيسةِ وَبَدا لِي كَأَنَّني لا أَزالُ أُحَدِّقُ في آلـماءِ ، وَأَنَّني أَغوصُ فِيهِ ، في ماءٍ عَميقٍ أَخْضَرَ ، وَكانَ هُناكَ شَيْءٌ طَويلٌ قاتِمٌ ذو عَيْنَيْنِ حَمْراوَيْنِ ، وَآنْتابَتْني مَشاعِرُ مِنَ اللَّذةِ وَآلخَوْفِ وَآلأَلَمِ جَميعًا ، ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ أَذْكُرُ أَنَّكِ كُنْتِ بِجانِبِي عَلى آلـمَقْعَدِ . هَلْ كُنْتِ أَنْتِ ؟ أَمْرٌ عَجيبٌ حَقًّا . »

قالَتْ هٰذا ، ثُمَّ آنْطَلَقَتْ في الضَّحِكِ .

لَـمْ يَرُقْ مِينا أَنْ تَرَى لُوسي تَضْحَكُ بِهٰذِهِ الطَّريقةِ ، فَلَقَدْ كانَتْ ضَحِكاتُها غَيْرَ طَبيعِيَّةٍ . كَما أَحَسَّتْ أَنَّ لُوسي لَـمْ تُخْبِرْها بِكُلِّ ما كانَتْ تَذْكُرُهُ عَنْ هٰذِهِ آللَّيْلةِ ، وَلٰكِنَّها لَـمْ تُحاوِلْ أَنْ تُلِحَّ عَلَيْها لِكَيْ تُخْبِرَها بِآلـمَزيدِ . ذٰلِكَ لِأَنَّ لُوسي قالَتْ إِنَّها تَشْكو مِنْ صُداعٍ ، وَقَدْ أَوَتْ إِلى فِراشِها عَقِبَ عَوْدَتِها إِلى آلـمَنْزِلِ مُباشَرةً . أَمّا مِينا فَقَدْ جَلَسَتْ تَكْتُبُ بَعْضَ الرَّسائِلِ حَتَّى آلعاشِرَةِ . وَأَحَسَّتْ أَنَّها في حاجةٍ إِلى آلهَواءِ الطَّلْقِ فَخَرَجَتْ تَمْشي حَتَّى مَكْتَبِ آلبَريدِ في آلـمَدينةِ . وَفي طَريقِ آلعَوْدةِ مَرَّتْ بِبُقْعةٍ تَسْتَطيعُ أَنْ تَرَى مِنْها ظَهْرَ آلـمَنْزِلِ آلَّذي تُقيمانِ فيهِ ، وَلَـمْ يَكُنِ آلقَمَرُ بَدْرًا كَما كانَ في آللَّيْلةِ السّابِقةِ ، وَلٰكِنَّه كانَ لا يَزالُ ساطِعًا . وَحينَما رَفَعَتْ بَصَرَها إِلى نافِذةِ حُجْرةِ نَوْمِها أَخَذَتْها آلدَّهْشةُ إِذْ شاهَدَتْ لُوسي فَلَوَّحَتْ لَها بِيَدِها ، وَلٰكِنَّ لُوسي لَـمْ تُبادِلْها آلتَّحِيَّةَ ، وَإِنَّما كانَتْ تَسْتَنِدُ عَلى حافَةِ آلنّافِذةِ كَما لَوْ كانَتْ نائِمةً . وَفي آلتَّوِّ خَطَرَ عَلى بالِ مِينا ما حَدَثَ في لَيْلةِ ساحةِ آلكَنيسةِ ، وَآلشَّكْلُ آلغَريبُ آلَّذي خُيِّلَ إِلَيْها وَقْتَئِذٍ أَنَّهُ جاثِمٌ فَوْقَ صَديقَتِها . وَهٰكَذا لِلْـمَرَّةِ آلثّانِيةِ ، بَدا كَما لَوْ أَنَّ شَيْئًا مّا مُتَمَدِّدٌ أَمامَ وَجْهِها عَلى حافَةِ آلنّافِذةِ ، وَبَدا أَشْبَهُ بِجَناحِ طائِرٍ أَوْ خُفاشٍ . هَرْوَلَتْ مِينا إِلى آلـمَنْزِلِ ، وَسارَعَتْ إِلى آلرِّقِيِّ السُّلَّمِ وَثْبًا . وَحينَما دَخَلَتِ آلحُجْرَةَ ، كانَتْ لُوسي في فِراشِها مُسْتَغْرِقةً في نَوْمٍ عَميقٍ . كانَتْ تَتَنَفَّسُ تَنَفُّسًا سَريعًا مُضْطَرِبًا كَما فَعَلَتْ في ساحةِ آلكَنيسةِ ، وَكانَتْ تَشُدُّ مِفْرَشَ السَّريرِ بِقُوَّةٍ حَوْلَ عُنُقِها . آتَّجَهَتْ مِينا إِلى النّافِذةِ ، وَلٰكِنْ لَـمْ يَكُنْ هُناكَ أَيُّ شَيْءٍ .

لَـمْ تَكُنِ آلأَيّامُ آلقَليلةُ التّالِيةُ سَعيدةً بِالنِّسْبةِ لِمِينا . كانَتْ لُوسي تَأْكُلُ وَتَنامُ ، وَكانَتْ تَسْتَنْشِقُ آلهَواءَ الطَّلْقَ كَثيرًا ، وَمَعَ ذٰلِكَ كانَتْ تَزْدادُ شُحُوبًا وَضَعْفًا . وَأَيًّا كانَ رَأْيُ الطَّبيبِ فَلَيْسَ هُناكَ شَكٌّ في أَنَّها كانَتْ مَريضةً . أَمّا آلجُرْحانِ الصَّغيرانِ في عُنُقِها فَإِنَّهما لَـمْ يَتَحَسَّنا . كانا لا يَزالانِ مَفْتوحَيْنِ ، بَلْ لَقَدْ زادا اتِّساعًا ، وَكانَتْ مِينا تَرْجو آلّا يَكونَ عَدَمُ حِرْصِها هُوَ السَّبَبَ في مَرَضِ لُوسي .

وَأَخيرًا قالَتْ مِينا : « لابُدَّ أَنْ تَسْتَشيرِي طَبيبًا آخَرَ يالُوسي ، سَوْفَ أَكْتُبُ إِلى دُكْتور سيوارْد . »

اَلْفَصْلُ اَلثّامِنْ

حِينما نَزَلَتْ مِينا لِتَتَناوَلَ طَعامَ اَلإفْطارِ في صَباحِ اَلْيَوْمِ التّالي وَجَدَتْ خِطابًا لَها قُرْبَ مَكانِ جُلُوسِها إلى اَلْمائِدةِ . وَإذْ وَقَعَ بَصَرُها عَلى خاتَمِ بُودابِسْت عَلى طابَعِ اَلْبَرِيدِ صاحَتْ : « أُخيرًا ! لابُدَّ أَنْ يَكونَ مِنْ جوناثان . »

وَلٰكِنْ حِينَما رَأَتْ أَنَّ اَلْكِتابَةَ عَلى الظَّرْفِ لَيْسَتْ بِخَطِّ جوناثان عادَتْ إلَيْها أَسْوَأُ مَخاوِفِها .

« السَّيِّدةُ اَلْعَزيزةُ

أَكْتُبُ إلَيْكِ بِناءً عَلى رَغْبةِ السَّيِّدِ جوناثان هارْكَر الَّذي لا يَمْلِكُ اَلْقُوَّةَ اَلْكافِيةَ لِكَيْ يَكْتُبَ بِنَفْسِهِ ، وَلَوْ أَنَّهُ يَتَحَسَّنُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، وَشُكْرًا لله وَلِسانت جُوزيف . لَقَدْ كانَ تَحْتَ رِعايَتِنا طَوالَ اَلأَسابيعِ اَلأَرْبعةِ اَلْماضِيةِ ، وَقَدْ طَلَبَ مِنّي أَنْ أَبْعَثَ إلَيْكِ بِحُبِّهِ ، كَما طَلَبَ أَنْ أَكْتُبَ إلى السَّيِّدِ بيتر هَوْكِينْز في إكْستر بِإنْجِلْترا لِأُخْبِرَهُ أَنَّ عَمَلَهُ قَدْ أُنْجِزَ ، وَأَنَّهُ يَأْسَفُ لِتَأَخُّرِهِ في اَلْعَوْدةِ . إنَّهُ في حاجَةٍ إلى بِضْعةِ أَسابيعَ أُخْرى مِنَ الرّاحةِ في دارِنا الَّتي تَقَعُ فَوْقَ التِّلالِ ، ثُمَّ يَعودُ بَعْدَها إلى إنْجِلْترا . كَما طَلَبَ أَنْ أُخْبِرَكِ أَنَّهُ في حاجةٍ إلى نُقودٍ ، إذْ يَرْغَبُ في سَدادِ نَفَقاتِ إقامَتِهِ هُنا ، وَذٰلِكَ لِكَيْ تَتَمَكَّنَ دارُنا مِنْ تَقْديمِ اَلْعَوْنِ لِأُولٰئِكَ الَّذينَ يَحْتاجونَ إلَيْهِ .

اَلْمُخْلِصـــــــــــــــةُ

اَلْأُخْتُ أَغاثا

مُسْتَشْفى سانْت جُوزيف »

وَقَدْ ذُيِّلَتِ بِعِباراتٍ أُخْرى كَتَبَتْها اَلأُخْتُ أَغاثا :

« السَّيِّدُ هارْكَر نائِمٌ اَلآنَ ، وَقَدْ وَجَدْتُ مِنَ اَلأَفْضَلِ أَنْ أَفْتَحَ اَلرِّسالةَ لِأُضيفَ اَلْمَزيدَ . حِينَما جاءَ إلَيْنا كانَ يَتَحَدَّثُ في هِياجٍ عَنِ الذِّئابِ وَالدِّماءِ وَمَصّاصي الدِّماءِ ، وَيَبْدو أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ لَهُ شَيْءٌ غَريبٌ مُفْزِعٌ — وَرُبَّما شِرِّيرٌ — حَتّى لَقَدْ صارَتِ اَلأُمورُ كُلُّها مُخْتَلِطةً في عَقْلِهِ . وَلَقَدْ وَجَدْنا مِنَ اَلأَفْضَلِ أَلّا نُوَجِّهَ إلَيْهِ أَيَّ سُؤالٍ . لَقَدْ وَصَلَ إلى بُودابِسْت

بِالْقِطارِ قادِمًا مِنْ بيسْتريتْز دُونَ تَذْكرةِ سَفَرٍ ، وَفي حالَةٍ شَديدَةٍ مِنَ اَلاضْطِرابِ . وَكُنّا نَوَدُّ أَنْ نَكْتُبَ إلَيْكِ مِنْ قَبْلُ ، وَلٰكِنَّ حالَهُ لَمْ تَكُنْ تَسْمَحُ بِذٰلِكَ . أَمّا اَلآنَ فَقَدْ أَصْبَحَ قادِرًا عَلى أَنْ يَتَحَدَّثَ إلَيْنا ، وَأَنْ يَكونَ لِكَلامِهِ مَعْنًى . »

وَحِينَما ظَهَرَتْ لُوسي صاحَتْ مِينا : « أُهٍ يالُوسي ! إنَّهُ بِخَيْرٍ . لَقَدْ جاءَتْني اَلأَخْبارُ أَخيرًا . لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ قَطُّ أَنَّ السَّعادَةَ سَوْفَ تَغْمُرُني حِينَ أَعْلَمُ أَنَّهُ يَرْقُدُ في مُسْتَشْفى ، وَلٰكِنَّهُ — عَلى اَلأَقَلِّ — لَمْ يَخْتَفِ . إنَّهُ — عَلى اَلأَقَلِّ — لَمْ يَمُتْ . لابُدَّ أَنْ أَذْهَبَ إلَيْهِ بِقَدْرِ ما أَسْتَطيعُ مِنْ سُرْعةٍ . »

وَهٰكَذا ، اتُّخِذَتْ مِينا اَلإجْراءاتِ اَللّازِمةَ : أُرْسِلَتِ اَلْخِطاباتِ وَاَلْبَرْقِيّاتِ إلى السَّيِّدِ هَوْكِينْز ، وَإلى اَلأُخْتِ أَغاثا ، وَاشْتَرَتْ تَذاكِرَ السَّفَرِ بِالسَّفينَةِ وَالْقِطارِ . وَقَدْ رَدَّ عَلَيْها السَّيِّدُ هَوْكِينْز بِرِسالَةٍ رَقيقَةٍ ، وَكانَ مِنْ رَأْيِهِ أَنَّها سَوْفَ تَكونُ فِكْرَةً طَيِّبَةً بِالنِّسْبَةِ لِمِينا وَجوناثان أَنْ يَعْقِدا قِرانَهُما في بُودابِسْت ، وَتَعَهَّدَ أَنْ يَتَوَلّى هُوَ اتِّخاذَ اَلإجْراءاتِ اَللّازِمةِ .

أَمّا لُوسي — وَقَدِ اسْتَشْعَرَتْ ما غَمَرَ مِينا مِنْ سَعادةٍ — فَقَدْ بَدَأَتْ حالُها تَتَحَسَّنُ قَليلًا . وَلٰكِنَّها كانَتْ لا تَزالُ بَعيدةً عَنِ الشِّفاءِ ، وَكانَتْ مِينا تَضَعُ أَمَلَها في وُصولِ السَّيِّدةِ وِسْتِنْرا ، وَما يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ أَثَرٍ طَيِّبٍ .

وَقالَتْ مِينا ، لِلْمَرَّةِ اَلْعِشْرِينَ مُنْذُ وُصُولِ رِسالَةِ اَلأُخْتِ أَغاثا : « أُهٍ يالُوسي ! إنَّني لا أَسْتَطيعُ اَلانْتِظارَ لِكَيْ أَراهُ ثانِيَةً ! »

كانَتِ اَلْفَتاتانِ في مَحَطَّةِ هُوِيتْبي تَنْتَظِرانِ اَلْقِطارَ الَّذي يُقِلُّ السَّيِّدةَ وِسْتِنْرا . وَقالَتْ لُوسي ، لِلْمَرَّةِ اَلْحادِيةِ وَاَلْعِشْرِينَ عَلى الأَقَلِّ خِلالِ هٰذا اَلأُسْبوعِ :

« كَمْ أَتَمَنّى لَوِ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَتَزَوَّجَ بِسُرْعةٍ مِثْلَكِ . إنَّكِ لَفَتاةٌ سَعيدَةٌ حَقًّا يامِينا ، وَلَوْ لَمْ يَكُنِ اللُّورْدُ غودا لَمِيتًا وَالِدُ آرْثَر مَريضًا لَاسْتَطَعْنا — أُرْثَر وأنا — أَنْ نَتَزَوَّجَ أَيْضًا في هٰذا الصَّيْفِ . عَزيزي اَلْمِسْكينُ ، إنَّهُ لا يَسْتَطيعُ أَنْ يَبْتَعِدَ عَنِ اَلْمَنْزِلِ . »

وَلَمْ تَكُنْ لُوسي تَتَحَدَّثُ كَثيرًا عَنْ آرْثَر في أَثْناءِ اَلأَسابيعِ اَلْقَليلةِ اَلْماضِيةِ ، وَلِذٰلِكَ

سُرّتْ مِينا حِينَما سَمِعَتْها تَتَحَدَّثُ ثانِيةً ، وَتَمَنَّتْ هِيَ كَذٰلِكَ لَوْ أَنَّ آرْثَر كانَ يَمْلِكُ آلْحُرِّيَّةَ لِكَيْ يَأْتِيَ إلى هُوِيتْبِي . إنَّ لُوسِي في حاجةٍ إلى عَوْنٍ مِنْ رَجُلٍ يَقِفُ بِجانِبِها .

وَفي هٰذِهِ اللَّحْظةِ لاحَظَتْ مِينا أَنَّ هُناكَ قِطارَ بَضائِعَ يَتَحَرَّكُ بِبُطْءٍ لِيُغادِرَ آلْمَحَطَّةَ ، وَكانَتْ مُعْظَمُ أَحْمالِ آلْقِطارِ مِنَ آلسَّمَكِ آلَّذي يَنْقُلُهُ إلى لَنْدَن ، وَلٰكِنَّهُ كانَ يَحْمِلُ شَيْئًا آخَرَ كَذٰلِكَ .

صاحَتْ مِينا : « ما هٰذِهِ الصَّنادِيقُ آلْمَحْمولةُ في عَرَباتِ آلْقِطارِ آلْمَكْشُوفةِ ؟ لَقَدْ رَأَيْتُها مِنْ قَبْلُ . عَجَبًا ! مِنَ آلْمُؤَكَّدِ أَنَّها الصَّنادِيقُ آلَّتي كانَتْ في السَّفينةِ دِيمِيتِر . »

وَعادَتْ بِها آلْخَواطِرُ إلى آلْعاصِفةِ ، وَإلى السَّفينةِ ، وَإلى الرُّبّانِ آلْمَيِّتِ . كَمْ هُوَ مُؤْسِفٌ أَنْ يَموتَ رِجالٌ كَثيرُونَ في سَبيلِ إحْضارِ قَليلٍ مِنَ الصَّنادِيقِ إلى إنْجِلْترا . قالَتْ لُوسِي حِينَما مَرَّتْ بِها آلْعَرَباتُ آلْمَكْشوفةُ : « إنَّني أَشْعُرُ بِآلْبُرُودةِ . »

وَآلْواقِعُ أَنَّها بَدَتْ فَجْأَةً وَقَدْ كَساها الشُّحوبُ الشَّديدُ ، وَآنْتابَها آلْمَرَضُ . وَكانَ قِطارُ آلْبَضائِعِ قَدْ خَرَجَ مِنَ آلْمَحَطَّةِ في نَفْسِ اللَّحْظةِ الَّتي ظَهَرَ فيها آلْقِطارُ الَّذي يُقِلُّ السَّيِّدةَ وِسْتِنْرا قادِمًا ، فَقالَتْ مِينا وَقَدْ طَوَّقَتْ صَديقَتَها بِذِراعَيْها : « كُلُّ شَيْءٍ سَوْفَ يَكونُ أَحْسَنَ آلآنَ . »

تَنَفَّسَتْ لُوسِي نَفَسًا عَميقًا وَقالَتْ : « آهٍ يامِينا ! عَزيزَتي مِينا ! إنَّني آمُلُ أَنْ يَكونَ آلأَمْرُ كَذٰلِكَ . إنَّني لا أَشْعُرُ بِالسَّعادةِ الَّتي كُنْتُ أَشْعُرُ بِها مِنْ قَبْلُ . »

آلْقِسْمُ آلثّالِثُ
دُكْتور سِيوارْد

آلْفَصْلُ آلتّاسِعُ

جَلَسَ الدُّكْتور سِيوارْد يَكْتُبُ تَقارِيرَهُ آلأُسْبوعيّةَ عَنْ دارِ آلْمَجانِينِ الَّتي يَتَوَلَّى آلإِشْرافَ عَلَيْها . وَكانَ مِنْ بَيْنِ آلْحالاتِ الَّتي يُعالِجُها حالةَ رِينْفِيلْد الَّتي كانَتْ مَحَطَّ آهْتِمامِهِ ، فَهاهُنا رَجُلٌ مَوْفُورُ آلْقُوَّةِ ، في أَواسِطِ آلْعُمْرِ ، يَقْضي كُلَّ وَقْتِهِ في آلْقَبْضِ عَلى الذُّبابِ وَآلإِبْقاءِ عَلَيْهِ حَيًّا في وِعاءٍ زُجاجِيٍّ . مِثْلُ هٰذا الصَّنيعِ — عَلى آلأَقَلِّ — لَمْ يَكُنْ يُسَبِّبُ أَيَّ ضَرَرٍ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ — كَذٰلِكَ — يُمْسِكُ آلْعَناكِبَ وَيُقَدِّمُ لَها الذُّبابَ طَعامًا . وَتَطَوَّرَ

ٱلأَمْرُ فَأَصْبَحَ يُمْسِكُ زَوْجًا مِنَ الطُّيورِ الصَّغيرةِ وَيُقَدِّمُ لَها ٱلعَناكِبَ غِذاءً . وَسَأَلَ الرَّجُلُ عَمَّا إِذا كانَ مِنَ ٱلمُمْكِنِ أَنْ يَقْتَنِيَ قِطًّا صَغيرًا ، فَرَفَضَ ٱلدُّكْتور سِيوارْد طَلَبَهُ . وفي ٱليَوْمِ التّالي أَبْلَغَ مُمَرِّضُ رِينْفيلْد أَنَّ الطّائِرَيْنِ ٱخْتَفَيا ، وَأَنَّ هُناكَ دَمًا وَريشًا في أَحَدِ أَرْكانِ ٱلحُجْرةِ وَلِذٰلِكَ حَمَدَ الدُّكْتور سِيوارْد اللهَ لِأَنَّهُ لَمْ يُعْطِ رِينْفيلْد قِطًّا .

وَكانَ مِنَ ٱلواضِحِ أَنَّ رِينْفيلْد يَتْبَعُ خُطَّةً ، وَأَنَّ هٰذِهِ ٱلخُطَّةَ كانَتْ ــ بِمَنْطِقِها ٱلجُنونيِّ مَعْقولةً . فَقَدْ كانَ يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ ــ إِذْ يَلْتَهِمُ الطّائِرَيْنِ ــ فَهُوَ لا يَقْضي عَلى حَياتِهِما فَحَسْبُ ، وَإِنَّما يَقْضي في نَفْسِ ٱلوَقْتِ عَلى حَياةِ ٱلعَناكِبِ وَالذُّبابِ ، وَكُلُّ ذٰلِكَ يَبْعَثُ فيهِ شُعورًا بِالسَّطْوةِ وَٱلقُوَّةِ . وَلٰكِنَّ ٱلمَسْأَلَةَ هِيَ : ما الَّذي يُمْكِنُ أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَيْهِ كُلُّ هٰذا ؟

إِنَّ قَتْلَ ٱلعَناكِبِ وَالذُّبابِ لَيْسَ أَمْرًا ذا شَأْنٍ ، وَلٰكِنْ لِنَفْرِضْ أَنَّهُ بَدَأَ يُفَكِّرُ في ٱلقَضاءِ عَلى حَياةِ كائِناتٍ أَعْلى مِنْ هٰذِهِ ؟ إِنَّ مِثْلَ هٰذِهِ ٱلفِكْرةِ ــ إِذا تَسَلَّطَتْ عَلَيْهِ ــ قَدْ تَجْعَلُ مِنْهُ قاتِلًا . وَلَمْ تَكُنْ هٰذِهِ هِيَ ٱلمُشْكِلَةَ ٱلوَحيدةَ في حالَةِ رِينْفيلْد . فَمُنْذُ بِضْعَةِ أَيّامٍ بَدَأَتْ تَنْتابُهُ حالَةُ هِياجٍ بِدُونِ سَبَبٍ مَلْحوظٍ ، وَظَلَّ يُرَدِّدُ قَوْلَهُ : « إِنَّ السَّيِّدَ قَريبٌ » ، فَهَلْ كانَ هٰذا نَوْعًا مِنَ ٱلهَوَسِ الدِّينِيِّ يا تُرَى ؟ وإِذا صَحَّ ذٰلِكَ ، وَٱقْتَرَنَ ٱلأَمْرُ بِرَغْبَتِهِ في ٱلقَتْلِ ، فَإِنَّ ذٰلِكَ يُشيرُ إِلى حالَةٍ خَطيرةٍ .

أَزاحَ الدُّكْتور سِيوارْد السِّجِلَّ الَّذي يُدَوِّنُ فيهِ مُلاحَظاتِهِ بَعيدًا ، وَأَراحَ رَأْسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَكانَ اللَّيْلُ قَدِ ٱنْتَصَفَ ، وَغَلَبَهُ التَّعَبُ وَالإِعْياءُ . كانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَكِدُّ في عَمَلِهِ كَثيرًا ، وَلٰكِنَّ هٰذا كانَ يُساعِدُهُ عَلى التَّفْكيرِ في لُوسي .

وَعِنْدما ذَهَبَ إِلى فِراشِهِ أَخيرًا أَصابَهُ أَرَقٌ . وَكانَ لا يَزالُ مُسْتَيْقِظًا حِينَما دَخَلَ ٱلحارِسُ اللَّيْلِيُّ حُجْرَتَهُ في السّاعةِ الثّانِيةِ صَباحًا ، وَقالَ : « لَقَدْ أُرْسِلَني إِلَيْكَ ٱلمُمَرِّضُ ٱلمَنوطُ بِهِ ٱلعَمَلُ اللَّيْلَةَ لِأُبْلِغَكَ أَنَّ رِينْفيلْد قَدْ هَرَبَ . » فَارْتَدى سِيوارْد ثِيابَهُ عَلى عَجَلٍ ، وَنَزَلَ عَلى السُّلَّمِ وَثْبًا إِلى حُجْرةِ رِينْفيلْد ، وَكانَ ٱلمُمَرِّضُ قَدْ أَيْقَظَ ٱثْنَيْنِ مِنْ زُمَلائِهِ ، وَوَقَفَ الثَّلاثةُ يَنْتَظِرونَ تَوْجيهاتِ الطَّبيبِ .

وَقالَ ٱلمُمَرِّضُ شارِحًا : « لَقَدْ حَدَثَ ٱلأَمْرُ عَلى هٰذِهِ الصُّورةِ ياسَيِّدي : كُنْتُ قَدْ نَظَرْتُ مِنْ خِلالِ النّافِذةِ الَّتي في بابِهِ مُنْذُ خَمْسَ عَشْرَةَ دَقيقةً ، وَبدا لي أَنَّهُ نائِمٌ ، ثُمَّ نَظَرْتُ ثانِيةً مُنْذُ لَحَظاتٍ فَرَأَيْتُهُ يَتَسَلَّقُ إِلى خارِجِ النّافِذةِ . إِنَّهُ قَوِيٌّ جِدًّا ياسَيِّدي ، فَلَقَدْ ثَنى قُضْبانَ النّافِذةِ بِيَدَيْهِ وَفَرَّ هارِبًا ، وَأَظُنُّ أَنَّهُ ٱتَّجَهَ نَحْوَ كارْفاكْس . »

قالَ الدُّكْتور سِيوارْد : « اتْبَعوني ، فَسَوْفَ نَسْلُكُ نَفْسَ الطَّريقِ الَّذي سَلَكَهُ مِنْ خِلالِ النّافِذةِ . »

وَبَيْنَما كانَ الطَّبيبُ يَتَسَلَّقُ النّافِذةَ كانَ يَعْجَبُ مِنْ قُوَّةِ الرَّجُلِ ٱلمَجْنونِ الَّذي ٱسْتَطاعَ أَنْ يَثْنِيَ ٱلقُضْبانَ ٱلحَديدِيَّةَ ٱلغَليظةَ كَأَنَّما هِيَ أَسْلاكٌ . ما الَّذي جَعَلَهُ يَفْعَلُ ذٰلِكَ يا تُرى ؟ إِنَّهُ لَمْ يُحاوِلِ ٱلهُرُوبَ قَطُّ مِنْ قَبْلُ !

وَحِينَما أَصْبَحَ الرِّجالُ ٱلخَمْسةُ في ٱلخارِجِ جَرَوْا نَحْوَ السُّورِ ٱلمُرْتَفِعِ الَّذي يَقِفُ حاجِزًا بَيْنَ ٱلمُسْتَشْفى وَأَراضي كارْفاكْس ٱلمُشْجِرةِ الَّتي يَغْشيها الظَّلامُ ، وَتَساءَلَ الطَّبيبُ : « إِذا كانَ رِينْفيلْد يُريدُ مُجَرَّدَ الهُرُوبِ ، فَلِماذا لَمْ يَنْطَلِقْ نَحْوَ الطَّريقِ ؟ »

وَكانَ في ٱلجانِبِ ٱلآخَرِ مِنَ السُّورِ مَمَرٌّ تَكْسُوهُ ٱلأَعْشابُ الطَّويلةُ . سَلَكُوا ذٰلِكَ ٱلمَمَرَّ حَتّى لاحَ أَمامَهم في عَتْمةِ اللَّيْلِ هَيْكَلُ ٱلمَنْزِلِ وَٱلكَنيسةُ . وَلَمْ يَصْعُبْ عَلَيْهِمُ ٱلعُثورُ عَلى رِينْفيلْد الَّذي يَلْبَسُ جِلْبابَ النَّوْمِ ٱلأَبْيَض ، وَالَّذي لَمْ يَكُنْ يُحاوِلُ أَنْ يُخْفِيَ نَفْسَهُ ، وَإِنَّما كانَ مُتَشَبِّثًا بِجِسْمِهِ بِبابِ ٱلكَنيسةِ ، وَذِراعاهُ مَمْدودَتانِ إِلى أَعْلى . وَكانَ يَقولُ : « سَيِّدي ! إِنَّ خادِمَكَ هُنا ، فَمُرْهُ بِما تَرى . »

فَقالَ الطَّبيبُ : « تَمامًا كَما قَدَّرْنا . إِنَّهُ نَوْعٌ مِنَ ٱلهَوَسِ الدِّينِيِّ ، وَلَقَدْ جاءَ إِلى هُنا لِأَنَّهُ يَظُنُّ أَنَّها أَقْرَبُ كَنيسةٍ . »

وَلابُدَّ أَنَّ رِينْفيلْد سَمِعَ صَوْتَهُ ، فَقَدِ ٱلْتَفَتَ فَجْأَةً وَواجَهَهُمْ وَهُوَ يُزَمْجِرُ كَما تُزَمْجِرُ ٱلحَيواناتُ الضّارِيةُ . أَمّا الطَّبيبُ وَرِجالُهُ فَقَدْ أَحْكَموا ٱلحَلْقةَ حَوْلَهُ حَتى أَصْبَحوا عَلى مَقْرَبةٍ مِنْهُ بِحَيْثُ يَسْتَطيعُونَ ٱلإِمْساكَ بِهِ ، وَلٰكِنَّهُ أَخَذَ يُقاتِلُ قِتالَ ٱلمُسْتَميتِ . وَكانَ الرِّجالُ

ٱلخَمْسةُ أَشَدَّ قُوَّةً فَحَمَلوهُ وَعادُوا بِهِ وَهُوَ يَرْفُسُ وَيُقاوِمُ . وَكانَ هُناكَ خُفّاشٌ يَطيرُ حائِمًا بَيْنَ ٱلأَشْجارِ وَخارِجَها ، وَبَدا كَأَنَّما تَحَرُّكاتُ ٱلخُفّاشِ تُزيدُهُ ٱسْتِثارَةً وَصِياحًا ، حَتّى إِنَّ كُلَّ مَنْ في ٱلمُسْتَشْفى اسْتَيْقَظوا عَلى صَيْحاتِهِ وَصَرَخاتِهِ .

وَفي صَباحِ ٱلْيَوْمِ ٱلتّالي جاءَ زائِرٌ إِلى الدُّكْتور سيوارْد ، وَلَمْ يَكُنِ الطَّبيبُ راغِبًا في ٱسْتِقْبالِ أَيِّ زائِرٍ بَعْدَ ما حَدَثَ في اللَّيْلَةِ ٱلماضِيَةِ . وَلٰكِنَّهُ كانَ آرْثر هُولْموود وَهُوَ صَديقٌ لابُدَّ أَنْ يَراهُ . وَلَمْ يَكُنِ الشّابُّ ٱلفارِعُ ــ ٱلقَوامِ ، ٱلأَنيقُ الثِّيابِ ، ٱلبَهِيُّ ٱلمَنْظَرِ ــ سَعيدًا كَما كانَ يَبْدو عادةً ، وَإِنَّما كانَ قَلِقًا بِسَبَبِ تَدَهْوُرِ صِحَّةِ لُوسي .

قالَ آرْثر : « لَقَدْ كانَتْ تَبْدو في أَحْسَنِ حالٍ حِينَما عادَتْ مِنْ هُوِيتْبي ياجاك ، مَعَ أَنَّ مِينا مُوراي قالَتْ إِنَّها كانَتْ مَريضةً جِدًّا . »

قالَ الطَّبيبُ : « لَقَدْ كَتَبَتْ مِينا إِليَّ بِذٰلِكَ ، وَكانَ يَبْدو مِنْ رِسالَتِها أَنَّها شَديدةُ ٱلقَلَقِ عَلَيْها . »

قالَ آرْثر : « حَسَنًا ، لَقَدْ ظَنَنْتُ في ٱلبِدايَةِ أَنَّ مِينا ٱخْتَرَعَتْ قِصَّةَ مَرَضِها . وَلٰكِنْ ما إِنِ ٱنْقَضَتْ أَيّامٌ قَليلَةٌ بَعْدَ عَوْدَتِها حَتّى تَغَيَّرَتْ ، وَأَدْرَكْتُ تَمامًا ماذا كانَتْ مِينا تَقْصِدُ . إِنَّها ٱلآنَ في غايَةِ الضَّعْفِ حَتّى إِنَّها لا تَكادُ تَتَحَرَّكُ هُنا وهُناكَ إِلّا بِصُعُوبَةٍ ، ثُمَّ إِنَّها تَزْدادُ سُوءًا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ . إِنَّني لابُدَّ أَنْ أَعودَ إِلى لَنْدن ٱلْيَوْمَ ، وَلٰكِنّي أُريدُكَ أَنْ تَذْهَبَ لِتَناوُلِ ٱلغَداءِ مَعَ آلِ وِسْتِرا . وَلاحِظْ أَنَّ لُوسي لَنْ تَتَحَدَّثَ عَنْ مَرَضِها عَلى مَسْمَعٍ مِنْ أُمِّها ، وَلٰكِنْ يُمْكِنُكَ بَعْدَ ذٰلِكَ أَنْ تَجِدَ فُرْصَةً لِرُؤْيَتِها عَلى ٱنْفِرادٍ . »!

وَفي وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ مِنْ نَفْسِ الصَّباحِ ٱسْتَقَلَّ الدُّكْتور سيوارْد عَرَبَتَهُ إِلى هِيلينْغدون حَيْثُ تُقيمُ أُسْرَةُ وِسْتِرا . وَلَمْ يَكُنْ قَدْ رَأَى لُوسي مُنْذُ أَسابيعَ ، وَلَمْ يَكُنْ مُرْتاحًا إِلى رُؤْيَتِها ٱلآنَ ، وَلٰكِنَّه لَمْ يَنْسَ وَعْدَهُ أَنْ يَكونَ لَها صَديقًا .

وَحِينَما قابَلَها لاحَظَ أَنَّها شاحِبَةٌ وَلٰكِنْ مُبْتَسِمَةٌ ، عَلى ٱلأَقَلِّ ، في أَثْناءِ ٱلغَداءِ حِينَما كانَتْ أُمُّها مَعَهُما . وَلٰكِنْ بَعْدَما ذَهَبَتِ السَّيِّدَةُ وِسْتِرا لِتَسْتَريحَ تَخَلَّت لُوسي عَنِ

ٱلتَّظاهُرِ ، وَقالَتْ : « آهٍ ياجاك ! أَنا لَسْتُ عَلى ما يُرامُ ، وَكَمْ أَوَدُّ أَنْ أَكونَ عَلى ما يُرامُ . »

فَقالَ الطَّبيبُ : « تَوَدِّينَ أَنْ تَكوني عَلى ما يُرامُ مِنْ أَجْلِ آرْثر ؟ »

فَتَبَسَّمَتْ لُوسي في رِقَّةٍ وقالَتْ : « نَعَمْ ياجاك مِنْ أَجْلِ آرْثر . »

فَتَكَلَّفَ سيوارْد ٱبْتِسامَةً وَسَأَلَها : « لُوسي ، مِمَّ تَشْكينَ ؟ »

فَأَخْبَرَتْهُ أَنَّها تَشْكو مِنْ نَوْمٍ ثَقيلٍ أَشْبَهَ بِٱلمَوْتِ .. مِنْ أَحْلامٍ مُزْعِجَةٍ لا تَسْتَطيعُ أَنْ تَذْكُرَها حِينَما تَسْتَيْقِظُ .. مِنْ إِرْهاقٍ وَشُحُوبٍ .. مِنْ ضيقٍ في التَّنَفُّسِ ، وَإِحْساسٍ مُسْتَمِرٍّ بِٱلبُرودَةِ .

وَلَمّا فَحَصَها سيوارْد لَمْ يَجِدْ سَبَبًا لِهٰذِهِ ٱلأَعْراضِ ، فيما عَدا عَضَّتَيْ حَشَرَةٍ في عُنُقِها لَتَدُوانِ كَريهَتَيِ ٱلمَنْظَرِ ، كَما أَنَّ ضَغْطَ الدَّمِ كانَ مُنْخَفِضًا .

وَسَأَلَ الطَّبيبُ نَفْسَهُ : « أَتَكُونُ قَدْ فَقَدَتْ كَمِّيَّةً مِنَ الدَّمِ ؟ »

إِنَّهُ أَمْرٌ بَعيدُ ٱلاحْتِمالِ . كُلُّ ما يُمْكِنُ عَمَلُهُ هُوَ أَنْ يَأْخُذَ بَعْضًا مِنْ دَمِها وَيُرْسِلَهُ إِلى لَنْدن لِفَحْصِهِ . وَجاءَ التَّقْريرُ في اليَوْمِ التّالي مُتَضَمِّنًا أَنَّهُ لَيْسَ في دَمِها شَيْءٌ غَيْرُ طَبيعِيٍّ . وَلَعَجَّبَ سيوارْد : أَيُمْكِنُ أَنْ يَكونَ السَّبَبُ نَفْسِيًّا ؟ أَيُمْكِنُ أَنْ تَمْرَضَ بِسَبَبِ أَنَّها تَتَوَهَّمُ أَنَّها مَريضةٌ ؟

وَمَعَ ذٰلِكَ فَقَدْ كانَ يَشُكُّ في هٰذا ٱلاحْتِمالِ . كانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ هُناكَ أَمْرًا غَيْرَ عادِيٍّ في هٰذِهِ ٱلحالَةِ ، وَلَيْسَ هُناكَ إِلّا رَجُلٌ واحِدٌ يَسْتَطيعُ مُعالَجَةَ ٱلحالاتِ غَيْرِ ٱلعادِيَةِ . إِنَّهُ أُسْتاذُهُ ٱلقَديمُ وَصَديقُهُ فان هِيلْسِينْغ في أَمْسْتَرْدام . عَلى أَيِّ حالٍ ، فَإِنَّ ٱلأَمْرَ يَبْدو خَطيرًا ، وَمِنْ أَجْلِ لُوسي لابُدَّ أَنْ يَبْذُلَ كُلَّ مُحاوَلَةٍ مُمْكِنَةٍ . نَعَمْ سَوْفَ يَسْتَدْعي فان هِيلْسِينْغ .

اَلْفَصْلُ الْعاشِرُ

وَصَلَ اَلْبُروفِيسور أَبْراهام فان هِيلْسِينْغ إلى هِيلِينْغدون بَعْدَ ثَلاثةِ أَيّامٍ ، وَأَقامَ فيها فَتْرةً كافِيةً لِفَحْصِ لُوسي الَّتي كانَ يَراها بِمُفْرَدِها ، ثُمَّ عادَ بَعْدَ ذٰلِكَ مُباشرةً إلى أَمِسْتَرْدام . وَلَمْ يَقُلِ اَلْبُروفِيسور كَثيرًا بَعْدَ فَحْصِها ، وَلٰكِنَّ سِيوارْد أَحسَّ أَنَّهُ لَمْ يُضَيِّعْ وَقْتَ الرَّجُلِ اَلْعَظيمِ هَباءً ، فَقَدْ أَثارَتِ اَلْحالَةُ اِهْتِمامَهُ ، وَطَلَبَ أَنْ يُوافى بِتَقارِيرَ يَوْمِيّةٍ عَنْ حالةِ لُوسي .

وَفي اَلْيَوْمِ التّالي بَدا أَنَّ لُوسي في تَحَسُّنٍ . لَقَدْ كانَ فان هِيلْسِينْغ رَقيقًا مَعَها ، وَقَدْ وَضَعَتْ فِيهِ ثِقَتَها . وَاَلْواقِعُ أَنَّ الرَّجُلَ كانَ مُحَبَّبًا إلى الشّابّاتِ الصَّغيراتِ . وَبَعْدَ ذٰلِكَ بِيَوْمٍ اِسْتَطاعَ الدُّكْتور سِيوارْد أَنْ يَبْعَثَ إلَيْهِ بِتَقْريرٍ يَتَضَمَّنُ مَزيدًا مِنَ التَّحَسُّنِ في حالَتِها ، كَما لَوْ كانَتِ السَّحابَةُ اَلْقاتِمَةُ اَلْمُخَيِّمَةُ عَلَيْها قَدْ بَدَأَتْ تَنْقَشِعُ وَتَزولُ .

وَلٰكِنْ إذا كانَتْ لُوسي قَدْ بَدَأَتْ تَتَحَسَّنُ ، فَإِنَّ رِينْفِيلْد لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ ، فَمُنْذُ حادِثِ هُرُوبِهِ اِنْخَفَضَتْ مَعْنَوِيّاتُهُ إلى حَدٍّ كَبيرٍ ، فَقَدْ كانَ يَنْزَوي في رُكْنٍ كَتِمْثالٍ بِلا حَياةٍ ، وَلَمْ يَكُنْ يَتَحَدَّثُ إلّا قَليلًا . وَلَقَدْ حاوَلَ الدُّكْتور سِيوارْد أَنْ يَحْفِزَهُ أَحْيانًا لِكَيْ يَتَكَلَّمَ ، وَلٰكِنْ كانَ كُلُّ ما يَقُولُهُ هُوَ : « لَقَدْ تَرَكَني ! لَيْسَ هُناكَ أَمَلٌ لي ! لَقَدْ تَرَكَني . »

وَفي اَلْيَوْمِ التّالِثِ لِزِيارَةِ هِيلْسِينْغ عاوَدَ اَلْمَرَضُ لُوسي وَاشْتَدَّ بِها حَتّى إنَّ سِيوارْد بَعَثَ بِبَرْقِيَّةٍ إلَيْهِ يَطْلُبُ فيها أَنْ يَأْتِيَ عَلى اَلْفَوْرِ . وَاِسْتَجابَ اَلْبُروفِيسور وَوَصَلَ في اَلْمَساءِ التّالي حَيْثُ قادَهُ سِيوارْد إلى حُجْرَةِ لُوسي بِالطّابَقِ اَلْعُلْوِيِّ . وَكانَتْ تَبْدو في حالةٍ سَيِّئةٍ لَمْ تُعْهَدْ مِنْ قَبْلُ . كانَتْ شَديدَةَ الشُّحوبِ ، حَتّى إنَّ شَفَتَيْها وَحَلْقَها لَمْ يَعُدْ لَهُما لَوْنٌ . كانَتْ تَتَنَفَّسُ بِطَريقةٍ تُثيرُ اَلْأَسى وَالْأَلَمَ فِيمَنْ يَراها أَوْ يَسْمَعُها ، بَلْ إنَّها بَدَتْ وَكَأَنَّها تَكادُ تَفْقِدُ اَلْقُدْرةَ عَلى اَلْكَلامِ . وَقَدْ فَحَصَها فان هِيلْسِينْغ وَهُوَ صامِتٌ ، ثُمَّ خَرَجَ مِنَ اَلْحُجْرةِ يَتْبَعُهُ سِيوارْد . وَكانَ يُوشِكُ أَنْ يَبْدَأَ حَديثَهُ حِينَما طَرَقَ أَسْماعَهُما صَوْتٌ مُضْطَرِبٌ . وَإِذا بِآرْثَر هُولْمووُد يَصْعَدُ السُّلَّمَ وَثْبًا ، وَبادَرَ يَقولُ : « لَقَدْ عَجِلْتُ بِالْحُضُورِ قَدْرَ ما اِسْتَطَعْتُ ، وَمَبْلَغُ عِلْمي أَنَّها أَسْوَأُ حالًا ! »

فَأَجابَ فان هِيلْسِينْغ : « إنَّها تُواجِهُ أَعْظَمَ خَطَرٍ أَيُّها الشّابُّ . »

فَصاحَ آرْثَر : « خَطَرٌ ؟ وَلٰكِنْ ماذا بِوُسْعِنا أَنْ نَفْعَلَهُ ؟ إنَّني عَلى اِسْتِعْدادٍ لِتَقْديمِ آخِرِ قَطْرةٍ مِنْ دَمي لِإِنْقاذِها . »

فَقالَ اَلْبُروفِيسور : « أَيُّها السَّيِّدُ اَلْعَزيزُ ، أَنا لا أَسْأَلُكَ أَنْ تُقَدِّمَ مِثْلَ هٰذا اَلْقَدْرِ . لَيْسَ آخِرَ قَطْرةٍ مِنْ دَمِكَ ، وَلٰكِنْ ثِقْ أَنَّ الدَّمَ هُوَ الشَّيْءُ الَّذي تَحْتاجُ إلَيْهِ فِعْلًا . إنَّ ما في جَسَدِها مِنْ دَمٍ لا يَكادُ يَكْفي لِكَيْ يَظَلَّ قَلْبُها نابِضًا . إنَّ دَمَ شابٍّ مُعافًى مِثْلِكَ هُوَ الَّذي تَحْتاجُ إلَيْهِ . أَرْجوكَ ياسَيِّدُ هُولْمووُد — وَأَظُنُّ أَنَّكَ السَّيِّدُ هُولْمووُد — أَنْ تَخْلَعَ سُتْرَتَكَ فَوْرًا . لابُدَّ أَنْ تَقُومَ مُباشَرةً بِعَمَلِيةِ نَقْلِ دَمٍ يادُكْتور سِيوارْد . »

خَلَعَ آرْثَر سُتْرَتَهُ دُونَ أَنْ يَفُوهَ بِكَلِمةٍ ، وَبَدَأَ يَثْني كُمَّ قَميصِهِ ، وَكانَتْ لُوسي اَلْمِسْكينةُ قَدْ بَلَغَ مِنْها اَلْمَرَضُ حدًّا لَمْ تَعُدْ تَشْعُرُ مَعَهُ بِالْفُتْحةِ الَّتي أَحْدَثَها الطَّبيبانِ في ذِراعِها لِنَقْلِ الدَّمِ إلَيْها . وَلٰكِنْ بَعْدَ مُضيِّ عَشْرِ دَقائِقَ بَدَأَ الدَّمُ يَتَدَفَّقُ مِنْ ذِراعِ آرْثَر إلَيْها فَيُعيدُ اللَّوْنَ إلى وَجْهِها الشّاحِبِ ، وَبَدَأَ تَنَفُّسُها يَنْتَظِمُ ، وَقالَ اَلْبُروفِيسور : « وَالْآنَ ، سَنَتْرُكُ اَلْآنِسةَ لُوسي لِتَنامَ ، وَسَوْفَ أَعودُ غَدًا لِأَراها . وَلٰكِنَّ أَمامَنا شَيْئًا آخَرَ لابُدَّ أَنْ نَفْعَلَهُ قَبْلَ أَنْ نَنْصَرِفَ . »

وَنَزَلَ اَلْبُروفِيسور إلى الطّابَقِ السُّفْلِيِّ ثُمَّ عادَ وَمَعَهُ صُنْدُوقٌ ، فَوَضَعَهُ فَوْقَ سَريرِ لُوسي وَقالَ لَها مُبْتَسِمًا : « هَيّا اِفْتَحيهِ . »

فَتَحَتْ لُوسي الصُّنْدوقَ ، وَقالَتْ وَهِيَ تَمُدُّ يَدَها لِتُخْرِجَ مِنْهُ بَعْضَ اَلْأَزْهارِ الصَّغيرةِ اَلْبَيْضاءِ : « أَهٰذِهِ لي ؟ آهٍ يادُكْتور فان هِيلْسِينْغ ! يالَكَ مِنْ عَطوفٍ ! »

فَرَدَّ الطَّبيبُ : « نَعَمْ ياعَزيزَتي ، إنَّها لَكِ . وَلٰكِنَّها مِنْ أَجْلِ مَرَضِكِ وَلَيْسَتْ مِنْ أَجْلِ الاِسْتِمْتاعِ بِها . شُمّيها . »

فَرَفَعَتْ لُوسي اَلْأَزْهارَ إلى أَنْفِها ، وَلَمْ تَكَدْ تَشُمُّها حَتّى صاحَتْ : « أُفٍّ ! إنَّها أَزْهارُ الثُّومِ . إنَّها مِنَ الثُّومِ اَلْعادِيِّ . أَهِيَ دُعابةٌ يابْروفِيسور ؟ »

وَأُخِذَتْ سِيوارْد الدَّهْشَةُ حِينَ رَأَى أَنَّ فَان هِيلْسِينْغ لَمْ يَضْحَكْ ، بَلْ عَلَى الْعَكْسِ بَدا وَجْهُهُ جادًّا رَزِينًا بِصُورَةٍ لَمْ يَعْهَدْها مِنْ قَبْلُ ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى يَدِ لُوسي وَقالَ : « إِنَّها لَيْسَتْ دُعابَةً . هُناكَ سَبَبٌ وَراءَ كُلِّ ما أَفْعَلُهُ ، وَأَنا أُحَذِّرُكِ : لا تَعْصي لِي أَمْرًا أَطْلُبُهُ مِنْكِ وَإِلَّا فَإِنَّكِ سَوْفَ تُعَرِّضينَ نَفْسَكِ لِخَطَرِ الْمَوْتِ . نَعَمْ ! بَلْ لِما هُوَ أَسْوَأُ . »

وَلَمّا لاحَظَ أَنَّهُ قَدْ أَفْزَعَها بِكَلامِهِ اسْتَمَرَّ يَقولُ بِصَوْتٍ أَرَقَّ : « لا تَخافي ! إِنَّما أُحاوِلُ أَنْ أُساعِدَكِ . إِنَّ لِهٰذِهِ الْأَزْهارِ الْعادِيَةِ قُوَّةً كُبْرى . » وَكانَ الَّذي فَعَلَهُ الْبُروفِيسور بَعْدَ ذٰلِكَ مِمّا لا يُوجَدُ في أَيِّ كِتابٍ مِنْ كُتُبِ الطِّبِّ الَّتي قَرَأَها سِيوارْد . فَقَدْ بَدَأَ بِإِغْلاقِ جَميعِ النَّوافِذِ ثُمَّ أَخَذَ بَعْدَ ذٰلِكَ حُفْنَةً مِنَ الْأَزْهارِ وَمَسَحَ بِها النَّوافِذَ وَالْأَبْوابَ وَالْمِدْفَأَةَ مَسْحًا شامِلًا .

قالَ سِيوارْد : « وَالْآنَ يا بُروفِيسور ، أَنا أَعْلَمُ أَنَّكَ لا تَفْعَلُ شَيْئًا عَلَى الْإِطْلاقِ إِلّا لِسَبَبٍ مُعَيَّنٍ ، وَلَعَلَّ مِنْ دَواعي سُرُورِي أَنَّهُ لَيْسَ مَعَنا الْآنَ طَبيبٌ آخَرُ لِيَرَى ما تَفْعَلُهُ . وَلَوْ أَنَّ مَعَنا طَبيبًا آخَرَ لَقالَ إِنَّكَ اعْتَزَلْتَ مِهْنَةَ الطِّبِّ وَأَصْبَحْتَ ساحِرًا . إِنَّكَ تَبْدو كَما لَوْ كُنْتَ تُحاوِلُ أَنْ تَطْرُدَ رُوحًا شِرِّيرَةً . »

فَأَجابَ فَان هِيلْسِينْغ في هُدُوءٍ : « لَعَلِّي أَفْعَلُ ذٰلِكَ . »

قالَ ذٰلِكَ وَهُوَ يُشَكِّلُ مِنْ بَقِيَّةِ الْأَزْهارِ عِقْدًا ، ثُمَّ طَوَّقَ بِهِ عُنُقَ لُوسي قائِلًا : « مَهْما يَكُنْ ما تَفْعَلينَهُ اللَّيْلَةَ فَلا تَفْتَحي النَّوافِذَ أَوِ الْأَبْوابَ وَلا تَنْزِعي عِقْدَ الْأَزْهارِ مِنْ حَوْلِ عُنُقِكِ . إِنَّها مَسْأَلَةُ حَياةٍ أَوْ مَوْتٍ ! »

وَفي الْيَوْمِ التّالي وَصَلَ فَان هِيلْسِينْغ إِلى الْمُسْتَشْفَى في السّاعَةِ الثّانِيَةِ لِكَيْ يَصْحَبَ دُكْتور سِيوارْد إِلى مَنْزِلِ وِسْتِنْرا ، حَيْثُ اسْتَقْبَلَتْهُما السَّيِّدَةُ وِسْتِنْرا . قالَتِ السَّيِّدَةُ : « آمُلُ أَنْ تَجِدَ لُوسي أَحْسَنَ حالًا . لَقَدْ تَطَلَّعْتُ الْآنَ إِلى حُجْرَتِها فَوَجَدْتُ أَنَّها نائِمَةٌ نَوْمًا هادِئًا ، وَلِذٰلِكَ لَمْ أَشَأْ أَنْ أُوقِظَها . »

فَقالَ الْبُروفِيسور وَقَدْ بَدا عَلَيْهِ السُّرورُ : « إِذًا فَعِلاجي يَسيرُ سَيْرًا مُرْضِيًا . »

فَرَدَّتِ السَّيِّدةُ وِسْتِرْا وَهِيَ تَبْتَسِمُ : « لَعَلَّهُ عِلاجي أنا . لَقَدْ ذَهَبْتُ إلى حُجْرتِها في اللَّيْلةِ الماضيةِ قَبْلَ أنْ أذْهَبَ لِلنَّوْمِ فَوَجَدْتُها تَنامُ في هُدُوءٍ . وَلٰكِنْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ هَواءٌ نَقِيٌّ في الحُجْرةِ ، وَكانَتْ تَنْتَشِرُ فيها رائِحةٌ نَفّاذةٌ مُنْبَعِثةٌ مِنْ بَعْضِ أزْهارٍ حَوْلَ عُنُقِها ، فَفَكَّرْتُ أنَّ ذٰلِكَ سَوْفَ يَضُرُّ بِالطِّفْلةِ المِسْكينةِ وَهِيَ في هٰذِهِ الحالِ مِنَ الضَّعْفِ ، لِذٰلِكَ اسْتَبْعَدْتُ الأزْهارَ وَفَتَحْتُ النّافِذةَ قَليلًا . أعْتَقِدُ أنَّكَ سَوْفَ تُسَرُّ حِينَ تَراها . أنا واثِقةٌ . »

وَما إنْ سَمِعَ قانْ هِيلْسِينْغ قَوْلَها حَتّى اكْتَسى وَجْهُهُ بِشُحوبٍ كَشُحوبِ المَوْتى ، وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ، وَلٰكِنَّ سِيوارْد لاحَظَ أنَّ الرَّجُلَ يُحاوِلُ أنْ يُخْفِيَ مَشاعِرَهُ . كانَ البُروفِيسور عَلى عِلْمٍ بِالحالِ الصِّحِّيّةِ لِلسَّيِّدةِ وِسْتِرْا ، وَيَعْلَمُ الخَطَرَ الَّذي يَتَهَدَّدُها إذا فُوجِئَتْ بِما يَصْدِمُها . وَلٰكِنْ ما إنْ غادَرَتِ الحُجْرةَ حَتّى صَعِدا السُّلَّمَ وَثَبًا إلى حُجْرةِ لُوسي . وَبَيْنَما كانَ دُكْتور سِيوارْد يُزيحُ السَّتائِرَ كانَ قانْ هِيلْسِينْغ يَنْحَني فَوْقَ لُوسي الَّتي كانَتْ لا تَزالُ نائِمةً . قالَ البُروفِيسور وَهُوَ يَنْظُرُ إلى وَجْهِها الشّاحِبِ :

« هٰذا ما كُنْتُ أخْشاهُ . وَلٰكِنَّها ، عَلى الأقَلِّ ، لَمْ تَفْقِدِ الكَثيرَ في هٰذِهِ المَرّةِ . جاك ، إنَّني مُضْطَرٌّ إلى العَوْدةِ إلى أمِسْتَردام اليَوْمَ . وَعَلَيْكَ أنْ تَنام في هٰذا المَنْزِلِ كُلَّ لَيْلةٍ ، وَسَوْفَ أبْعَثُ بِصَناديقَ مِنْ أزْهارِ الثُّومِ الطّازَجةِ كُلَّ يَوْمٍ ، فَافْعَلْ كَما فَعَلْتُ أنا في اللَّيْلةِ الماضيةِ تَمامًا . سَوْفَ أعودُ بَعْدَ أرْبَعةِ أيّامٍ أوْ قَبْلَ ذٰلِكَ إذا دَعَتِ الحالُ ، فَقُمْ عَلى حِراسَتِها بِعِنايةٍ . »

فَسَألَ سِيوارْد : « عَلى حِراسَتِها ؟ أحْرُسُها مِنْ ماذا ؟ أوْ مِمَّنْ ؟ »

قالَ ذٰلِكَ وَهُوَ يَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنَ الخَوْفِ وَعَدَمِ الاطْمِئْنانِ ، فَقالَ البُروفِيسور : « الأحْسَنُ ياجاك أنْ تَقولَ مِمَّنْ . لَقَدْ كُنْتَ دائِمًا طالِبًا حاضِرَ البَديهةِ وَلٰكِنَّ أمامَكَ الكَثيرَ مِمّا تَتَعَلَّمُهُ . »

قالَ هٰذا ثُمَّ ذَهَبَ .

اَلْفَصْلُ الحادي عَشَرَ

كانَتِ الأيّامُ القَليلةُ التّالِيةُ قاسِيةً بِالنِّسْبةِ لِلدُّكْتور جاك سِيوارْد . كانَ يَقْضي وَقْتَهُ بَيْنَ المُسْتَشْفى نَهارًا وَهِيلِينْغدون لَيْلًا ، وَلَقَدْ كانَ مِنَ المُمْكِنِ أنْ تَكونَ المُهِمّةُ أيْسَرَ لَوْ أنَّه كانَ يَعْلَمُ مِمَّ يَحْرُسُ لُوسي ، وَلٰكِنَّ قانْ هِيلْسِينْغ لَمْ يَذْكُرْ لَهُ ما يُوَضِّحُ الأمْرَ .

وَفي صَبيحَةِ كُلِّ يَوْمٍ كانَ صُنْدوقٌ مِنْ زُهورِ الثُّومِ الطّازَجةِ يَصِلُ مِنْ هولَنْده في بَريدٍ خاصٍّ ، وَكانَ سِيوارْد يَفْعَلُ بِها مِثْلَما فَعَلَ البُروفِيسور في أوَّلِ لَيْلةٍ تَمامًا . وَلَمْ يَكُنْ مَيّالًا إلى هٰذِهِ العَمَلِيّةِ ؛ إذْ كانَتْ تَبْدو غَيْرَ قائِمةٍ عَلى أساسٍ عِلْميٍّ . وَكانَ الدُّكْتور سِيوارْد مِنَ الأطِبّاءِ الَّذين يَلْتَزِمونَ بِالعِلْمِ ، وَلٰكِنَّ الظَّواهِرَ كانَتْ تَدُلُّ عَلى أنَّ العَمَلِيّةَ مُجْدِيةٌ ، فَقَدْ أخَذَ وَجْهُ لُوسي يَسْتَرِدُّ لَوْنَه الطَّبيعيَّ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، بَلْ إنَّ الجُرْحَيْنِ الصَّغيرَيْنِ اللَّذَيْنِ في عُنُقِها أخَذا يَلْتَئِمانِ . وَلٰكِنَّ اللَّيالي كانَتْ مُرْهِقةً لَهُ ، فَقَدِ اسْتَيْقَظَ عِدّةَ مَرّاتٍ عَلى أصْواتٍ غَريبةٍ كانَ يَبْدو أنَّها آتِيةٌ مِنْ خارِجِ نافِذةِ لُوسي ، وَفي أوَّلِ الأمْرِ كانَ يَظُنُّ أنَّهُ غُصْنُ شَجَرةٍ يَحْتَكُّ بِالنّافِذةِ بِسَبَبِ الرِّيحِ ، وَلٰكِنَّهُ في اللَّيْلةِ التّالِيةِ تَأكَّدَ أنَّه لا تُوجَدُ شَجَرةٌ ، وَكانَ الصَّوْتُ يَبْدو في بَعْضِ اللَّيالي أشْبَهَ بِرَفْرفةِ أجْنِحةٍ .

وَكَذٰلِكَ كانَ رِينْفيلْد سَبَبًا في بَعْضِ المَتاعِبِ ، فَفي أحَدِ الأيّامِ جاءَ في تَقْريرِ دُكْتور هِينسي مُساعِدِ الدُّكْتور سِيوارْد أنَّ رِينْفيلْد قَدْ هاجَمَ رَجُلَيْنِ عَلى حِينِ غَفْلةٍ . كانَ يَسيرُ في الحَديقةِ مَعَ المُمَرِّضِ المُكَلَّفِ بِرِعايَتِهِ حِينَما لَمَحَ هٰذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ يَسُوقانِ عَرَبةً في الطَّريقِ القادِمِ مِنْ كارْفاكْس فَانْقَضَّ عَلَيْهِما ، وَتَدَخَّلَ المُمَرِّضُ بِسُرْعةٍ وَجَذَبَ رِينْفيلْد بَعيدًا عَنِ الرَّجُلَيْنِ . وَرَأى الدُّكْتور هِينسي أنَّهُ قَدْ يَكونُ مِنَ الحِكْمةِ أنْ يَمْنَحَ الرَّجُلَيْنِ بَعْضَ النُّقودِ ، وَأنْ يَحْتَفِظَ بِأسْمَيْهِما مِنْ قَبيلِ الاحْتِياطِ فيما لَوْ حَدَثَتْ فيما بَعْدُ أيَّةُ مُشْكِلةٍ . وَفي وَقْتٍ مُبَكِّرٍ مِنْ إحْدى اللَّيالي كانَ سِيوارْد يَجْلِسُ في مَكْتَبِهِ يُلْقي نَظْرةً عَلى صَحيفةِ المَساءِ قَبْلَ أنْ يَذْهَبَ إلى هِيلِينْغدون كَعادَتِهِ . كانَ يَقْرأُ في الصَّحيفةِ قِصَّةَ ذِئْبٍ كانَ قَدْ هَرَبَ تَوًّا مِنْ حَديقةِ الحَيَوانِ بِلَنْدَن ، وَكانَ النُّعاسُ يَكادُ يَغْلِبُهُ بِسَبَبِ الإرْهاقِ الَّذي حَلَّ بِهِ مِنْ كِتابةِ التَّقاريرِ ، وَلِذٰلِكَ بَدا كَأنَّما يَرى في المَنامِ الذِّئْبَ يَقْتَحِمُ الحُجْرةَ . وَفَجْأةً

فُتِحَ ٱلبابُ ، وَحَدَثَ اقْتِحامٌ فِعْلًا ــ فِي ٱلحَقيقةِ لا فِي ٱلـمَنامِ ــ لَـمْ يَكُنِ ٱلـمُقْتَحِمُ ذِئْبًا ، وَإِنَّمَا كانَ رِينْفِيلْد وَهُوَ يَبْدو فِي ضَراوةِ الذِّئْبِ ، وَفِي يَدِهِ شَيْءٌ يَلْـمَعُ . وَصاحَ سِيوارْد : « آهِ يا إِلٰهِي ! »

لَقَدْ كانَ رِينْفِيلْد يُمْسِكُ فِي يَدِهِ بِسِكِّينِ مَطْبَخٍ . وَحاوَلَ سِيوارْد أَنْ يَجْعَلَ ٱلـمِنْضَدَةَ حائِلًا بَيْنَهُما ، وَلٰكِنَّ رِينْفِيلْد كانَ أَسْرَعَ فَوَجَّه ضَرْبَةً إِلى ذِراعِهِ ٱليُسْرَى ، فَبادَرَ سِيوارْد وَٱلْتَقَطَ بِيُمناهُ ٱلحَجَرَ الثَّقيلَ ، الَّذي يُثَبِّتُ بِهِ ٱلأَوْراقَ ، مِنْ فَوْقِ ٱلـمَكْتَبِ وَبادَرَهُ بِضَرْبَةٍ بِهِ طَرَحَتْهُ أَرْضًا ، فَتَمَدَّدَ الرَّجُلُ وَوَجْهُهُ إِلى ٱلأَرْضِ بَعْدَ أَنْ طارَ السِّكِّينُ مِنْ يَدِهِ ، وَهٰكَذا ذَهَبَتْ لَحْظَةُ ٱلخَطَرِ . وَبَيْنَما كانَ سِيوارْد واقِفًا فِي ذُهولٍ مِمّا حَدَثَ ، قابِضًا ذِراعَهُ ٱلـمَجْروحَةَ ، سَمِعَ وَقْعَ أَقْدامِ رِجالِهِ وَهُمْ يَجْرُونَ فِي الدِّهْليزِ . كانَ يَشْعُرُ بِٱلأَلَـمِ ، وَالدِّماءُ تَنْزِفُ مِنْ جُرْحِهِ عَلى ٱلأَرْضِ حَيْثُ يَرْقُدُ رِينْفِيلْد .

وَحِينَما دَخَلَ ٱلحُرّاسُ ٱلحُجْرَةَ رَفَعَ رِينْفِيلْد رَأْسَهُ فَكَشَفَ فَمَهُ ٱلـمُلَطَّخَ بِالدَّمِ ، إِذْ كانَ يَشْرَبُ ــ وَهُوَ مُلْقًى عَلى ٱلأَرْضِ ــ مِنْ دِماءِ الطَّبِيبِ الَّتي كانَتْ تَقْطُرُ فَوْقَ أَرْضِيَّةِ ٱلحُجْرَةِ . وَبَيْنَما كانُوا يَقودُونَهُ بَعيدًا كانَ يَصْرُخُ قائِلًا : « الدَّمُ هُوَ ٱلحَياةُ . »

وَغَشِيَ سِيوارْد إِحْساسٌ بِٱلغَثَيانِ ، وَٱمْتَدَّتِ ٱلأَيْدي إِلَيْهِ لِتَحولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السُّقوطِ ، ثُمَّ غابَ عَنِ ٱلوَعْيِ فَلَـمْ يَذْكُرْ شَيْئًا .

حِينَما تَنَبَّهَ سِيوارْد كانَ يَجْلِسُ فِي سَريرِهِ وَهُوَ يَشْعُرُ بِالضَّعْفِ وَٱلوَهْنِ . وَلَعَلَّهُ فَقَدَ مِنَ الدِّماءِ أَكْثَرَ مِمّا كانَ يَعْتَقِدُ ، وَلَـمّا نَظَرَ فِي ساعَتِهِ وَجَدَ أَنَّها ٱلعاشِرَةُ ، وَهُوَ ٱلوَقْتُ الَّذي كانَ يَنْبَغي أَنْ يَكونَ فِيهِ فِي هِيلِينْغدون ، وَلٰكِنْ هَلْ عافِيَتُهُ تَسْمَحُ لَهُ بِالذَّهابِ ؟ وَدَخَلَ الدُّكْتور هِينِسي ٱلحُجْرَةَ وَقالَ :

« هِيلِينْغدون ؟ مُسْتَحيلٌ ياعَزيزي سِيوارْد . إِنَّهُ واجِبي الَّذي لا مِراءَ فِيهِ ــ كَطَبِيبٍ ــ أَنْ أُخْبِرَكَ بِضَرورَةِ ٱلبَقاءِ فِي ٱلفِراشِ . »

وَأَخيرًا اتُّفِقَ أَنْ يَذْهَبَ ٱلدُّكْتور هِينِسي بِنَفْسِهِ إِلى هِيلِينْغدون ، قَبْلَ أَنْ يَنامَ ، لِيَزورَ مَنْزِلَ وِسْتِنْرا .

كانَ لابُدَّ أَنْ يَقْضِيَ شَخْصٌ مّا اللَّيْلَ هُناكَ . وَلٰكِنَّ سِيوارْد لَـمْ يَكُنْ يُريدُ أَنْ يَعْرِفَ هِينِسي ٱلكَثيرَ عَنْ حالَةِ لُوسي ، إِذْ إِنَّ ٱلبُروفِيسور كانَ قَدْ أَعْطَى تَعْليماتِهِ حِينَ قالَ : « الَّذي حَدَثَ فِي هِيلِينْغدون يَجِبُ أَنْ يَبْقى سِرًّا لا يُذاعُ . » وَفَوْقَ هٰذا ، فَإِنَّ سِيوارْد لَـمْ يَشَأْ أَنْ يَعْرِفَ ٱلأَطِبّاءُ ٱلآخَرونَ شَيْئًا عَنْ هٰذا « السِّحْرِ » الَّذي يُمارَسُ عَنْ طَريقِ « زُهورِ النُّوم » . وَلِذٰلِكَ ، وَرَغْبَةً فِي ٱلتَّسَتُّرِ طَلَبَ ٱلدُّكْتور هِينِسي أَنْ يُخْبِرَ لُوسي بِأَنْ تَقومَ بِعَمَلِ ٱلإِجْراءاتِ ٱلـمَعْهودةِ ، عَلى أَمَلِ أَنْ تَفْهَمَ هِيَ ما يُريدُ .

لَـمْ يَنَمْ سِيوارْد فِي هٰذِهِ اللَّيْلَةِ نَوْمًا مُريحًا بِذِراعِهِ ٱلـمَجْروحَةِ ، وَحِينَما أَدْرَكَهُ النُّعاسُ أَخيرًا لَـمْ يَهْنَأْ بِالرّاحَةِ إِلّا قَليلًا ، إِذْ إِنَّ بَرْقِيَّةً وَصَلَتْ فِي ساعَةٍ مُبَكِّرَةٍ . وَقالَ الصَّبِيُّ الَّذي حَمَلَها إِنَّ ٱلبَرْقِيَّةَ كانَ يَنْبَغي أَنْ تُسَلَّـمَ فِي مَساءِ ٱليَوْمِ السّابِقِ لَوْلا أَنَّها أُرْسِلَتْ خَطَأً إِلى قَرْيَةٍ أُخْرى تَحْمِلُ نَفْسَ ٱلِاسْمِ . وَجاءَ فِي ٱلبَرْقِيَّةِ :

« اِحْرِصْ عَلى وُجودِكَ فِي هِيلِينْغدون اللَّيْلَةَ . إِنَّ ٱلأَمْرَ فِي غايَةِ ٱلأَهَمِّيَّةِ . سَوْفَ أَصِلُ مُبَكِّرًا فِي صَباحِ التّاسِعَ عَشَرَ . »

قان هِيلْسِينْغ

وَصاحَ سِيوارْد : « يالَلسَّماءِ ! إِنَّهُ يَقْصِدُ اللَّيْلَةَ ٱلـماضِيَةَ . تُرى ماذا كانَ قان هِيلْسِينْغ يَعْني ؟ » وَلَـمْ يَنْتَظِرْ لِتَناوُلِ ٱلإِفْطارِ ، وَإِنَّما ٱسْتَقَلَّ ٱلعَرَبَةَ مُباشَرَةً إِلى هِيلِينْغدون . وَكانَ ٱلوَقْتُ لا يَزالُ مُبَكِّرًا ، وَلَـمْ يَشَأْ أَنْ يُوقِظَ لُوسي أَوْ والِدَتَها ، وَلِذٰلِكَ دَقَّ ٱلجَرَسَ بِرِفْقٍ لَعَلَّ إِحْدَى ٱلخادِماتِ تَسْمَعُهُ فَتَفْتَحَ لَهُ ٱلبابَ ، وَلٰكِنْ لَـمْ تَكُنْ هُناكَ ٱسْتِجابَةٌ ، فَدَقَّ ٱلجَرَسَ مَرَّةً ثانِيَةً دُونَ جَدْوَى . فَدَسَّ أُذُنَهُ فِي صُنْدُوقِ ٱلخِطاباتِ لَعَلَّهُ يَسْمَعُ أَوْ يَرَى شَيْئًا ، وَلٰكِنَّ كُلَّ شَيْءٍ كانَ فِي صَمْتِ ٱلقُبورِ . فَأَحَسَّ فِي قَرارَةِ نَفْسِهِ أَنَّ أَمْرًا سَيِّئًا قَدْ حَدَثَ ، وَأَخَذَ يَدورُ حَوْلَ ٱلمَنْزِلِ لَعَلَّهُ يَجِدُ نافِذَةً مَفْتوحَةً . وَلٰكِنَّ تَعْليماتِ قان هِيلْسِينْغ كانَتْ تُنَفَّذُ بِدِقَّةٍ ، وَكُلُّ ٱلـمَنافِذِ كانَتْ مُوصَدَةً بِعِنايَةٍ وَإِحْكامٍ . وَمازالَ حَتّى وَصَلَ إِلى حُجْرَةِ السَّيِّدَةِ وِسْتِنْرا الَّتي اخْتيرَتْ لِتَكون فِي الطّابَقِ ٱلأَرْضِيِّ لِكَيْ تَتَجَنَّبَ صُعودَ السُّلَّمِ لِمَرَضِها . وَفُوجِئَ بِأَنَّ نافِذَةَ ٱلحُجْرَةِ مُحَطَّمَةٌ ، وَأَنَّ فَوْقَ زُجاجِها بَعْضَ فَطَراتٍ مِنَ

الدَّمِ ، وَأَنَّ هُناكَ آثارَ أَقْدامِ حَيَوانٍ في حَوضِ الزُّهورِ الَّذي يَقَعُ تَحْتَ النّافِذَةِ ، وَمِنَ المُحْتَمَلِ أَنْ تَكونَ آثارَ أَقْدامِ كَلْبٍ ، أَوْ لَعَلَّها ــ وَإِنْ بَدَتِ الفِكْرَةُ سَخيفَةً ــ آثارُ أَقْدامِ ذِئْبٍ .

وَأَخَذَ سيوارْد يَتَطَلَّعُ فيما حَوْلَهُ . وَكانَ الهُدوءُ يَسودُ المَنْزِلَ وَالحَديقَةَ بِطَريقَةٍ غَيْرِ عادِيَّةٍ . وَانْحَنى لِكَيْ يَتَأَمَّلَ في آثارِ الأَقْدامِ بِعِنايَةٍ أَكْثَرَ ، وَإِذا بِهِ يَسْمَعُ في نَفْسِ اللَّحْظَةِ صَوْتًا يَجيءُ مِنْ خَلْفِهِ ، فَهَبَّ واقِفًا ، مُتَأَهِّبًا لِلدِّفاعِ عَنْ نَفْسِهِ ، فَلَمْ يَجِدْ أَمامَهُ إِلّا فان هيلْسينْغ ، فَقَصَّ عَلَيْهِ في عِباراتٍ مُوجَزَةٍ ما حَدَثَ بِشَأْنِ رينْفيلْد وَالبَرْقِيَّةِ الَّتي تَلَقّاها .

قالَ فان هيلْسينْغ وَهُوَ يَضَعُ يَدَهُ خِلالَ النّافِذَةِ المُحَطَّمَةِ : « أَخْشَى أَنْ نَكونَ قَدْ وَصَلْنا بَعْدَ فَواتِ الأَوانِ . »

ثُمَّ فَتَحَ النّافِذَةَ ، وَتَسَلَّقَ كِلاهُما واحِدًا بَعْدَ الآخَرِ إِلى الدّاخِلِ . كانَتْ لُوسي وَأُمُّها مُمَدَّدَتَيْنِ فَوْقَ السَّريرِ ، وَكانَتْ تَبْدو عَلى وَجْهِ السَّيِّدَةِ وِسْتِنْرا نَظْرَةُ رُعْبٍ رَهيبَةٍ لَمْ يَرَ سيوارْد مِثْلَها قَطُّ ، فَلَمّا جَسَّ يَدَها وَجَدَ أَنَّها مَيِّتَةٌ . وَكانَتْ تَقْبِضُ بِيَدِها الأُخْرى بِقُوَّةٍ عَلى عِقْدٍ مِنَ الزُّهورِ . وَلابُدَّ أَنَّها ــ في لَحْظَةِ فَزَعٍ ــ اسْتَطاعَتْ أَنْ تَصِلَ إِلى أَبْنَتِها ، وَأَنْ تَمُدَّ يَدَها فَتَنْتَزِعَ الزُّهورَ الَّتي كانَتْ حَوْلَ عُنُقِها .

كانَتْ لُوسي تَرْقُدُ بِجِوارِها ، وَكانَ الجُرْحانِ اللَّذانِ في عُنُقِها ، وَاللَّذانِ كانا قَدْ بَدَآ يَلْتَئِمانِ ، مَفْتوحَيْنِ عَلى سِعَةٍ ، وَفيهِما مَظْهَرُ الشَّيْءِ المَنْهوشِ . وَأَمْسَكَ فان هيلْسينْغ يَدَها وَوَضَعَ أُذُنَهُ مُلاصِقَةً لِصَدْرِها ، وَمَضَتِ الثَّوانِي كَأَنَّها ساعاتٌ قَبْلَ أَنْ يَهْتِفَ قائِلًا : « لَمْ يَفُتِ الأَوانُ بَعْدُ . أَسْرِعْ وَهاتِ بَعْضَ الكُحُولِ . »

وَهُرِعَ سيوارْد إِلى حُجْرَةِ الطَّعامِ ، فَرَأى فيها مَنْظَرًا أَزالَ الدَّهْشَةَ الَّتي كانَتْ تَمَلَّكَتْهُ حينَ دَقَّ الجَرَسَ دُونَ مُجيبٍ . رَأى الخادِماتِ مُمَدَّداتٍ عَلى الأَرْضِ ، فَانْحَنى فَوْقَهُنَّ لِيَشُمَّ رائِحَةَ أَنْفاسِهِنَّ ، فَاكْتَشَفَ أَنَّ مُخَدِّرًا قَدْ وُضِعَ في شَرابِهِنَّ فَجَعَلَهُنَّ يَسْتَغْرِقْنَ في النَّوْمِ . وَأَخَذَ سيوارْد زُجاجَةً وَعادَ إِلى حُجْرَةِ النَّوْمِ حَيْثُ أَخَذَ فان هيلْسينْغ يُدَلِّكُ بِالسَّائِلِ

يَدَيْ لُوسي وَذِراعَيْها وَوَجْهَها ، وَحِينَئِذٍ أَخْبَرَهُ سيوارْد بِما حَدَثَ لِلْخادِماتِ ، فَقالَ لَهُ فان هيلْسينْغ :

« اِذْهَبْ فَنَبِّهْهُنَّ ، فَنَحْنُ في حاجَةٍ إِلى ماءٍ ساخِنٍ ، إِذْ لابُدَّ أَنْ تَبْقى لُوسي دافِئَةً ، ثُمَّ اسْتَدْعِ السَّيِّد هُولْمْوود فَرُبَّما اسْتَطَعْنا أَنْ نُنْقِذَها . وَلٰكِنْ يَنْبَغي أَنْ يَكونَ مُسْتَعِدًّا لِلْأَسْوَإِ . »

وَلَمّا كانَتْ لُوسي في حالَةِ إِعْياءٍ شَديدٍ فَقَدْ رَأى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ مَصْلَحَتِها أَنْ يَنْقُلَ إِلَيْها دَمًا طازَجًا ، وَلِذٰلِكَ آثَرَ أَنْ يَتْرُكَها في نَوْمِها ، وَجَلَسَ سيوارْد يُراقِبُها . وَكانَ مِنَ الغَريبِ أَنَّ هُزالَها جَعَلَ أَسْنانَها تَبْدو أَطْوَلَ وَأَحَدَّ مِمّا كانَتْ مِنْ قَبْلُ . وَلٰكِنْ حِينَما فَتَحَتْ عَيْنَيْها أَخيرًا بَدَتِ الفَتاةَ الشّابَّةَ البَديعَةَ الَّتي كانَ يَعْرِفُها وَيُحِبُّها .

كانَ آرْثر شُجاعًا ، فَقَدْ جَلَسَ مَعَ لُوسي طَوالَ الوَقْتِ وَلَمْ تَكْشِفْ مَلامِحُ وَجْهِهِ عَمّا كانَ يَعْتَلِجُ في قَلْبِهِ مِنْ حُزْنٍ وَأَسًى . وَدَخَلَ فان هيلْسينْغ بَعْدَ ذٰلِكَ وَطَلَبَ مِنْهُ الذَّهابَ إِلى حُجْرَةِ الجُلوسِ لِيُحاوِلَ أَنْ يَأْخُذَ قِسْطًا مِنَ النَّوْمِ ، عَلى حينَ بَقِيَ سيوارْد مَعَ لُوسي .

وفي حَوالَى السّاعَةِ السّادِسَةِ صَباحًا دَخَلَ فان هيلْسينْغ حَتّى يُتيحَ لَهُ فُرْصَةً لِلرّاحَةِ ، ثُمَّ حَلَّ المِنْديلَ الحَريريَّ الَّذي كانَ قَدْ عَقَدَهُ حَوْلَ عُنُقِها وَهَتَفَ : « اُنْظُرْ . »

وَتَطَلَّعَ سيوارْد إِلَيْها فَتَمَلَّكَهُ شُعورٌ غَريبٌ بارِدٌ ، إِذْ رَأى أَنَّ الجُرْحَيْنِ اللَّذَيْنِ كانا حَوْلَ عُنُقِها قَدِ اخْتَفَيا تَمامًا ، فَقالَ فان هيلْسينْغ في أَسًى : « إِنَّها تَموتُ الآنَ . إِنَّها لَحَظاتٌ وَتُفارِقُ الحَياةَ . اِذْهَبْ فَأَيْقِظْ صَديقَها الشّابَّ حَتّى يَكونَ بِجِوارِها في هٰذِهِ اللَّحْظَةِ . »

وَأَخَذَ فان هيلْسينْغ ــ بِما يَتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ كِياسَةٍ وَتَقْديرٍ ــ يُسَرِّحُ شَعْرَها حَتّى أَصْبَحَ مُرْسَلًا حَوْلَ رَأْسِها في مَوْجاتٍ ذَهَبِيَّةٍ ، وَحِينَما جاءَ آرْثر فَتَحَتْ عَيْنَيْها وَقالَتْ في صَوْتٍ خافِتٍ : « أَرْثَر ياحَبيبي ! »

فَانْحَنى آرْثر لِيُقَبِّلَها ، وَلٰكِنَّ فان هيلْسينْغ الَّذي كانَ يُراقِبُهُ عَنْ كَثَبٍ سارَعَ فَأَوْقَفَهُ قائِلًا : « لا ! لَيْسَ الآنَ ! أَمْسِكْ بِيَدِها فَقَطْ . »

وَأَغْمَضَتْ لُوسي عَيْنَيْها ، وَبدا عَلَيْها التَّعاسُ ، وَلاحَظَ سِيوارْد لِلْمَرَّةِ الثّانِيةِ التَّغَيُّراتِ الغَريبةَ الَّتي كانَتْ قَدْ طَرَأَتْ عَلَيْها في أَثْناءِ اللَّيْلِ : الْجِلْدَ الْمَشْدودَ ، وَالْفَمَ الْمَفْتوحَ ، وَالأَسْنانَ الطَّويلةَ الْحادَّةَ .

ثُمَّ تَكَلَّمَتْ لُوسي ثانِيةً في صَوْتٍ ناعِسٍ رَقيقٍ : « أُرْثَر ، قَبِّلْني . »

وَعِنْدَما انْحَنى أُرْثَر عَلَيْها فَتَحَتْ عَيْنَيْها ، وَعِنْدما رَأى سِيوارْد كَيْفَ أَصْبَحَتْ عَيْناها أُصيبَ بِصَدْمةٍ فَقَدْ أَصْبَحَتا جامِدَتَيْنِ مُتَحَجِّرَتَيْنِ . أَمَّا فان هِيلْسِينْغ فَقَدْ لاحَظَ شَيْئًا جَعَلَهُ يُسارِعُ إلى أُرْثَر قَبْلَ أَنْ يُقَبِّلَها فَيَجْذِبَهُ إلى الْوراءِ بِكُلِّ ما أُوتيَ مِنْ قُوَّةٍ وهُوَ يَهْتِفُ : « لا مِنْ أَجْلِ حَياتِكِ ! مِنْ أَجْلِ رُوحِكَ الْحَيَّةِ ! »

كانَ سِيوارْد يُرَكِّزُ عَيْنَيْه عَلى وَجْهِ لُوسي ، فَشاهَدَ ظِلًّا مِنَ الْغَضَبِ يَمُرُّ عَبْرَ وَجْهِها ، وَرَأى أَسْنانَها الْحادَّةَ تَنْطَبِقُ . وَلَمْ تَمْضِ إلَّا هُنَيْهةٌ حَتّى عادَتْ إلى ما كانَتْ عَلَيْهِ : الْفَتاةَ الشّاحِبةَ الْمَنْهوكَةَ الْمُشْرِفَةَ عَلى الْمَوْتِ . وَحاوَلَتْ أَنْ تَبْتَسِمَ ، وَلٰكِنَّها لَمْ تَكُنْ تَمْلِكُ الْقُوَّةَ لِتَبْتَسِمَ . كانَ الأَمْرُ كَما لَوْ أَنَّ هُناكَ اثْنَتَيْنِ مِنْ لُوسي تَعيشانِ في بَدَنٍ واحِدٍ .

وَقالَ فان هِيلْسِينْغ في صَوْتٍ رَقيقٍ لِأُرْثَر : « تَعالَ يابُنَيَّ ، خُذْ يَدَها في يَدِكَ وَقَبِّلْها الآن ، وَلٰكِنْ لَيْسَ في الشَّفَتَيْنِ وَلْتَكُنْ قُبْلةً واحِدةً . »

وَفَعَلَ أُرْثَر كَما قالَ ، وَما لَبِثَتْ أَجفانُ لُوسي أَنِ انْطَبَقَتْ ، وَصارَ تَنَفُّسُها ثَقيلًا ، حَتّى تَوَقَّفَتْ أَنْفاسُها أَخيرًا .

وَقالَ سِيوارْد في صَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ : « لَقَدِ انْتَهى كُلُّ شَيْءٍ . »

فَرَدَّ فان هِيلْسِينْغ : « لا ! كُنْتُ أَتَمَنّى أَنْ تَكونَ هٰذِهِ هِيَ النِّهايةَ ، وَلٰكِنَّها — فَقَطْ — مُجَرَّدُ بِدايةٍ . »

اَلْفَصْلُ الثّاني عَشَرَ

لَمْ يَكُنْ لِلُوسي وَأُمِّها أُسْرَةٌ تَتَوَلّى شُؤونَ الْجِنازةِ ، وَقَدْ وافَقَ مُحامِيها عَنْ طِيبِ خاطِرٍ عَلى أَنْ يَقومَ الدُّكْتور سِيوارْد بِهٰذِهِ الْمُهِمَّةِ ، وَحُدِّدَ لَها الْيَومُ التّالي . وَحَتّى حُلولِ مِيعادِ الْجِنازةِ كانَتْ لُوسي تَرْقُدُ في حُجْرَتِها بَيْنَ طاقاتٍ كَثيرةٍ مِنَ الزُّهورِ الْبَيْضاءِ وَشُموعٍ بَيْضاءَ طَويلةٍ ، وَقَدْ عادَ إلَيْها بَعْدَ مَوْتِها كُلُّ ما كانَتْ تَتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ جَمالٍ . بَلْ إنَّها كانَتْ أَجْمَلَ بَعْدَ الْمَوْت ، وَبَدَلًا مِنْ أَنْ يَذْوِيَ جَسَدُها بِالْمَوْتِ ، كانَ — كُلَّما مَضَتِ السّاعاتُ — يَبْدُو وَكَأَنَّهُ يَعودُ إلى الْحَياةِ .

وَفي هٰذا ٱلـمَساءِ ، وَبَيْنَما كانَ سِيوارْد يَقِفُ مع ڤـان هِيلْسِينْغ أَمامَ ٱلجُثَّةِ تَصِلُ إِلَيْهِما ٱلرّائِحة ٱلعَطِرةُ ٱلَّتي تَنْشُرُها ٱلأَزْهارُ وَالشُّموعُ ٱلـمُحْتَرِقةُ ، قالَ سِيوارْد : « أَنا لا أَسْتَطيعُ أَنْ أُصَدِّقَ أَنَّني أَنْظُرُ إِلى جَسَدٍ مَيِّتٍ . »

فَرَدَّ ڤـان هِيلْسِينْغ : « لَعَلَّ مِنَ ٱلخَيْرِ أَنْ تُفَكِّرَ في ٱلأَمْرِ هٰكَذا . »

وَتَرَكَ ڤـان هِيلْسِينْغ ٱلحُجْرةَ ، ثُمَّ عادَ وَمَعَهُ صُنْدوقُ أَزْهارِ ٱلثُّومِ ٱلَّذي وَصَلَ ذٰلِكَ الصَّباحَ مِنْ هولَنْده كَٱلعادةِ ، وَقالَ : « إِنَّ واجِبَنا نَحْوَها لَـمْ يَنْتَهِ بِٱلـمَوْتِ . »

وَصَلَ آرْثَر مُبَكِّرًا في صَباحِ يَوْمِ ٱلجِنازةِ ، وَكانَتْ رُوحُهُ ٱلـمَعْنَوِيَّةُ في غايَةِ السُّوءِ ، وَكانَ في أَشَدِّ ٱلحاجةِ لِكُلِّ عَوْنٍ يُمْكِنُ أَنْ يُقَدِّمَهُ أَصْدِقاؤُهُ . دَخَلَ مَعَهُمْ لِكَيْ يَرى لُوسي ، وَأَخَذَتْهُ الدَّهْشةُ لِلْـمَرَّةِ ٱلثّانيةِ مِنْ مَظْهَرِها . فَلَقَدْ بَدا جَمالُها رائِعًا ، حَتّى لَيُمْكِنُ ٱلقَوْلُ إِنَّهُ كانَ رائِعًا بِطَريقةٍ تُثيرُ ٱلخَوْفَ .

وَفي هٰذا الصَّباحِ وَصَلَتْ رِسالةٌ مُعَنْونةٌ بِاسْمِ لُوسي ، وَعَرَفَ آرْثَر أَنَّها بِخَطِّ مِينا فَفَتَحَها وَقَرَأَها عَلَيْهِما . وَٱلواقِعُ أَنَّها لَـمْ تَتَضَمَّنِ ٱلكَثيرَ ، فيما عَدا أَنَّ مِينا تَزَوَّجَتْ في بُودابِست ، وَأَنَّها عادَتْ هِيَ وجوناثان إِلى إِكْسْتر .

وَلٰكِنَّ ڤـان هِيلْسِينْغ أَبْدَى اهْتِمامًا وَقالَ : « لابُدَّ أَنْ أُقابِلَها ، وَسَوْفَ أَطْلُبُ مِنْها ٱلحُضورَ إِلى لَنْدَن ، فَلَعَلَّها تَسْتَطيعُ أَنْ تُخْبِرَني بِأَشْياءَ أُريدُ مَعْرِفَتَها . »

أَمّا مِنْ حَيْثُ جِنازةِ لُوسي وَأُمِّها فَلَيْسَ هُناكَ ٱلكَثيرُ ٱلَّذي يُقالُ ، فَبَعْدَ أَنْ دُفِنَتا في مَقْبَرةِ أُسْرةِ وِسْتِنْرا عادَ آرْثَر إِلى لَنْدَن لِرِعايةِ والِدِهِ ، وَعادَ الدُّكْتور سِيوارْد إِلى ٱلـمُسْتَشْفى . أَمّا ڤـان هِيلْسِينْغ فَقَدْ كانَ مِنَ ٱلغَريبِ أَنَّهُ — بِالرَّغْمِ مِنْ كَثْرةِ مَشاغِلِهِ — لَـمْ يَكُنْ راغِبًا في ٱلعَوْدةِ إِلى أَمْستردام .

وَسَأَلَ سِيوارْد عَمّا إِذا كانَ مِنَ ٱلـمُمْكِنِ أَنْ يُقيمَ مَعَهُ فَتْرةً ، وَقالَ إِنَّهُ يَأْمُلُ أَنْ يُدَبِّرَ لِقاءً مَعَ مِينا . وَلٰكِنَّ سِيوارْد أَحَسَّ أَنَّ هٰذا لَـمْ يَكُنِ السَّبَبَ ٱلوَحيدَ في رَغْبَتِهِ في ٱلإِقامةِ ، وَتَساءَلَ في نَفْسِهِ : « أَتُراهُ يَرْغَبُ في ٱلانْتِظارِ لِأَنَّهُ يَتَوَقَّعُ حُدُوثَ شَيْءٍ ؟ »

وَفِعْلًا حَدَثَ شَيْءٌ بَعْدَ أُسْبوعٍ مِنَ ٱلجِنازةِ . شَيْءٌ لَـمْ يَكُنْ يَمَسُّ حَياتَهُمْ مِنْ أَيَّةِ ناحِيةٍ ، وَإِنَّما بَدا ذا أَهَمِّيَّةٍ لِڤـان هِيلْسِينْغ .

كانا يَجْلِسانِ في مَكْتَبِ الدُّكْتور سِيوارْد ذاتَ مَساءٍ يَتَناوَلانِ الشّايَ في هُدُوءٍ كَٱلعادةِ ، وَكانَ الطَّبيبُ يَقْرَأُ صَحيفةَ لَنْدن ٱلـمَسائِيَّةَ الَّتي كانَ يُحِبُّ ٱلاطِّلاعَ عَلَيْها في هٰذا ٱلوَقْتِ كُلَّ لَيْلةٍ ، وَسَأَلَ سِيوارْد :

« هَلْ قَرَأْتَ عَنْ حوادِثِ ٱلاعْتِداءِ عَلى ٱلأَطْفالِ الَّتي وَقَعَتْ في لَنْدن يابُروفِيسور ؟ يَبْدو أَنَّ عَدَدًا مِنَ ٱلأَطْفالِ في شَمالِ لَنْدَن قَدِ اخْتَفَوا وَهُمْ يَلْعَبونَ ، وَكانَ يُعْثَرُ عَلَيْهِمْ بَعْدَ بِضْعِ ساعاتٍ ، وَفي مُنْتَصَفِ ٱللَّيْلِ غالِبًا ، وَهُمْ في حالَةٍ مِنَ الشُّحوبِ وَٱلإِعْياءِ يُرْثى لَها ، وَفي أَعْناقِهِمْ جُروحٌ . »

وَكَرَّرَ سِيوارْد ٱلعِبارةَ ٱلأَخيرةَ « وَفي أَعناقِهِمْ جُروحٌ » ثُمَّ سَأَلَ : « أَلَيْسَ هٰذا مُثيرًا ؟ » وواصَلَ كَلامَهُ : « وَكانَ كُلٌّ مِنَ ٱلأَطْفالِ يَقولُ — بَعْدَ أَنْ يُفيقَ — إِنَّهُ قابَلَ سَيِّدةً ، وَإِنَّها كانَتْ تَأْخُذُهُ لِيَتَمَشّى مَعَها ، وَلٰكِنْ لَـمْ يَكُنْ أَيٌّ مِنْ هٰؤُلاءِ ٱلأَطْفالِ يَسْتَطيعُ أَنْ يَتَذَكَّرَ ما حَدَثَ لَهُ بَعْدَ ذٰلِكَ . »

وَتَناوَلَ ڤـان هِيلْسِينْغ الصَّحيفَةَ وَقَرَأَ ٱلقِصَّةَ كامِلةً بِعِنايَةٍ ثُمَّ سَأَلَ : « ما رَأْيُكَ في هٰذا ٱلـمَوْضوعِ ؟ »

فَأَجابَ سِيوارْد : « لَيْسَتْ لَدَيَّ فِكْرةٌ ، فيما عَدا أَنَّ ٱلحالَةَ تَبْدو أَشْبَهَ قَليلًا بِحالةِ لُوسي . »

فَقالَ هِيلْسِينْغ : « أَشْبَهُ قَليلًا فَقَطْ ؟ هَلْ تَقْصِدُ أَيُّها الصَّديق أَنَّكَ — بَعْدَ كُلِّ ما رَأَيْتَهُ — لا تَزالُ لَيْسَتْ لَدَيْكَ فِكْرةٌ عَنْ كَيْفِيَّةِ مَوْتِ لُوسي ٱلـمِسْكينةِ ؟ »

قالَ سِيوارْد : « لَقَدْ ماتَتْ نَتيجةً لِـما فَقَدَتْهُ مِنْ دِماءٍ . »

قالَ ڤـان هِيلْسِينْغ : « وَكَيْفَ فَقَدَتْ دِماءَها ؟ »

سَكَتَ سِيوارْد ، فَقالَ ڤـان هِيلْسِينْغ : « إِنَّكَ رَجُلٌ ذَكِيٌّ ياصَديقي ، وَلٰكِنَّكَ تَنْظُرُ

إلى ٱلحَياةِ نَظْرةً ضَيِّقةً . إنَّكَ تَظُنُّ أنَّ ٱلعِلْمَ يقدِّمُ لَنا إجاباتٍ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلٰكِنَّكَ مُخْطِئٌ . فَهُناكَ أشْياءُ كَثيرةٌ لا يَسْتَطيعُ ٱلعِلْمُ أنْ يَصِلَ إلَيْها ، وَأنْتَ لا تُريدُ أنْ تَراها . إنَّ كُلًّا مِنْ لُوسي وَهٰؤُلاءِ ٱلأطْفالِ فَقَدوا دِماءَهُمْ بِسَبَبِ ٱلجُروحِ الَّتي في أعْناقِهِمْ . وَٱلآنَ أخْبِرْني ، مَنِ الَّذي أحْدَثَ هٰذِهِ ٱلجُرُوحَ ؟ »

قالَ سِيوارْد : « لَقَدْ سَمِعْتُ عَنْ خَفافيشَ في أمْريكا ٱلجَنوبِيَّةِ تَمْتَصُّ دِماءَ النّاسِ أوِ ٱلحَيواناتِ في أثْناءِ نَوْمِهِمْ بِهٰذِهِ الطَّريقةِ ، وَلٰكِنْ لَيْسَ لَدَيْنا في إنْجِلْترا مِثْلُ هٰذِهِ ٱلخَفافيشِ . »

فَقالَ فان هِيلْسِينْغ : « أصَبْتَ ياصَديقي جاك ، وَلٰكِنْ إذا لَمْ يَكُنِ الَّذي امْتَصَّ دِماءَ لُوسي مِنَ ٱلخَفافيشِ مَصّاصَةِ الدِّماءِ ، فَماذا يَكونُ إذًا ؟ »

فَلاذَ سِيوارْد بِالصَّمْتِ لَحْظَةً ، ثُمَّ استْدارَ بِوَجْهٍ شاحِبٍ كَسيفٍ نَحْوَ فان هِيلْسِينْغ وقالَ : « أتُريدُني أنْ أعْتَقِدَ أنَّ مَصّاصَ دِماءٍ .. أنَّ رَجُلًا مَصّاصَ دِماءٍ هُوَ الَّذي أحْدَثَ هٰذِهِ ٱلجُروحَ ؟ وَلٰكِنّي لا أُومِنُ بِوُجودِ مَصّاصينَ لِلدِّماءِ مِنَ ٱلبَشَرِ . إنَّنا لا نَعيشُ في عالَمِ ٱلأساطيرِ وَٱلقِصَصِ ٱلخُرافِيَّةِ . إنَّهُ لا يَعْتَقِدُ في أشْياءَ كَهٰذِهِ إلّا مَجْنُونٌ . »

فَنَظَرَ فان هِيلْسِينْغ إلَى سِيوارْد مَحْزونًا وَقالَ : « كُنْتُ أتَمَنّى أنْ أكونَ مَجْنونًا وَلا أُضْطَرَّ إلى ٱلقَوْلِ بِأنَّ لُوسي قَدْ قُتِلَتْ حَقيقةً بِيَدِ مَصّاصِ دِماءٍ . وَلٰكِنْ ، لَيْسَ هٰذا كُلَّ شَيْءٍ . » وَهُنا غَطّى وَجْهَهُ بِيَدَيْهِ كَما لَوْ كانَ غَيْرَ راغِبٍ في ٱلاسْتِمْرارِ في ٱلحَديثِ ، ثُمَّ قالَ :

« لا تَظُنُّ أنَّ مَصّاصَ الدِّماءِ الَّذي شَرِبَ دِماءَ هٰؤُلاءِ ٱلأطْفالِ هُوَ نَفْسُ مَصّاصِ الدِّماءِ الَّذي شَرِبَ دَمَ لُوسي . »

فَقالَ سِيوارْد : « ماذا تَعْني يابُروفِيسور ؟ »

فَأجابَ : « أعْني يادُكْتور سِيوارْد أنَّ مَصّاصَ الدِّماءِ الَّذي اعْتَدى عَلى هٰؤُلاءِ ٱلأطْفالِ هُوَ لُوسي نَفْسُها ! »

ٱلْقِسْمُ ٱلرّابِعُ

لـــنـــدن

ٱلْفَصْلُ ٱلثّالِثَ عَشَرَ

أخَذَ فان هِيلْسِينْغ يَنْظُرُ إلى الدُّكْتور سِيوارْد فَتَصْطَدِمُ نَظَراتُهُ مُباشَرةً بِعَيْنَيْنِ غاضِبَتَيْنِ ، إذْ لَمْ يَكُنْ يَسيرًا عَلى سِيوارْد أنْ يَتَقَبَّلَ عَقْلُهُ بِسُهولَةٍ فِكْرَةَ أنَّ ٱلفَتاةَ الَّتي أحَبَّها يَوْمًا مَصّاصَةُ دِماءٍ تُهاجِمُ صِغارَ ٱلأطْفالِ لِتَشْرَبَ دِماءَهُمْ . وَكانَ فان هِيلْسِينْغ واثِقًا أنَّهُ لَيْسَ في مَكْتَبَةِ الدُّكْتور سِيوارْد أيُّ مَرْجِعٍ يَتَضَمَّنُ مَعْلوماتٍ عَنْ مَصّاصي الدِّماءِ ، وَلٰكِنَّ هٰذا لا يَعْني أنَّهُمْ غَيْرُ مَوْجودينَ . إنَّهُمْ مَوْجودونَ ، وَعَلى فان هِيلْسِينْغ أنْ يُثْبِتَ ذٰلِكَ . صَحيحٌ أنَّ هُناكَ ٱلكَثيرَ الَّذي لا يَعْرِفُهُ هُوَ نَفْسُهُ عَنْ هٰذا ٱلمَوْضوعِ بَعْدُ ، وَلٰكِنَّ هُناكَ حَقيقةً مُؤْلِمةً واضِحةً لَهُ وَهِيَ أنَّهُ كانَ هُناكَ في ٱلبيئَةِ الَّتي تُحيطُ بِهِمْ مَصّاصُ دِماءٍ واحِدٌ ، أمّا ٱلآنَ فَقَدْ أصْبَحَ هُناكَ ٱثْنانِ ، وَفي ٱلأُسْبوعِ ٱلقادِمِ أوِ ٱلشَّهْرِ ٱلقادِمِ قَدْ يُصْبِحُ هُناكَ ثَلاثَةٌ أوْ أرْبَعةٌ أوْ خَمْسةٌ ، وَهُوَ ٱلوَحيدُ « أبراهام فان هِيلْسِينْغ مِنْ أمِسْتِردام » الَّذي يَسْتَطيعُ أنْ يُوقِفَ هٰذا التَّكاثُرَ ، وَلٰكِنَّهُ في حاجَةٍ إلى مَنْ يُعاوِنُهُ .

قالَ فان هِيلْسِينْغ في رِقَّةٍ : « ياصَديقي ، إنَّ ٱلحَقيقةَ قَدْ يَكونُ حَمْلُها شاقًّا ، وَأنا لا أُوَقِّعُ ــ وَأنْتَ أحَدُ ٱلعُلَماءِ ــ أنَّهُ يُمْكِنُكَ أنْ تُصَدِّقَ شَيْئًا بِدونِ بُرْهانٍ ، وَلٰكِنّي أسْتَطيعُ أنْ أُقَدِّمَ لَكَ هٰذا ٱلبُرْهانَ إذا جِئْتَ مَعي . »

فَسَأَلَهُ سِيوارْد في ارْتِيابٍ : « إلى أيْنَ ؟ »

فَأجابَ فان هِيلْسِينْغ : « أوَّلًا إلى مُسْتَشْفَى شَمالِ لَنْدَن لِكَيْ نَرَى أحَدَ ٱلأطْفالِ . »

فَسَأَلَهُ سِيوارْد : « وَبَعْدَ ذٰلِكَ ؟ »

فَكانَ جَوابُ فان هِيلْسِينْغ أنْ أخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ مِفْتاحًا كَبيرًا وَرَفَعَهُ في يَدِهِ ، وَلَمْ يَكَدْ سِيوارْد يَرَى ٱلمِفْتاحَ حَتّى شَحَبَ لَوْنُهُ ، فَقَدْ كانَ مِفْتاحَ ٱلمَقْبَرةِ ، وَقالَ في صَوْتٍ خافِتٍ :

« لا لَيْسَ إلى هُناكَ ؟ لَمْ يَمْضِ عَلى مَوْتِها إلّا أُسْبوعٌ ! كانَ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ أَزورَ المَقْبَرَةَ لَوْ أَنَّ المَيِّتَ شَخْصٌ آخَرُ ، أَمّا هِيَ فلا . لَقَدْ كانَتْ جَميلةً وَهِيَ مَيِّتَةٌ ، وَأَنا أُحِبُّ أَنْ أَحْتَفِظَ بِذِكْراها وَهِيَ عَلى هٰذِهِ الصُّورةِ ، لا عَلى الصُّورةِ الَّتي أَصْبَحَت عَلَيْها الآنَ . »

فَقالَ فان هِيلْسِينْغ : « ياصَديقي إنَّهُ بِسَبَبِ حُبِّكَ لَها أَطْلُبُ مِنْكَ الآنَ أَنْ تَأْتِيَ مَعي . وَإذا لَمْ نَكُنْ قَدِ اسْتَطَعْنا أَنْ نُنْقِذَ حَياتَها ، فَمِنَ الواجِبِ عَلَيْنا الآنَ — عَلى الأَقَلِّ — أَنْ نُحاوِلَ إنْقاذَ رُوحِها . »

وَصَلَ فان هِيلْسِينْغ والدُّكْتور سِيوارْد إلى المُسْتَشْفى حَوالَى السّاعةِ السّادِسةِ . وَكانَ الطِّفْلُ في تَحَسُّنٍ مُسْتَمِرٍّ . وَكَشَفَ الطَّبيبُ الَّذي يَتَوَلّى عِلاجَهُ عَنْ عُنُقِهِ ، وَأَراهُما آثارَ الجُروحِ فِيهِ ، وَلَمْ يَكُنْ هُناكَ أَيُّ شَكٍّ في أَنَّها كانَتْ تُشْبِهُ تِلْكَ الَّتي كانَتْ في عُنُقِ لُوسي . وَلَمّا سَأَلَ فان هِيلْسِينْغ الطَّبيبَ عَنْ رَأْيِهِ في سَبَبِ حُدوثِ هٰذِهِ الآثارِ أَجابَ :

« لا يُمْكِنُ إلّا أَنْ يَكونَ حَيوانًا ما ، كالفَأْرِ مَثَلًا . كَما يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ خُفّاشًا ، وَلٰكِنْ لَيْسَ بِالطَّبْعِ مِنَ الخَفافيشِ المَحَلِّيَّةِ ، وَإنَّما مِنْ نَوْعٍ أَجْنَبِيٍّ ، فَهُناكَ كَثيرٌ مِنَ النّاسِ يُحْضِرونَ إلى إنْجِلْترا حَيواناتٍ غَريبةً مِنْ أَنْحاءٍ مُخْتَلِفةٍ مِنَ العالَمِ ، بَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ حَيَوانًا هارِبًا مِنْ حَديقةِ الحَيَوانِ . نَعَمْ ، فَمُنْذُ أُسْبوعٍ أَوْ أُسْبوعَيْنِ فَقَطْ هَرَبَ مِنْهُمْ ذِئْبٌ ، أَعْتَقِدُ أَنَّهُمْ مُهْمِلونَ غايةَ الإهْمالِ . »

كانَتِ الشَّمْسُ تَميلُ لِلْغُروبِ حِينَما غادَرَا المُسْتَشْفى وَتَوَجَّها نَحْوَ هامِسْتِد ، الَّتي تَقَعُ عَلى رَبْوةٍ تُطِلُّ عَلى لَنْدَن مِنَ الشَّمالِ . سارا في شَوارِعَ خالِيةٍ مُظْلِمةٍ حَتّى بَلَغا زُقاقًا صَغيرًا في أَحَدِ جانِبَيْهِ جِدارٌ . وَتَطَلَّعا حَوْلَهُما فَلَمّا لَمْ يَجِدا أَحَدًا في الزُّقاقِ تَسَلَّقا الجِدارَ إلى حَيْثُ تُوجَدُ المَقابِرُ .

كانَ فان هِيلْسِينْغ يَعْرِفُ وِجْهَتَهُ تَمامًا ، وَما هِيَ إلّا لَحَظاتٌ حَتّى كانَ الرَّجُلانِ يَقِفانِ أَمامَ مَقْبَرةِ وِسْتِنْرا . فَأَشْعَلَ البُروفِيسور شَمْعَةً وَفَتَحَ البابَ ، ثُمَّ انْحَنى جانِبًا وَأَشارَ بِيَدِهِ لِلدُّكْتور سِيوارْد — مُجامَلَةً مِنْهُ وَتَأَدُّبًا — لِكَيْ يَدْخُلَ أَوَّلًا . وَبَدا عَلى وَجْهِ سِيوارْد أَنَّهُ

يُرَحِّبُ بِهٰذِهِ اللَّفْتَةِ مِنَ التَّأَدُّبِ وَحُسْنِ السُّلوكِ ، وَلٰكِنْ لَمْ يَسَعْهُ إلّا الامْتِثالُ فَأَخَذَ الشَّمْعَةَ وَدَخَلَ .

كانَتِ المَقْبَرةُ — عِنْدَما شاهَداها في المَرَّةِ السّابِقةِ حِينَ دُفِنَتْ لُوسي — مَكانًا مُقْبِضًا عَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ ذٰلِكَ كانَ في ضَوْءِ النَّهارِ ، وَعَلى الرَّغْمِ مِنْ عَبَقِ الزُّهورِ النَّضِرةِ آنَذاكَ ، فَكَيْفَ يَكونُ الحالُ وَقَدْ ذَبَلَتِ الزُّهورُ وَحالَ لَوْنُها ؟ وَكَيْفَ يَكونُ بَعْدَ أَنْ فَقَدَتِ الفِضَّةُ وَالنُّحاسُ وَالتَّصاوِيرُ الَّتي تُوَشّي تابوتَ لُوسي بَريقَها ؟ وَسَأَلَ سِيوارْد : « ماذا تَعْتَزِمُ أَنْ تَفْعَلَ ؟ »

فَأَجابَ البُروفِيسور : « راقِبْ ، وَسَوْفَ تَرى . »

ثُمَّ فَتَحَ التّابوتَ مِنْ أَعْلاهُ ، وَكانَ تَحْتَ الفُتْحةِ غِطاءٌ مِنَ الرَّصاصِ يُحيطُ بِالجُثَّةِ تَمامًا . وَكانَ البُروفِيسور قَدْ أَخَذَ أُهْبَتَهُ فَأَحْضَرَ مَعَهُ ما يَلْزَمُ مِنْ أَدَواتٍ لِمُواجَهةِ المَوْقِفِ ، فَشَرَعَ يَقْطَعُ الرَّصاصَ ، ثُمَّ تَوَقَّفَ حِينَ رَأى الدُّكْتور سِيوارْد يَتَسَلَّلُ مِنْ جِوارِهِ وَيَرْجِعُ مُتَّجِهًا نَحْوَ بابِ المَقْبَرةِ وَهُوَ يَقولُ في صَوْتٍ مُرْتَجِفٍ : « بُروفِيسور ، إنَّها مَيِّتَةٌ مُنْذُ أُسْبوعٍ ، وَلَسْتُ أَرْغَبُ في رُؤْيَتِها ثانِيةً . »

فَقالَ البُروفِيسور : « إبْقَ هُنا ما لَمْ تَكُنْ خائِفًا مِنْ مُواجَهةِ الحَقيقةِ . » وَانْتَهى فان هِيلْسِينْغ مِنْ عَمَلِ الفُتْحةِ ، ثُمَّ قَطَعَ الجُزْءَ الَّذي يَقَعُ تَحْتَ وَسَطِ الغِطاءِ الرَّصاصِيِّ ، وَلَمْ يَكُنْ هُناكَ أَيُّ غازٍ ، لَمْ تَكُنْ هُناكَ أَيُّ رائِحةٍ لِلْمَوْتِ .

قالَ البُروفِيسور : « وَالآنَ سَوْفَ أَجْذِبُ أَحَدَ طَرَفَيِ الرَّصاصِ ، وَتَقِفُ أَنْتَ في مُواجَهَتي لِتَجْذِبَ الطَّرَفَ الآخَرَ وَحينَئِذٍ سَوْفَ نَرى ما نَرى . »

وَهٰكَذا جَذَبا الرَّصاصَ مِنْ جانِبَيِ القَطْعِ كِلَيْهِما ، وَإذا بِالتّابوتِ خالٍ ، فَقالَ فان هِيلْسِينْغ : « البُرْهانُ الأَوَّلُ ! تَعالَ ! اتْبَعْني ! »

وَمَضَى البُروفِيسور ، يَتْبَعُهُ صَديقُهُ الصّامِتُ المَذْهولُ إلى خارِجِ المَقْبَرةِ ، وَسَأَلَهُ أَنْ يُغْلِقَها ، ثُمَّ قالَ لَهُ : « وَالآنَ سَوْفَ نَنْتَظِرُ ، وَإذا وَقَفْنا تَحْتَ هٰذِهِ الأَشْجارِ عَلى مَسافةٍ قَريبةٍ مِنَ المَقْبَرةِ فَإنَّنا نَسْتَطيعُ أَنْ نَرى أَيَّ شَيْءٍ يَحْدُثُ . »

وَآنتظرا ، وَطالَ آلِانْتِظارُ ، وَسَمِعا ساعةً تَدُقُّ الثّانِيةَ عَشْرَةَ ، ثُمَّ تَدُقُّ آلواحِدةَ ، ثُمَّ الثّانِيةَ . وَلابُدَّ أَنَّ السّاعَةَ كانَتْ قَدْ قارَبَتِ الثّالِثةَ حينَما أَطْبَقَتْ يَدُ فان هِيلْسِينْغ عَلى ذِراعِ سِيوارْد ، ثُمَّ أَشارَ لَهُ إلى شَكْلٍ أَبْيَضَ يَتَحَرَّكُ بَيْنَ آلأَشْجارِ عَلى بُعْدِ عِشْرِينَ أَوْ ثَلاثِينَ مِتْرًا . وَخَرَجَ فان هِيلْسِينْغ مِنْ تَحْتِ آلأَشْجارِ وَتَقَدَّمَ مِنْهُ ، وَبَدا كَأَنَّهُ رآهُ ، فَتَوَقَّفَ ثُمَّ تَقَهْقَرَ إلى آلوَراءِ وَاخْتَفى ، في نَفْسِ آللَّحْظةِ آلَّتي تَعَثَّرَ فيها فان هِيلْسِينْغ وَسَقَطَ فَوْقَ شَيْءٍ مُلْقى في مَمَرٍّ مِنَ آلعُشْبِ آلطَّويلِ . وَحِينَما سَمِعَ سِيوارْد صَيْحةَ آلدَّهْشةِ آلَّتي أَطْلَقَها فان هِيلْسِينْغ خَفَّ إلَيْهِ مُسْرِعًا ، وَأَشْعَلَ عُودَ ثِقابٍ ، وَإذا فَوْقَ آلأَرْضِ طِفْلٌ صَغيرٌ لايَزالُ في سُباتٍ عَميقٍ ، وصاحَ آلبروفِيسور وَهُوَ يَنْهَضُ مِنْ فَوقِ آلعُشْبِ : « آلبُرْهانُ آلثاني ! »

وَقالَ سِيوارْد بَعْدَ أَنْ فَحَصَ الطِّفْلَ : « لَيْسَ بِآلعُنُقِ أَيُّ أَثَرٍ . »

فَقالَ آلبُروفِيسور : « لَمْ يَتَّسِعْ لَها آلوَقْتُ ، وَلٰكِنْ ، إذا لَمْ يَكُنِ آلبُرهانُ آلثاني كامِلًا فَسَوْفَ أُرِيكَ آلبُرْهانَ آلثالِثَ ، وَحِينَئِذٍ ، لَعَلَّكَ تَقْتَنِعُ . »

وَكانَ الطِّفْلُ لايَزالُ نائِمًا ، فَمَهَّدَ لَهُ سِيوارْد مَكانًا فَوْقَ آلعُشْبِ ، وَتَبِعَ فان هِيلْسِينْغ إلى آلمَقْبَرةِ . كانَتِ الشَّمْسُ قَدْ بَدَأَتْ تَطْلُعُ حِينَما فَتَحا آلبابَ ، وَلٰكِنَّ الظُّلْمةَ كانَتْ حَوْلَ التّابوتِ كَما كانَتْ مِنْ قَبْلُ ، فَقالَ آلبُروفِيسور : « أَشْعِلْ عُودَ ثِقابٍ . »

وَفُوجِئَ سِيوارْد بِأَنَّ التّابوتَ لَمْ يَكُنْ خالِيًا كَما كانَ مِنْ قَبْلُ ، وَإنَّما كانَتْ لُوسي تَرْقُدُ فيهِ وَهِيَ تَبْدو بِمِثْلِ ما كانَتْ تَبْدو قَبْلَ آلجِنازةِ تَمامًا . كانَتْ ــ لَوْ كانَ هٰذا مُمْكِنًا ــ أَكْثَرَ جَمالًا مِنْها في أَيِّ وَقْتٍ مَضى ، فَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ هٰذا وَجْهَ فَتاةٍ إنْقَضى عَلى مَوْتِها سَبْعَةُ أَيّامٍ ؟ وَجَذَبَ فان هِيلْسِينْغ شَفَتَيْها إلى آلخَلْفِ كاشِفًا عَنْ أَسْنانِها ، وَقالَ : « انْظُرْ إنَّها أَشْبَهُ بِحَدِّ السِّكّينِ . كَمْ مَرَّةً ، يادُكْتور سِيوارْد ، يَنْبَغي أَنْ تَنْغَرِسَ هٰذِهِ آلأَسْنانُ في عُنُقِ طِفْلٍ حَتّى تُؤْمِنَ أَنَّ مَعَنا آلآنَ مَصّاصةَ دِماءٍ مُتَعَطِّشةً إلى الدَّمِ ، وَأَنَّ عَلَيْنا أَنْ نَقْضِيَ عَلَيْها نِهائِيًّا ؟ »

كانَ سِيوارْد يَبْدو وَكَأَنَّهُ لا يَسْتَطيعُ أَنْ يَمْنَعَ عَيْنَيْهِ مِنَ التَّطَلُّعِ إلى هٰذا آلجَمالِ الشِّرِّيرِ لِهٰذا آلجَسَدِ الثّاوِي في ذٰلِكَ التّابوتِ . ثُمَّ سَأَلَ : « بُروفِيسور ، ماذا يَنْبَغي عَلَيْنا أَنْ نَفْعَلَ ؟ »

فَأَجابَ آلبُروفِيسور : « نَنْزِعُ رَأْسَها مِنْ جَسَدِها ، وَنَمْلَأُ فَمَها بِالثُّومِ ، وَنَغْرِسُ قِطْعةً سَميكَةً مِنَ آلخَشَبِ لِتَتَغَلْغَلَ في قَلْبِها . وَلٰكِنْ لَيْسَ آلآنَ ، فَلَسْنا مُسْتَعِدِّينَ لِذٰلِكَ بَعْدُ . ثُمَّ إنَّنا ــ بِسَبَبِ آلمَخاطِرِ آلَّتي تُواجِهُنا ــ في حاجَةٍ إلى مَزيدٍ مِنَ آلعَوْنِ ، وَفَوْقَ هٰذا ، فَإنَّ آلَّذي أَطْلَعْتُكَ عَلَيْهِ آللَّيْلَةَ لابُدَّ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ آرْثَر هولموود . لِنَرْحَلِ آلآنَ . »

وَهٰكَذا أَغْلَقا آلمَقْبَرةَ ، ثُمَّ حَمَلا الطِّفْلَ آلَّذي كانَ لايَزالُ نائِمًا وَوَضَعاهُ خارِجَ بَوّابةِ آلمَقْبَرةِ ، وَهُمْ عَلى يَقينٍ أَنَّ الشُّرْطةَ سَوْفَ تَجِدُهُ عاجِلًا . وَكانَ جَميلًا ،أَنْ يُحِسّا دِفْءَ الشَّمْسِ حَينَما غادَرا آلمُرْتَفَعاتِ ، وَسارا عائِدَيْنِ إلى لَنْدَن .

اَلْفَصْلُ الرّابِعَ عَشَرَ

لَـمْ يَكُنْ مِنَ اَلْيَسيرِ إِقْناعُ آرْثَر بِاَلـمَجيءِ إِلى اَلـمَقْبَرةِ ، وَلٰكِنَّهُ جاءَ أَخيرًا . وَكانَ اَلفَضْلُ فِي ذٰلِكَ لِجاك سِيوارْد . ذٰلِكَ أَنَّ فَان هِيلْسِينْغ كانَ يَعْلَـمُ أَنَّ كَلامَ سِيوارْد مَعَ آرْثَر سَوْفَ يَكونُ أَوْقَعَ أَثَرًا مِنْ كَلامِهِ هُوَ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ يَعْلَـمُ كَذٰلِكَ أَنَّهُ لا كَلامَهُ وَلا كَلامَ سِيوارْد يُمْكِنُ أَنْ يُقْنِعَ أَرْثَر بِأَنَّ لُوسي مَصّاصَةُ دِماءٍ ، وَإِنَّما لُوسي نَفْسُها هِيَ اَلَّتي تَسْتَطيعُ إِقْناعَهُ .

كانَتِ السّاعَةُ قَدْ تَجاوَزَتْ مُنْتَصَفَ اللَّيْلِ حِينَما وَقَفَ الرِّجالُ الثَّلاثَةُ حَوْلَ التّابوتِ . وَكانَ فَان هِيلْسِينْغ يَحْمِلُ حَقيبَةً طَويلَةً .

وَقالَ فَان هِيلْسِينْغ : « دُكْتُور سِيوارْد ، حِينَما غادَرْنا هٰذِهِ اَلـمَقْبَرةَ صَباحَ اَلْيَوْمِ كانَتْ جُثَّةُ لُوسي فِي تابوتٍ ، أَلَيْسَ كَذٰلِكَ ؟ »

أَجابَ سِيوارْد : « بَلَى . لَقَدْ كانَتْ فِي التّابوتِ يابُروفِيسور . »

فَقالَ فَان هِيلْسِينْغ بِطَريقَةِ اَلْحُواةِ وَالسَّحَرةِ : « سَأَفْتَحُ التّابوتَ اَلآنَ . »

ثُمَّ فَتَحَهُ ، وَنَظَرَ اَلجَميعُ ، فَإِذا هُوَ خالٍ . وَغَشِيَ اَلجَميعَ صَمْتٌ طَويلٌ ، ثُمَّ قالَ آرْثَر فِي صَوْتٍ خافِتٍ : « بُروفِيسور ، أَعْلَـمُ أَنَّكَ لَـمْ تَكُنْ لِتَنْقُلَ جُثَّتَها ، فَمَنِ الَّذي نَقَلَها ؟ مَنْ ذا الَّذي يَسْتَطيعُ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا كَهٰذا ؟ »

فَلَـمْ يُجِبْ فَان هِيلْسِينْغ ، وَإِنَّما خَرَجَ مِنَ اَلـمَقْبَرةِ وَهُما يَتْبَعانِهِ . ثُمَّ أَوْصَدَ اَلبابَ ، وَأَخْرَجَ مِنْ حَقيبَتِهِ بَعْضَ اَلخُبْزِ اَلـمَلْفوفِ فِي قِطْعَةِ قُماشٍ بَيْضاءَ ، وَأَخَذَ يَطْوِيهِ بَيْنَ أَصابِعِهِ ، ثُمَّ دَسَّهُ فِي اَلفَراغِ اَلَّذي بَيْنَ اَلبابِ وَحَجَرِ اَلـمَقْبَرةِ اَلَّذي يُحيطُ بِهِ ، وَكَذٰلِكَ فِي ثَقْبِ اَلقُفْلِ ، وَقالَ وَهُوَ يَفْعَلُ ذٰلِكَ :

« هٰذا خُبْزٌ مُقَدَّسٌ بُورِكَ فِي اَلكَنيسةِ ، وَسَأُغْلِقُ اَلـمَقْبَرةَ حَتّى لا يَسْتَطيعَ أَيُّ كائِنٍ شِرِّيرٍ أَنْ يَدْخُلَها . »

فَسَأَلَهُ آرْثَر وَهُوَ لا يَزالُ تَحْتَ تَأْثيرِ الصَّدْمَةِ اَلَّتي أَصابَتْهُ بِسَبَبِ اِخْتِفاءِ جُثَّةِ لُوسي : « وَماذا بَعْدَ ذٰلِكَ ؟ »

فَأَجاب فَان هِيلْسِينْغ : « وَالآنَ اسْتَعِدُّوا ، فَإِنَّكُمْ فِي حاجَةٍ إِلى قُدْرةٍ عَقْلِيَّةٍ عالِيَةٍ ، فَهَيّا بِنا نَنْتَظِرُ خَلْفَ هٰذِهِ الشَّجَرةِ حَيْثُ نَسْتَطيعُ أَنْ نَرى اَلـمَقْبَرةَ . »

كانَ فَان هِيلْسِينْغ يَتَحَدَّثُ كَما لَوْ كانَ يَعْرِفُ تَمامًا ما اَلَّذي سَيَحْدُثُ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ فِي اَلوَقْتِ نَفْسِهِ يَشْعُرُ بِالشَّكِّ وَالخَوْفِ . لَقَدْ كانَ فِي حالَةِ اِنْجِذابٍ إِلى أَعْماقٍ سَحيقَةٍ مِنَ اَلعالَـمِ اللّاطَبيعِيِّ .. عالَـمِ اللّامَوْتى اَلَّذي يُطْلَقُ عَلى مَصّاصي الدِّماءِ . وَحِينَما نَظَرَ حَوْلَهُ كانَ يُخالِجُهُ شُعورٌ بِأَنَّهُ لَـمْ يَرَ قَطُّ فِي اللَّيْلِ مَكانًا مِثْلَ هٰذا يُنْبِئُ بِشَرٍّ كَثيرٍ . كانَتْ أَحْجارُ اَلقُبورِ يَلْـمَعُ بَياضُها كَمَثَلِ عِظامِ اَلـمَوْتى ، وَكُلَّما هَبَّتِ الرِّيحُ خُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَسْمَعُ حَرَكَةَ أَجْنِحَةٍ تُرَفْرِفُ ، وَحَرَكَةَ أَشْياءَ فِي اَلعُشْبِ تَزْحَفُ ، وَأَيْقَنَ أَنَّهُ ما كانَ لِيَسْتَطيعَ أَنْ يَظَلَّ فِي هٰذا اَلـمَكانِ لَوْ أَنَّهُ كانَ وَحْدَهُ .

لَـمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْهُم يَنْبِسُ بِكَلِـمةٍ ، بَلْ إِنَّ الرِّيحَ تَوَقَّفَتْ أَخيرًا وَخَلَّفَتْ وَراءَها سُكونًا كَسُكونِ اَلأَحْلامِ ، وَانْقَضَتْ ساعَةٌ أَعْقَبَها صَوْتٌ .

كانَ جاك سِيوارْد قَدْ شَهَقَ حينَ لَـمَحَ شَيْئًا ، وَأَشارَ بِيَدِهِ . كانَ هُناكَ عَلى مَسافَةٍ مِنْهُمْ شَكْلٌ أَبْيَضُ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ صَفَّيْنِ مِنَ اَلأَشْجارِ حامِلًا شَيْئًا ما بَيْنَ ذِراعَيْهِ ، ثُمَّ تَوَقَّفَ فِي بُقْعَةٍ انْعَكَسَ عَلَيْها ضَوْءُ اَلقَمَرِ ، فَإِذا اَلـمَشْهَدُ هٰذِهِ اَلـمَرَّةَ واضِحًا كُلَّ اَلوُضوحِ . كانَتْ سَيِّدَةً ذاتَ شَعْرٍ ذَهَبِيٍّ ، تَأْتَزِرُ بِقُماشٍ أَبْيَضَ كَقُماشِ اَلأَكْفانِ ، وَتَتَقَدَّمُ إِلى اَلأَمامِ مُمْسِكَةً بِطِفْلٍ صَغيرٍ ، وَتَقَدَّمَتِ السَّيِّدَةُ حَتّى أَصْبَحَتْ قَريبَةً مِنْهُم بِحَيْثُ أَمْكَنَهُمْ أَنْ يَتَبَيَّنوها .. كانَتْ لُوسي .

وَلٰكِنَّ لُوسي اَلَّتي تَغَيَّرَتْ كَثيرًا كانَتْ شَفَتاها تَقْطُرانِ بِدِماءِ الطِّفْلِ الطّازَجةِ ، وَكانَ الدَّمُ يَسيلُ عَلى وَجْهِها حَتّى صَبَغَ اَلقُماشَ اَلأَبْيَضَ اَلَّذي تَأْتَزِرُ بِهِ .

وَتَقَدَّم ڤان هِيلْسِينْغ خُطُواتٍ إلى الأَمامِ ، وَما كادَتْ تَراهُ حَتَّى انْسَحَبَتْ إلى الخَلْفِ مُحْدِثَةً زَمْجَرَةً غاضِبَةً ، وَأَلْقَتِ الطِّفْلَ الَّذي كانَتْ ــ حَتَّى الآنَ ــ تَحْتَفِظُ بِهِ بَيْنَ يَدَيْها كَما يَحْتَفِظُ الكَلْبُ بِعَظْمَةٍ ، فَصَرَخَ صَرْخَةً أَلِيمَةً تَأَثَّرَ لَها آرْثَر ، فَأَطْلَقَ بِدَوْرِهِ صَيْحَةً لَمْ تَكَدْ لُوسي تَسْمَعُها حَتَّى تَغَيَّرَتْ ثانِيَةً . فَقَدْ رَأَتْ آرْثَر وَمَدَّتْ إحْدَى يَدَيْها نَحْوَهُ بِطَرِيقَةٍ عَفَوِيَّةٍ ، نَفْسِ طَرِيقَةِ لُوسي الَّتي أَلِفَها ، ثُمَّ قالَتْ : « آرْثَر ، دَعْ أَصْدِقاءَكَ وَتَعالَ مَعي . »

كانَتْ هُناكَ نَغْمَةٌ حُلْوَةٌ في صَوْتِها ، بَلَغَ مِنْ حَلاوَتِها أَنَّ ڤان هِيلْسِينْغ نَفْسَهُ شَعَرَ بِانْجِذابٍ إلَيْها . أَمّا آرْثَر فَقَدْ وَقَفَ كَأَنَّما مَسَّهُ سِحْرٌ . فَتَبَسَّمَتْ لَهُ ثانِيَةً ، فَتَقَدَّمَ نَحْوَها ، وَلٰكِنَّ ڤان هِيلْسِينْغ كانَ بِالمِرْصادِ ، وَقَبْلَ أَنْ تُطْبِقَ لُوسي بِأَسْنانِها عَلَى عُنُقِ آرْثَر وَثَبَ إلى الأَمامِ رافِعًا أَمامَهُ صَلِيبَهُ الذَّهَبِيَّ الصَّغيرَ . وَلَمْ يَكَدْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ حَتَّى صَرَخَتْ صَرْخَةً ضارِيَةً كَما لَوْ كانَ قَدْ لَمَسَها حَديدٌ مُحَمًّى أَحْمَرُ ، وَقَفَزَتْ إلى الوَراءِ ، ثُمَّ جَرَتْ نَحْوَ بابِ المَقْبَرَةِ ، وَلٰكِنَّها تَوَقَّفَتْ هُناكَ ثانِيَةً إذْ إنَّ ڤان هِيلْسِينْغ كانَ قَدْ أَدّى عَمَلَهُ بِنَجاحٍ . وَأَخيرًا لَمْ تَجِدْ مَفَرًّا مِنْ أَنْ تَجْرِيَ خِلالَ ظِلِّ شَجَرَةٍ . وَكانَ كُلُّ ما اسْتَطاعوا أَنْ يُشاهِدوهُ مِنْها هُوَ بَياضَ أَسْنانِها وَهِيَ تَلْمَعُ في الظَّلامِ .

وَسادَ السُّكونُ حَيْثُ صارَ كُلٌّ مِنَ الحَيِّ وَاللّامَيِّتِ في حالَةِ ذُهولٍ . وَفي النِّهايَةِ اسْتَدارَ ڤان هِيلْسِينْغ نَحْوَ آرْثَر ــ وَالصَّليبُ لا يَزالُ مَرْفوعًا في يَدِهِ ــ وَسَأَلَهُ في صَوْتٍ مُرْتَجِفٍ : « هَلْ أَسْتَمِرُّ في عَمَلي ؟ »

فَجَثا آرْثَر عَلى رُكْبَتَيْهِ ، وَغَطّى وَجْهَهُ بِيَدَيْهِ قائِلًا : « اِفْعَلْ ما تَعْتَقِدُ أَنَّهُ لازِمٌ . لَنْ يَكونَ هُناكَ ما هُوَ أَسْوَأُ مِمّا رَأَيْتُ . »

وَعادَ البُروفِيسور إلى بابِ المَقْبَرَةِ ، وَأَخْرَجَ بَعْضًا مِنَ الخُبْزِ المُقَدَّسِ ، وَفَتَحَ البابَ قَليلًا . أَمّا لُوسي فَكانَتْ كَأَنَّما اجْتَذَبَتْها قُوَّةٌ قاهِرَةٌ لا تَسْتَطيعُ الصُّمودَ أَمامَها ، فَدَلَفَتْ مِنْ ظِلالِ الأَشْجارِ عائِدَةً إلى المَقْبَرَةِ . وَاخْتَفَتْ مِنْ خِلالِ الفَراغِ في فُتْحَةِ البابِ ،

وَحينَذٍ أَعادَ ٱلبُروفِيسور ٱلخُبْزَ إلى مَكانِهِ وَأَغْلَقَ ٱلبابَ ، ثُمَّ قالَ :

« أَيُّها ٱلأَصْدِقاءُ ، لَيْسَ أَمامَنا ما نَسْتَطيعُ عَمَلَهُ قَبْلَ بُزوغِ ضَوْءِ ٱلنَّهار . إِنَّها لا تَسْتَطيعُ ٱلخُروجَ ٱلآنَ فَهِيَ مَنْهُوكَةٌ ، وَلَعَلَّها ضَعيفَةٌ واهِنَةٌ بِسَبَبِ أَنَّها لَمْ تَذُقْ ما يُشْبِعُها لِمُدَّةِ لَيْلَتَيْنِ ، وَسَرْعانَ ما يُدْرِكُها ٱلنُّعاسُ ، وَحينَئِذٍ سَوْفَ نُؤَدِّي مُهِمَّتَنا . »

وَبَيْنَما كانَ ٱلرِّجالُ ٱلثَّلاثَةُ يَنْتَظِرونَ بُزوغَ ٱلشَّمْسِ كانَتِ ٱلأَفْكارُ ٱلضّارِيَةُ تَجولُ في أَذْهانِهِمْ . ثُمَّ ظَهَرَتْ حُمْرَةُ ٱلسَّماءِ وَبَزَغَتِ ٱلشَّمْسُ ، وَٱنْتَظَرَ كُلٌّ مِنْ سِيوارْد وَآرْثَر صُدورَ كَلِمَةٍ مِنَ ٱلبُروفِيسور ، وَلٰكِنْ لَمْ يَبْدُ عَلَيْهِ أَنَّهُ مُتَعَجِّلٌ في ٱلشُّروعِ في ٱلعَمَلِ . وَأَخيرًا أَخْرَجَ ساعَتَهُ ٱلذَّهَبِيَّةَ ٱلثَّقيلَةَ وَنَظَرَ فيها ثُمَّ قالَ : « إِنَّها ٱلسّادِسَةُ وَٱلنِّصْفُ . لَدَيْنا نِصْفُ ساعَةٍ . »

كانَتْ لُوسي مُسْتَغْرِقَةً في نَوْمِها ، وَكانَتْ جَميلَةً مِثْلَما كانَتْ دائِمًا . أَمّا آرْثَر فَكانَ شاحِبًا حَتَّى يُخَيَّلَ إِلَيْكَ أَنَّهُ هُوَ ٱلمَيِّتُ . وَحينَما ٱنْحَنَى فَوْقَ ٱلتّابوتِ أَخَذَ يَنْتَحِبُ عَلانِيَةً . وَلٰكِنَّ ڤان هِيلْسِينْغ لَمْ تَكُنْ أَحاسيسُهُ كَأَحاسيسِ آرْثَر ، وَإِنَّما كانَ بَصَرُهُ مُرَكَّزًا عَلى ٱلدَّمِ ٱلجافِّ ٱلَّذي يُلَطِّخُ فَمَها . فَتَحَ ٱلحَقيبَةَ وَأَخْرَجَ بَعْضَ ٱلآلاتِ ٱلطِّبِّيَّةِ وَٱلمَباضِعِ وَقِطْعَةَ خَشَبٍ غَليظَةً مُدَبَّبَةَ ٱلطَّرَفِ يَبْلُغُ طُولُها نَحْوَ مِتْرٍ ، وَمِطْرَقَةً ثَقيلَةً ، وَقالَ :

« مَصّاصو ٱلدِّماءِ لا يَموتونَ بِٱنْقِضاءِ ٱلعُمْرِ ، وَلٰكِنَّهُمْ يَسْتَمِرُّونَ في ٱلحَياةِ ، يَتَغَذَّونَ بِالدِّماءِ ، وَيُحَوِّلونَ غَيْرَهُمْ إلى مَصّاصي دِماءٍ مِثْلِهِمْ . وَهٰكَذا تَتَّسِعُ دائِرَةُ ٱللّامَوْتى عَلى مَرِّ ٱلأَيّامِ ، وَهٰؤُلاءِ ٱلأَطْفالُ ٱلَّذينَ شَرِبَتْ مِنْ دِمائِهِمْ لَنْ يَتَأَثَّروا كَثيرًا ، أَمّا أُولٰئِكَ ٱلَّذينَ تُشْرَبُ دِماؤُهُمْ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ فَإِنَّهُمْ يَسْتَمْرِئونَها ، فَيَتَعَلَّمونَ حُبَّ مَصّاصِ دَمِهِمْ وَمِنْ ثَمَّ يُصْبِحونَ مَصّاصي دِماءٍ بَعْدَ أَنْ يَموتوا . أَمّا أَنْتَ ياصَديقي آرْثَر فَلَوْ أَنَّكَ كُنْتَ مَنَحْتَها نَفْسَكَ لَكانَ في ذٰلِكَ خَطَرٌ أَيَّ خَطَرٍ عَلَيْكَ ، وَلٰكِنَّ هُناكَ طَريقًا لِكَي نُحَرِّرَ رُوحَ ٱللّامَيِّتِ . نُحَرِّرُها مِنْ حَياةٍ كُلُّها شَرّ ، وَمِنْ آخِرَةٍ كُلُّها عَذابٌ أَبَدِيّ . » ثُمَّ أَشارَ إلى ٱلمِطْرَقَةِ قائِلًا :

« أَعْتَقِدُ أَنَّ أَمامَكَ عَمَلًا مُقَدَّسًا تَقومُ بِهِ .. أَنْ تَضْرِبَ ضَرْبَتَكَ وَتُنْقِذَ رُوحًا . إِنَّني أَسْتَطيعُ أَنْ أَقومَ بِذٰلِكَ ، وَلٰكِنْ أَلَيْسَ مِنَ ٱلأَفْضَلِ لِذٰلِكَ ٱلَّذي أَحَبَّتْهُ كَثيرًا أَنْ يَقومَ هُوَ بِهِ لِيُخَلِّصَها بِنَفْسِهِ ؟ »

فَقالَ آرْثَر : « ياصَديقِيَ ٱلوَفِيَّ ، أَخْبِرْني بِما أَفْعَلُ وَسَوْفَ أَقومُ بِهِ . »

فَقالَ ڤان هِيلْسِينْغ : « رَجُلٌ شُجاعٌ . خُذْ قِطْعَةَ ٱلخَشَبِ هٰذِهِ وَضَعْ طَرَفَها ٱلمُدَبَّبَ عَلى قَلْبِها بِإِحْدى يَدَيْكَ ، وَحينَما أَنْتَهي مِنْ تِلاوَةِ ٱلصَّلاةِ عَلى ٱلمَيِّتِ مِنْ كِتابِ ٱلصَّلَواتِ هٰذا ٱضْرِبْ بِٱسْمِ ٱللهِ . »

وَمَعَ أَنَّ آرْثَر كانَ لا يَزالُ شاحِبًا ، فَإِنَّهُ أَخَذَ قِطْعَةَ ٱلخَشَبِ بِيَدٍ قَوِيَّةٍ ثابِتَةٍ وَٱلمِطْرَقَةَ بِٱلْيَدِ ٱلأُخْرى . وَبَدَأَ ڤان هِيلْسِينْغ في تِلاوَتِهِ بَيْنَما ساعَدَ ٱلدُّكْتور سِيوارْد في وَضْعِ ٱلخَشَبَةِ فَوْقَ ٱلقَلْبِ مُباشَرَةً .

وَما إِنِ ٱنْتَهى ٱلبُروفِيسور مِنَ ٱلصَّلاةِ حَتَّى ضَرَبَ آرْثَر بِكُلِّ ما يَمْلِكُ مِنْ قُوَّةٍ . فَٱهْتَزَّ ٱلجَسَدُ ٱلَّذي في ٱلتّابوتِ ٱهْتِزازًا عَنيفًا كَما لَوْ كانَ تَعَرَّضَ لِصَدْمَةٍ كَهْرَبِيَّةٍ ، وَٱنْفَتَحَ ٱلفَمُ لِيُطْلِقَ صَيْحَةً جَعَلَتْ شَعْرَ رُؤوسِهِمْ يَقِفُ كَأَنَّهُ شَعْرُ فِرْجَوْنٍ . وَأَخَذَ ٱلجَسَدُ كُلُّهُ يَنْقَلِبُ يَمْنَةً وَيَسْرَةً ، وَأَخَذَتِ ٱلأَسْنانُ ٱلحادَّةُ تَنْفَرِجُ وَتَنْطَبِقُ ، حَتَّى ٱحْمَرَّتِ ٱلشَّفَتانِ بِما ٱنْبَثَقَ مِنْهُما مِنْ دَمٍ . وَمَعَ هٰذا فَإِنَّ آرْثَر لَمْ يَتَوَقَّفْ ، وَكانَتْ يَدُهُ ٱليُمْنى تَرْتَفِعُ بِٱلمِطْرَقَةِ ثُمَّ تَهْوي مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ كُلَّما تَوَغَّلَ طَرَفُ ٱلخَشَبَةِ أَعْمَقَ ثُمَّ أَعْمَقَ ، حَتَّى سَكَنَتْ حَرَكَةُ ٱلجَسَدِ ٱلضّارِيَةِ تَمامًا ، وَٱنْتَهى ٱلأَمْرُ .

قالَ ڤان هِيلْسِينْغ : « قَبْلَ أَنْ تُغادِروا ٱلمَقْبَرَةَ ٱلْقُوا نَظْرَةً أَخيرَةً عَلى وَجْهِ لُوسي ، إِنَّها لَيْسَتِ ٱلآنَ واحِدَةً مِنْ عالَمِ ٱللّامَوْتى . »

فَنَظَرَ آرْثَر ، وَكانَ ما قالَهُ ٱلبُروفِيسور صَحيحًا ، فَبَعْدَ كُلِّ ما كانَ مِنْ دِماءٍ وَأَلَمٍ ، كانَتْ لُوسي تَرْقُدُ في سَلامٍ . لَمْ تَعُدْ مَصّاصَةَ دِماءٍ ، وَإِنَّما صارَتْ لُوسي ٱلَّتي أَحَبَّها

وَالَّتي خَلَّصها أخيرًا . وَمالَ عَلَيْها فَقَبَّلَها لِلْمَرَّةِ الأَخيرةِ ، وَسارَ مُتثاقِلًا إلى خارِجِ الْمَقْبَرةِ .. إلى ضَوْءِ الشَّمْسِ .

أمّا الطَّبيبانِ فَقَدْ قَطَعا بَقِيَّةَ قِطْعةِ الخَشَبِ وَتَرَكا الطَّرَفَ الْمُدَبَّبَ في قَلْبِها ، وَحَشَوا فَمَها بِالثُّومِ ، وَفَصلا رَأْسَها عَنْ جَسَدِها ، ثُمَّ أَحْكَما إغْلاقَ التّابوتِ بِالغِطاءِ . وَبَعْدَ خُروجِهِما أَوْصَدَ الْبروفِيسور بابَ الْمَقْبرةِ ، وَأَعْطَى الأَثَرَ الْمِفْتاحَ ، ثُمَّ قالَ :

« لَقَدِ انْتَهى أَوَّلُ جُزْءٍ مِنْ عَمَلِنا ، وَيَبْقَى بَعْدَ ذٰلِكَ الْجُزْءُ الأَعْظَمُ .. أَنْ نَجِدَ سَبَبَ الْبَلاءِ الَّذي نَزَلَ بِلُوسي ثُمَّ نُدَمِّرَهُ . كُلُّ ما أُريدُ أَنْ أَعْرِفَهُ هُوَ : هَلْ أَنْتُما مُسْتَعِدّانِ لِتَتْبَعاني لِمُواجَهةِ مَخاطِرَ أُخْرى ؟ »

فَقالَ جاك سيوارْد : « أَيْنَما تَذْهَبْ فَأَنا مَعَكَ . إنَّهُ واجِبٌ عَلَيْنا أَنْ نَقْضيَ عَلى هٰذا الشَّرِّ . »

وَنَظَرَ الاثْنانِ إلى الأَثَرِ ، وَلٰكِنَّهُما لَمْ يَكونا في حاجةٍ إلى سُؤالِهِ . لَقَدْ كانَتْ تَبْدو في عَيْنَيْهِ نَظْرَةُ الرَّجُلِ الَّذي لا يُريدُ مِنَ الْحَياةِ إلّا شَيْئًا واحِدًا ، وَالَّذي لَنْ يَهْدَأَ لَهُ بالٌ إلّا إذا وَجَدَهُ .

اَلْفَصْلُ اَلْخامِسَ عَشَرَ

وَهٰكَذا جَنَّدَ فان هِيلْسِينْغ جَيْشَهُ الصَّغيرَ ، وَلٰكِنْ أَيْنَ الْعَدُوُّ ؟ ففي حالةِ لُوسي كانَتْ خُطوطُ الْمَعْرَكةِ واضِحةً ، وَالأَمْرُ هاهُنا مُخْتَلِفٌ . وَمَعَ هٰذا ، فَإنَّ فان هِيلْسِينْغ لَمْ يَكُنْ يَسْتَطيعُ الانْتِظارَ حَتّى يَكْشِفَ الْعَدُوُّ عَنْ نَفْسِهِ . لَقَدْ كانَ مِنَ الرِّجالِ الَّذين لا يُحِبُّونَ التَّرَبُّصَ وَالانْتِظارَ . وَفَوْقَ هٰذا ، فَقَدْ كانَ هُناكَ أَثَرٌ يُمْكِنُ أَنْ يُقْتَفى ، أَمّا هٰذا الأَثَرُ فَهُوَ الَّذي قادَهُ في الْيَوْمِ التّالي إلى مَحَطَّةِ پادينغتون حَيْثُ انْتَظَرَ وُصولَ جوناثان وَمِينا هارْكَر .

كانَ جوناثان مُنْذُ عَوْدَتِهِ مِنْ ترانْسيلْڤانْيا يَعيشُ في هُدوءٍ . كانَ قَدْ عانى مِنْ صَدْمةٍ أَليمةٍ ، وَلِذٰلِكَ أَبْقَتْهُ مِينا بَعيدًا عَنْ لَنْدَن . أَمّا الآنَ وَقَدْ تَحَسَّنَتْ حالَتُهُ فَقَدْ قَرَّرَتْ أَنْ يَذْهَبا إلى لَنْدَن لِيَلْتَقِيا بِفان هِيلْسِينْغ الَّذي كانَ قَدْ طَلَبَ لِقاءَهُما مِرارًا .

وَصَلَ الْقِطارُ ، وَعادوا ثَلاثَتُهُمْ إلى الْفُنْدُقِ الَّذي يَنْزِلُ بِهِ فان هِيلْسِينْغ . وَفي الْبِدايةِ رَوَتْ قِصَّةَ إقامَتِها مَعَ لُوسي في هُوِيْتْبي وَما وَقَعَ فيها مِنْ أَحْداثٍ . وَقَدْ أُعْجِبَ الْبروفِيسور أَيَّ إعْجابٍ بِهٰذِهِ الْفَتاةِ الَّتي كانَتْ تَعْرِفُ كَيْفَ تَتَصَرَّفُ في الْمَواقِفِ الصَّعْبةِ . وَبَعْدَ ذٰلِكَ رَوى جوناثان قِصَّتَهُ مَعَ الكونْت دراكولا ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ فان هِيلْسِينْغ بَعْدَ أَنِ اسْتَمَعَ إلَيْهِ أَنْ يَكْتُمَ مَشاعِرَهُ الْمُسْتَثارَةَ فَسَأَلَهُ : « وَلٰكِنْ لِماذا لَمْ تُنْبِئْ أَحَدًا بِكُلِّ هٰذا مِنْ قَبْلُ ؟ »

فَقالَتْ مِينا : « بُروفِيسور ، لَقَدْ مَضَتْ أَسابيعُ قَبْلَ أَنْ يَسْتَرِدَّ عافِيَتَهُ وَيُصْبِحَ قادِرًا عَلى رِوايةِ قِصَّتِهِ لِأَحَدٍ .. حَتّى لي أَنا . ثُمَّ مَنْ تَظُنُّ أَنَّهُ كانَ يُصَدِّقُهُ إلّا أَنا ؟ »

وَحينَئِذٍ أَخْبَرَهُما فان هِيلْسِينْغ بِكُلِّ ما حَدَثَ بَعْدَ مَوْتِ لُوسي ، ثُمَّ قالَ لَهُما : « سَوْفَ تُصَدِّقانِ قِصَّتي كَما صَدَّقْتُ قِصَّتَكُما ، وَلٰكِنْ — كَما تَقولينَ — مَنْ غَيْري وَغَيْرُكُما يُصَدِّقُ ؟ وَهٰذا هُوَ السَّبَبُ في أَنَّنا نَحْنُ الَّذين يَجِبُ أَنْ نُنازِلَ هٰذا الشَّرَّ . إنَّني أَطْلُبُ إلَيْكُما أَنْ تُشارِكانا في هٰذِهِ الْمَعْرَكةِ ، وَلَسَوْفَ نَلْتَقي اللَّيْلَةَ عِنْدَ الدُّكْتور سيوارْد . إنَّكِ يا سَيِّدةُ هارْكَر تَعْلَمينَ أَكْثَرَ مِنْ أَيٍّ مِنّا مَدى الْخَطَرِ الَّذي أَسْأَلُكِ أَنْ تُواجِهيهِ . »

فَتَطَلَّعَتْ مِينا إلى وَجْهِ جوناثان الشّاحِبِ الَّذي زَحَفَتْ إلَيْهِ التَّجاعيدُ ، وَإلى شَعْرِهِ الَّذي وَخَطَهُ ٱلبَياضُ . تَطَلَّعَتْ إلَيْهِ وَفي صَدْرِها حِقْدٌ عَلى قُوَّةِ الشَّرِّ الَّتي جَعَلَتِ الرَّجُلَ الَّذي تُحِبُّهُ يَبْدو مُسِنًّا قَبْلَ ٱلأَوانِ . ثُمَّ قالَتْ : « سَوْفَ أُساعِدُكَ . »

وَقالَ جوناثان أَخيرًا : « إذا ساعَدْتُكَ مِينا فَإنَّني سَأُساعِدُكَ كَذٰلِكَ . »

وَبَدا مِنَ الطَّريقةِ الَّتي نَطَقَ بِها عِبارَتَهُ أَنَّهُ لَمْ يَتَّخِذْ هٰذا ٱلقَرارَ بِسُهولةٍ ، فَقالَ ڤان هِيلْسِينْغ : « سَنَكونُ بِٱنْتِظارِكُما في السّاعةِ السّابِعةِ . إنَّ ما سَمِعْتُهُ مِنْكُما يَجْعَلُني عَلى يَقينٍ أَنَّهُ لَيْسَ لَدَيْنا وَقْتٌ نُضَيِّعُهُ ، وَفي ٱلواقِعِ رُبَّما سَبَقَ السَّيْفُ ٱلعَذَلَ . »

ثُمَّ قالَ بَعْدَ أَنِ ٱجْتَمَعوا وَتَباحَثوا : « وَهٰكَذا أَيُّها ٱلأَصْدِقاءُ ، فَهٰذِهِ هِيَ ٱلحَقائِقُ الَّتي ٱكْتَشَفْناها عَنْ عَدُوِّنا . وَطِبْقًا لِما تَكَشَّفَ لَنا ، فَهُوَ عَدُوٌّ قَوِيٌّ ، وَلٰكِنْ لَهُ مَواضِعُ ضَعْفٍ . وَفَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ ، فَهُوَ في حاجةٍ إلى مَكانٍ يَسْتريحُ فيهِ أَثْناءَ ساعاتِ النَّهارِ ، فَإذا ٱسْتَطَعْنا أَنْ نُباغِتَهُ وَهُوَ في صُنْدوقِهِ فَإنَّنا نَسْتَطيعُ أَنْ نُدَمِّرَهُ . »

فَقالَ سِيوارْد : « إذا ، وَلٰكِنَّنا قَبْلَ ذٰلِكَ نُريدُ أَنْ نَعْرِفَ أَيْنَ هٰذِهِ الصَّناديقُ ؟ »

فَرَدَّ ڤان هِيلْسِينْغ : « نَحْنُ نَعْرِفُ ــ وَٱلفَضْلُ في ذٰلِكَ لجوناثان ــ أَنَّها عَلى بُعْدِ بِضْعِ مِئاتٍ مِنَ ٱلأَمْتارِ مِنَ ٱلحُجْرةِ الَّتي نَجْلِسُ فيها ٱلآنَ في مَنْزِلِ كارْفاكْس ؟ »

فَصاحَ جاك سِيوارْد وَآرْثَر هُولْموود في وَقْتٍ واحِدٍ تَقْريبًا : « في مَنْزِلِ كارْفاكْس ؟ »

كانَ ڤان هِيلْسِينْغ يُحِبُّ أَنْ يُثيرَ دَهْشةَ سامِعيهِ ، وَقَدْ أَحْدَثَتْ كَلِماتُهُ ٱلأَثَرَ الَّذي أَرادَهُ . قالَ : « إنَّ كارْفاكْس هُوَ بَيْتُ دراكولا ، وَلابُدَّ أَنْ تَكونَ الصَّناديقُ فيهِ . »

فقالَ سِيوارْد : « هٰذا يُفَسِّرُ حالةَ رِينْفيلْد ، لابُدَّ أَنَّ دراكولا هُوَ الَّذي أَثارَهُ في ذٰلِكَ ٱليَوْمِ . نَعَمْ ، مُنْذُ أُسْبوعٍ أَوْ أُسْبوعَيْنِ هَرَبَ مِنّا رِينْفيلْد ، وَتَبِعْناهُ إلى أَراضي كارْفاكْس ، إلى أَبْوابِ ٱلكَنيسةِ ٱلقَديمةِ . لابُدَّ أَنْ تَكونَ الصَّناديقُ هُناكَ . »

فَصاحَ آرْثَر : « مَاذا نَحْنُ مُنْتَظِرونَ ؟ هَيّا بِنا . »

وَلَمْ يَكُنْ ڤان هِيلْسِينْغ يُحِبُّ ٱلِاسْتِعْجالَ فَقالَ : « لَيْسَ بِهٰذِهِ السُّرْعةِ . لابُدَّ أَنْ نُعِدَّ أَنْفُسَنا أَوَّلًا . »

ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ صَليبًا صَغيرًا ذَهَبِيًّا وَعَلَّقَهُ حَوْلَ عُنُقِ جوناثان الَّذي كانَ أَقْرَبَ ٱلجَميعِ إلَيْهِ ، وَعَلَّقَ مَعَهُ كَذٰلِكَ عِقْدًا مِنْ زُهورِ الثُّومِ أَخَذَهُ مِنْ صُنْدوقٍ كانَ بِحَوْزَتِهِ ، وَفَعَلَ الشَّيْءَ نَفْسَهُ مَعَ كُلٍّ مِنْ سِيوارْد وَآرْثَر . فَلَمّا جاءَ دَوْرُ مِينا قالَ : « ياسَيِّدَةُ مِينا ، لَنْ أَسْأَلَكِ أَنْ تُشارِكينا في هٰذِهِ ٱلمُهِمَّةِ ، فَهِيَ لَيْسَتْ بِٱلمُهِمَّةِ الَّتي تَقْوى عَلَيْها النِّساءُ . لَقَدْ كانَتْ رِحْلَتُكِ ٱليَوْمَ طَويلةً شاقَّةً ، وَمِنْ حَقِّكِ أَنْ تَسْتَريحي . »

فَقالَتْ مِينا إنَّها لَيْسَتْ مُرْهَقةً ، وَإنَّها تَرْغَبُ في الذَّهابِ مَعَهُمْ ، وَلٰكِنَّ ڤان هِيلْسِينْغ لَمْ يَرْضَخْ لِرَغْبَتِها ، وَخَرَجَ الرِّجالُ ٱلأَرْبعةُ وَحْدَهُمْ تَحْتَ سِتارِ اللَّيْلِ . كانَ جاك سِيوارْد قَدْ أَحْضَرَ مَعَهُ مَجْموعةً مِنَ ٱلمَفاتيحِ ٱلقَديمةِ مُعَلَّقةً في حَلْقةٍ ، وَحاوَلَ أَنْ يَفْتَحَ بابَ ٱلكَنيسةِ بِأَرْبَعةَ عَشَرَ مِفْتاحًا ، واحِدًا بَعْدَ ٱلآخَرِ ، فَلَمْ يُفْلِحْ . أَمّا ٱلخامِسَ عَشَرَ فَقَدْ دارَ في ٱلقُفْلِ فَٱنْفَتَحَ ٱلبابُ إلى الدّاخِلِ دونَ أَنْ يَدْفَعَهُ أَحَدٌ ، كَما لَوْ كانَ ثَمَّةَ من يَتَوَقَّعُ قُدومَهُمْ . وَكانَ أَوَّلَ مَنْ دَخَلَ ڤان هِيلْسِينْغ الَّذي رَسَمَ بِيَدِهِ ٱليُمْنى في ٱلهَواءِ عَلامةَ الصَّليبِ . كانَتِ ٱلأَرْضُ مُغَطّاةً بِطَبَقةٍ سَميكةٍ مِنَ التُّرابِ مِمّا جَعَلَ كَثيرًا مِنْ آثارِ ٱلأَحْذِيةِ الَّتي وَطِئَتْها واضِحةً عَلَيْها ، وَكانَ أَحَدُها أَكْثَرَ وُضوحًا لِقُرْبِ عَهْدِهِ . أَمّا الشَّيْءُ الَّذي لَفَتَ أَنْظارَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ فَقَدْ كانَ الرّائِحةَ النَّفّاذةَ ، إذْ لَمْ يَكَدْ جوناثان يَشُمُّها حَتّى قالَ : « إنَّها أَنْفاسُهُ . إنَّني أَذْكُرُ رائِحَتَها جَيِّدًا . »

وَوَقَعَتْ أَنْظارُهُمْ عَلى ٱلفَوْرِ عَلى الشَّيْءِ الَّذي جاءوا مِنْ أَجْلِهِ ، فَقَدْ كانَتْ صَناديقُ التُّرابِ مَرْصوصةً بِجِوارِ ٱلجِدارِ واحِدًا فَوْقَ ٱلآخَرِ ، وَلٰكِنْ كَمْ كانَ عَدَدُها ؟ لَقَدْ أَظْهَرَ ٱلحَصْرُ ٱلعاجِلُ أَنَّ تِسْعةً وَعِشْرينَ فَقَطْ كانَتْ هُناكَ ، وَذٰلِكَ مِنَ الخَمْسينَ صُنْدوقًا .

وَحَرَّكَ ڤان هِيلْسِينْغ لِسانَهُ بِسِبابٍ خافِتٍ ، ثُمَّ قالَ : « إنَّ العَدُوَّ لايَزالُ مُتَقَدِّمًا عَلَيْنا . »

ثُمَّ بَدَأَ يُعيدُ عَدَّ الصَّناديقِ : « إِثْنانِ وَعِشْرونَ ، ثَلاثَةٌ وَعِشْرونَ .. »

ثُمَّ تَوَقَّفَ إِذْ كانَ آرْثَر يَجْذِبُ ذِراعَهُ لِيُنَبِّهَهُ إِلى شَيْءٍ ما ، وَقالَ آرْثَر : « أَلا تُلاحِظُ أَنَّ الـمَكانَ أَقَلُّ إِظْلامًا مِمّا كانَ ؟ »

فَتَوَقَّفوا جَميعًا عَنِ الْعَدِّ وَتَطَلَّعوا حَوْلَهُمْ . كانَ كُلُّ رُكْنٍ مِنْ أَرْكانِ الـمَبْنى مُمْتَلِئًا بِما يُشْبِهُ نُقَطًا نارِيَّةً حَمْراءَ ، ثُمَّ كانَتْ هُناكَ تَحَرُّكاتٌ صَغيرةٌ صَحِبَتْها أَصْواتٌ خَفيفةٌ . وَوَقَفَ الْجَميعُ يُحَدِّقونَ فَتْرَةً قَصيرةً ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثوا أَنْ فَهِموا كُلَّ شَيْءٍ . كانَتِ الْكَنيسةُ تَموجُ بِمِئاتٍ بَلْ بِآلافِ الْجُرْذانِ . وَجَرَى الْجَميعُ نَحْوَ الْبابِ ، وَلَكِنَّ الْجُرذانَ جَرَتْ نَحْوَهُمْ . كانَتْ هُناكَ جُرْذانٌ تَحْتَ أَقْدامِهِمْ ، وَجُرْذانٌ تَجْري فَوْقَ أَقْدامِهِمْ ، وَجُرذانٌ تَتَسَلَّقُ فَوْقَ سَراويلِهِمْ ، وَجُرذانٌ في شَعْرِ رُؤوسِهِمْ . أَمّا الْجُرْذانُ السِّمانُ الطِّوالُ فَقَدْ تَعَلَّقَتْ بِأَسْنانِها في مَلابِسِهِمْ ، وَكُلَّما نَفَضوها عَنْهُمْ حَلَّ مَحَلَّها الْمَزيدُ وَالْمَزيدُ ، وَكانَتْ عُيونُها تَلْمَعُ في الظَّلامِ .

وَبَعْدَ لَأْيٍ اسْتَطاعوا أَنْ يَبْلُغوا الْبابَ ، وَمَعَ أَنَّهُمْ شَعَروا بِالأَمانِ في الْخارِجِ فَإِنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ لَمْ يَنْطَلِقْ لِسانُهُ بِكَلِمةٍ إِلّا بَعْدَ مُضِيِّ فَتْرةٍ مِنَ الزَّمَنِ . وَأَخيرًا قالَ ڤان هِيلْسِينْغ : « عِنْدَما نَعودُ غَدًا فَمِنَ الْخَيْرِ أَنْ يُحْضِرَ آرْثَر كِلابَهُ مَعَهُ . »

فَصاحَ سِيوارْد : « غَدًا ؟ إِنَّني لا أُريدُ الْعَوْدَةَ إِلَى هُنا أَبَدًا . »

فَرَدَّ ڤان هِيلْسِينْغ : « إِنَّنا مُضْطَرُّونَ إِلى الْعَوْدَةِ رَضينا أَمْ كَرِهنا . لابُدَّ أَن نُدَمِّرَ الصَّناديقَ . »

وَفي الْحَقيقَةِ لَمْ يَكُنْ ڤان هِيلْسِينْغ يُفَكِّرُ في الصَّناديقِ الَّتي يَعْتَزِمونَ تَدْميرَها ، وَإِنَّما الَّذي كانَ يُقْلِقُهُ هُوَ الصَّناديقُ الَّتي لَيْسَتْ هُناكَ . إِنَّ واحِدًا وَعِشْرينَ صُنْدوقًا قَدْ نُقِلَتْ مِنْ كارْفاكْس وَلابُدَّ مِنَ الْعُثورِ عَلَيْها .

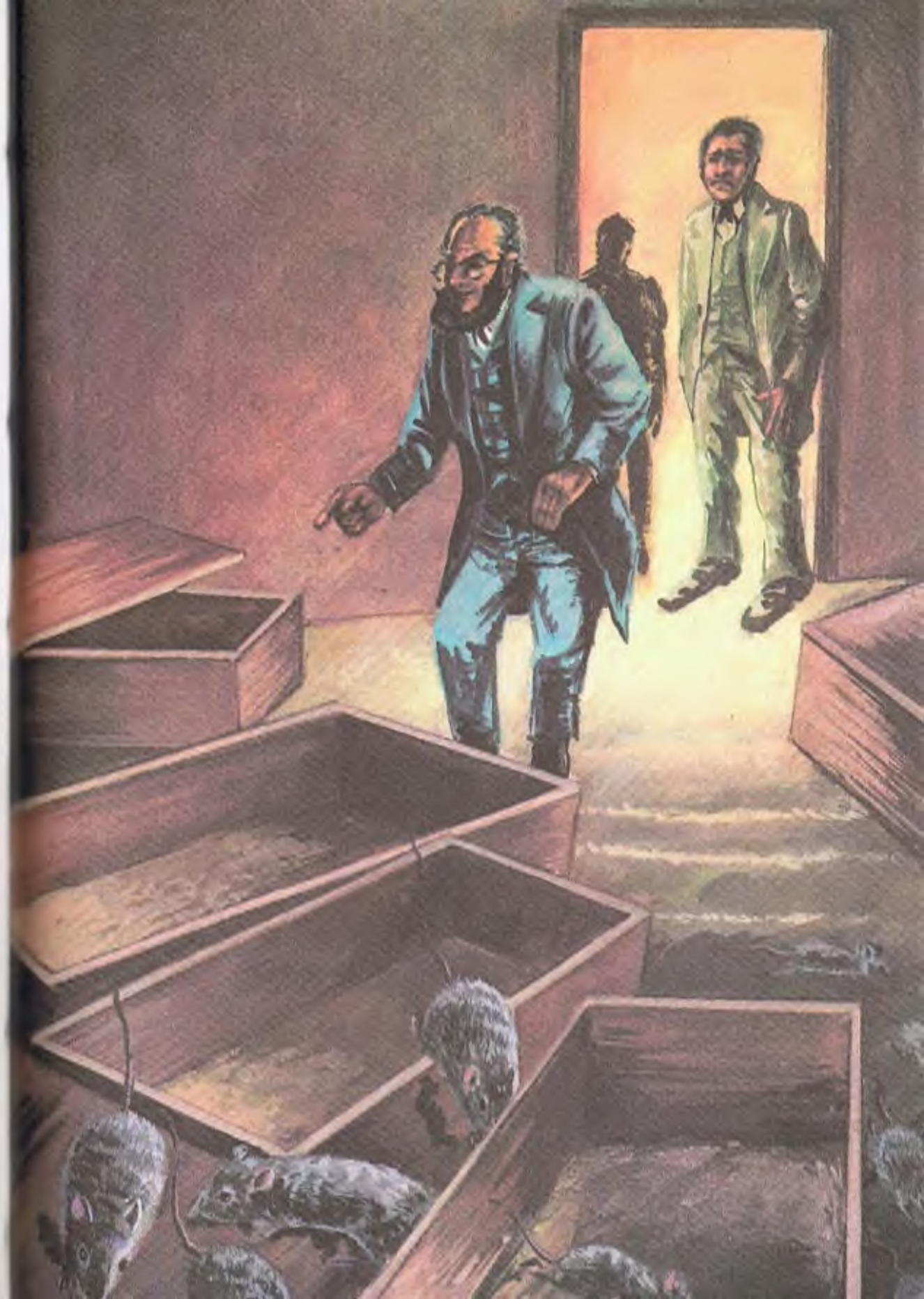

اَلْفَصْلُ السَّادِسَ عَشَرَ

بَيْنَما الرِّجالُ اَلأَرْبعةُ جالِسونَ حَوْلَ اَلـمائِدةِ يَتناوَلونَ طَعامَ اَلإفْطارِ قال ڤان هِيلْسِينْغ : « واحِدٌ وَ عِشْرونَ صُنْدوقًا مَفْقودةً ، وَ مِنَ اَلـمُحْتَمَلِ أَنْ تَكونَ في أَيِّ مَكانٍ . »

فَقالَ آرْثَر : « إنَّ واحِدًا وَ عِشْرينَ صُنْدوقًا تُؤَلِّفُ حِمْلًا كَبيرًا ، فَإذا كانَتْ قَدْ نُقِلَتْ نَهارًا فَمِنَ اَلـمُحْتَمَلِ أَنْ يَكونَ بَعْضُ اَلَّذينَ في اَلـمُسْتَشْفَى قَدْ لاحَظوا نَقْلَها . وَ مَعَ ذٰلِكَ فَإنَّ كارْفاكْس قَريبةٌ جِدًّا ، وَ لا بُدَّ أَنَّ الصَّناديقَ نُقِلَتْ خِلالَ اَلأَسابيعِ اَلثَّلاثةِ اَلأَخيرةِ . »

وَ فَجْأَةً وَ ضَعَ اَلدُّكْتور سِيوارْد فِنْجانَ الشّاي بِعَجَلةٍ عَلى اَلـمائِدةِ وَ سارَعَ بِالْخُروجِ مِنَ اَلْحُجْرةِ ، ثُمَّ عادَ بَعْدَ لَحَظاتٍ وَ في يَدِهِ قُصاصةُ وَرَقٍ ، وَ اَلدَّهْشةُ تَعْلو وُجوهَ أَصْدِقائِهِ ، وَ صاحَ : « كانَ يَنْبَغي أَلّا يَفوتَني اَلتَّفْكيرُ في ذٰلِكَ مِنْ قَبْلُ ... أَعْني : في تَقْريرِ دُكْتور هِينْسي . » ثُمَّ قَصَّ عَلَيْهِمْ قِصَّةَ مُهاجَمةِ رِينْفِيلْد لِحَمّالَيْ عَرَبةِ اَلنَّقْلِ ، وَ كَيْفَ أَنَّ دُكْتور هِينْسي آحْتاطَ لِلْأَمْرِ فَسَجَّلَ آسْمَيْهِما خَشْيَةَ أَنْ تَحْدُثَ مَتاعِبُ مَعَ الشُّرْطةِ فيما بَعْدُ . ثُمَّ قالَ :

« وَ ها هُما اَلإسْمانِ ، توماس سْنِيلِّنْغ ، و جوزيف سْمُولِّيت ، وَ لا بُدَّ أَنَّ رِينْفِيلْد قَدْ عَرَفَ أَنَّهُما كانا يَتْقُلانِ دراكولا في أَحَدِ هٰذِهِ الصَّناديقِ . »

وَ قَدْ أَحَسَّ ڤان هِيلْسِينْغ بِآرْتِياحٍ حينَما سَمِعَ اَلْخَبَرَ اَلَّذي جاءَ بِهِ اَلدُّكْتور سِيوارْد ، وَ بَدَأَ يَضَعُ اَلْخُطَطَ مِنْ جَديدٍ . وَ بِناءً عَلى اَلْخُطَّةِ ذَهَبَ جوناثان إلى لَنْدن لِلْبَحْثِ عَنْ حَمّالَيْ عَرَبةِ اَلنَّقْلِ ، وَ اَلِاهْتداءِ إلى اَلـمَكانِ اَلَّذي نَقَلا إلَيْهِ الصَّناديقَ . أَمّا اَلثَّلاثةُ اَلآخَرونَ فَقَدْ عادوا إلى كارْفاكْس . وَ لَـمْ يَكُنِ اَلـمَكانُ في ضَوْءِ اَلنَّهارِ مُرْعِبًا كَما كانَ بِالأَمْسِ ، وَ لَـمْ تَكُنْ هُناكَ حاجةٌ إلى اَلكِلابِ اَلَّتي أَحْضَرَها آرْثَر مَعَهُ لِتُبْعِدَ اَلْجُرْذانَ ، إذْ لَـمْ يَكُنْ هُناكَ أَيٌّ مِنْها ، وَ لا كانَتْ هُناكَ أَيَّةُ جُثَّةٍ في أَيٍّ مِنَ الصَّناديقِ . وَ لِذٰلِكَ كانَ مِنَ السَّهْلِ عَلى اَلبْرُوفِيسور أَنْ يَفْتَحَ كُلَّ صُنْدوقٍ وَ يَضَعَ في داخِلِهِ قِطْعةً مِنَ اَلْخُبْزِ اَلـمُقَدَّسِ . وَ مَعْنى هٰذا أَنَّهُ لَنْ يَسْتَطيعَ مَصّاصُ دِماءٍ أَنْ يَسْتَقِرَّ فيها بَعْدَ ذٰلِكَ .

لَـمْ تَكُنْ مِينا في صِحَّةٍ طَيِّبةٍ ، وَ كانَتْ تَبْدو شاحِبةَ اَلْوَجْهِ وَ هِيَ تَجْلِسُ لِتَتَناوَلَ

اَلإفْطارَ في اَلوَقْتِ اَلَّذي عادَ فيهِ اَلرِّجالُ . وَ فيما بَعْدُ ، قامَتْ بِجَوْلةٍ في اَلـمُسْتَشْفى مَعَ اَلدُّكْتور سِيوارْد ، وَ كانَ يَرْوي لَها قِصَّةَ رِينْفِيلْد اَلَّتي أَثارَتِ آهْتِمامَها ، حَتّى بَلَغا حُجْرَتَهُ فَدَخَلَتْها مَعَ الطَّبيبِ . كانَ رِينْفِيلْد يَبْدو هادِئًا ، بَلْ لَقَدْ كانَ وَدودًا أَلِيفًا في هٰذا اَلْيَوْمِ ، وَ بدا عَلَيْهِ أَنَّهُ مُعْجَبٌ بِمِينا اَلَّتي آسْتَأْذَنَتِ الطَّبيبَ في أَنْ تَقْضيَ مَعَهُ بَعْضَ اَلوَقْتِ لِتَتَحَدَّثَ إلَيْهِ . وَ بَعْدَ ظُهْرِ ذٰلِكَ اَلْيَوْمِ كانَ دُكْتور سِيوارْد مَشْغولًا بِعَمَلِهِ ، كَما كانَ اَلبْروفِيسور مَشْغولًا بِقِراءةِ كِتابٍ في اَلْحَديقةِ ، أَمّا آرْثَر فَقَدْ أَخَذَ كِلابَهُ في جَوْلةٍ لِلتَّرَيُّضِ . وَ فيما بَعْدُ ، وَصَلَتْ بَرْقِيَّةٌ مِنْ جوناثان يَقولُ فيها إنَّهُ لَـمْ يَنْتَهِ مِنْ تَحَرِّياتِهِ بَعْدُ ، وَ إنَّهُ قَرَّرَ أَنْ يَقْضيَ اللَّيْلَ في لَنْدن . وَ بَعْدَ أَنْ قَضى اَلآخَرونَ أُمْسِيَّةً طَيِّبةً مُجْتَمِعين ، آنْصَرَفوا إلى مَضاجِعِهِمْ واحِدًا بَعْدَ اَلآخَرِ . وَ لٰكِنْ يَبْدو أَنَّ هٰذا اَلْيَوْمَ اَلَّذي آنْقَضى هادِئًا لَـمْ يُعِدَّهُمْ اَلإعْدادَ اَلكافيَ لِـمُواجَهةِ اَللَّيْلةِ اَلَّتي كانَتْ تَنْتَظِرُهُمْ . فَفي اَلدَّقيقةِ اَلعِشْرينَ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ آسْتَيْقَظَ ڤان هِيلْسِينْغ عَلى صَيْحةٍ مُرْعِبةٍ . وَ بَيْنَما هُوَ يَرْتَدي بَعْضَ ثِيابِهِ سَمِعَ وَقْعَ أَقْدامِ شَخْصٍ يَجْري في الدِّهْليزِ نَحْوَ حُجْرةِ الدُّكْتور سِيوارْد . وَ تَبَيَّنَ أَنَّهُ الحارِسُ اللَّيْلِيُّ جاءَ لِيُعْلِنَ أَنَّ رِينْفِيلْد قَدْ أُصيبَ . وَ حينَما وَصَلَ الطَّبيبانِ إلى حُجْرةِ رِينْفِيلْد شاهَداهُ مُمَدَّدًا عَلى اَلأَرْضِ ، وَ أَنَّهُ وُجِّهَتْ إلى رَأْسِهِ ضَرْبةٌ شَديدةٌ هَشَّمَتْ عَظْمةَ الرَّأْسِ وَ ضَغَطَتْها إلى الدّاخِلِ وَ كانَ الرَّجُلُ لايَزالُ حَيًّا ، وَ لٰكِنَّهُ يَتَنَفَّسُ بِصُعوبةٍ .

قالَ ڤان هِيلْسِينْغ : « أَحْضِرْ حَقيبَتَكَ . لا بُدَّ أَنْ نَتَخَلَّصَ مِنَ الضَّغْطِ اَلَّذي تُحْدِثُهُ اَلعَظْمةُ اَلـمَكْسورةُ . لا بُدَّ أَنْ نَقُصَّها فَوْرًا وَ إلّا فَإنَّهُ سَيَموتُ . »

فَرَدَّ سِيوارْد : « سَوْفَ يَمُوتُ لا مَحالةَ . لَقَدْ كانَتِ الضَّرْبةُ في غايةِ اَلعُنْفِ . لا يُمْكِنُ أَنْ تَكونَ الإصابةُ نَتيجةَ مُجَرَّدِ سُقوطٍ . »

قالَ ڤان هِيلْسِينْغ وَ هُوَ يَحْلِقُ الشَّعْرَ اَلـمُلَوَّثَ بِالدَّمِ لِيُنَظِّفَ اَلـمَكانَ اَلَّذي سَيُحْدِثُ فيهِ اَلقَصَّ : « إذا أَمْكَنَهُ أَنْ يُخْبِرَنا بِما حَدَثَ لَهُ فَرُبَّما كانَ هٰذا عَوْنًا لَنا . »

وَ قَدْ نَجَحَتْ مُحاوَلاتُ الطَّبيبَيْنِ وَ ظَهَرَتْ نَتائِجُها في اَلحالِ ، إذِ آنْفَتَحَتْ عَيْنا رِينْفِيلْد وَ بَدَأَتْ شَفَتاهُ تَتَحَرَّكانِ ، ثُمَّ قالَ : « لَقَدْ جاءَ . »

فَقالَ سِيوارْد : « اِسْتَمِرَّ . »

فَمَضى يَقولُ : « .. مِنْ خِلالِ النّافِذةِ في الضَّبابِ ، مِثْلَما جاءَ في اللَّيْلةِ الماضِيةِ . وَعَرَفْتُ أَنَّهُ يَسْعَى إلى دِماءٍ . لَقَدْ كانَتِ السَّيِّدةُ هارْكَر طَيِّبةً مَعي ، وَكانَ يَسْعَى إلى دَمِها ، وَحاوَلْتُ أَنْ أَمْنَعَهُ فَطَرَحَني أَرْضًا . »

وَخَفَتَ صَوتُ رِينْفِيلْد المِسْكينِ حَتَّى أَصْبَحَ مِنَ الصَّعْبِ سَماعُهُ ، ثُمَّ سَكَتَ بَعْدَ ذٰلِكَ .

وَجَسَّ دُكْتُور سِيوارْد نَبْضَهُ ... لَقَدْ ماتَ !

لِمَ يَنْبِسْ أَيٌّ مِنَ الطَّبِيبَيْنِ بِكَلِمةٍ ، وَإِنَّما انْدَفعا إلى الطّابَقِ العُلْوِيِّ حَيْثُ الْتَقَيا في طَرِيقِهِما بِآرْثَر ، وَاتَّجَهوا مُباشرةً إلى حُجْرةِ مِينا . وَتَوقَّفوا عِنْدَ بابِها وَأَنْصَتوا ، وَكانَ كُلُّ شَيْءٍ هادِئًا في داخِلِ الحُجْرةِ ، فَهَلْ كانَ مِنَ الحِكْمةِ أَنْ يَثِقوا بِما فاهَ بِهِ رَجُلٌ مَجْنونٌ في لَحْظةِ احْتِضارِهِ ؟

وَقالَ ڤان هِيلْسِينْغ وَهُوَ يُحاوِلُ فَتْحَ البابِ في حَذَرٍ وَرِفْقٍ : « إِنَّها مَسْأَلةُ حَياةٍ أَوْ مَوْتٍ . »

كانَ البابُ مُوصَدًا ، فَاندَفَعَ آرْثَر عَلى الفَوْرِ وَألْقى بِجِسْمِهِ عَلَيْهِ بِكُلِّ ما يَمْلِكُ مِنْ قُوَّةٍ ، فَانْفَتَحَ البابُ عَلى مِصْراعَيْهِ مِمَّا أَدّى إلى أَنْ يَهْوِيَ البُروفِيسور عَلى الأَرْضِ . وَحينَ نَهَضَ عَلى رُكْبَتَيْهِ وَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلى مَنْظَرٍ جَمَّدَ الدَّمَ في عُروقِهِ ، وَظَلَّ لَحْظةً لا يَسْتَطيعُ أَنْ يَرْفَعَ نَفْسَهُ عَنِ الأَرْضِ .

كانَ دراكولا واقِفًا ، وَكانَ ظَهْرُهُ مُسْتَنِدًا إلى الجِدارِ الَّذي في أَقْصى الحُجْرةِ ، وَكانَ يُمْسِكُ بِمِينا لَصيقةً بِهِ ، وَذِراعُهُ اليُمْنى تَقْبِضُ عَلى رَأْسِها وَتَدْفَعُ بِهِ نَحْوَ صَدْرِهِ . كانا يَبْدوانِ لِأَوَّلِ وَهْلةٍ كَأَنَّهُما عاشِقانِ . وَلٰكِنَّ ڤان هِيلْسِينْغ لَمَحَ جُرْحًا مَفْتوحًا في عُنُقِ مَصّاصِ الدِّماءِ ، وَخَطًّا رَفيعًا مِنَ الدَّمِ يَسيلُ عَلى صَدْرِهِ . كانَ دراكولا يَضْغَطُ عَلى وَجْهِ مِينا إلى أَسْفَلَ فَوْقَ صَدْرِهِ لِيُرْغِمَها عَلى أَنْ تَشْرَبَ مِنْ دَمِهِ كَما يُرْغِمُ المَرْءُ قِطًّا صَغيرًا عَلى شُرْبِ اللَّبَنِ .

وَمِنْ حُسْنِ الحَظِّ ، أَنَّ دراكولا قَدْ أُخِذَتْهُ المُفاجَأَةُ كَما أُخِذَتْهُم ، فَقَدْ كانَتْ عَيْناهُ تَبْدُوانِ كَدائِرَتَيْنِ مِنْ نارٍ ، بَيْنَما كانَ فَمُهُ مَفْغورًا ، وَبادَرَ إلى إِلْقاءِ مِينا عَلى السَّريرِ وَقَدِ

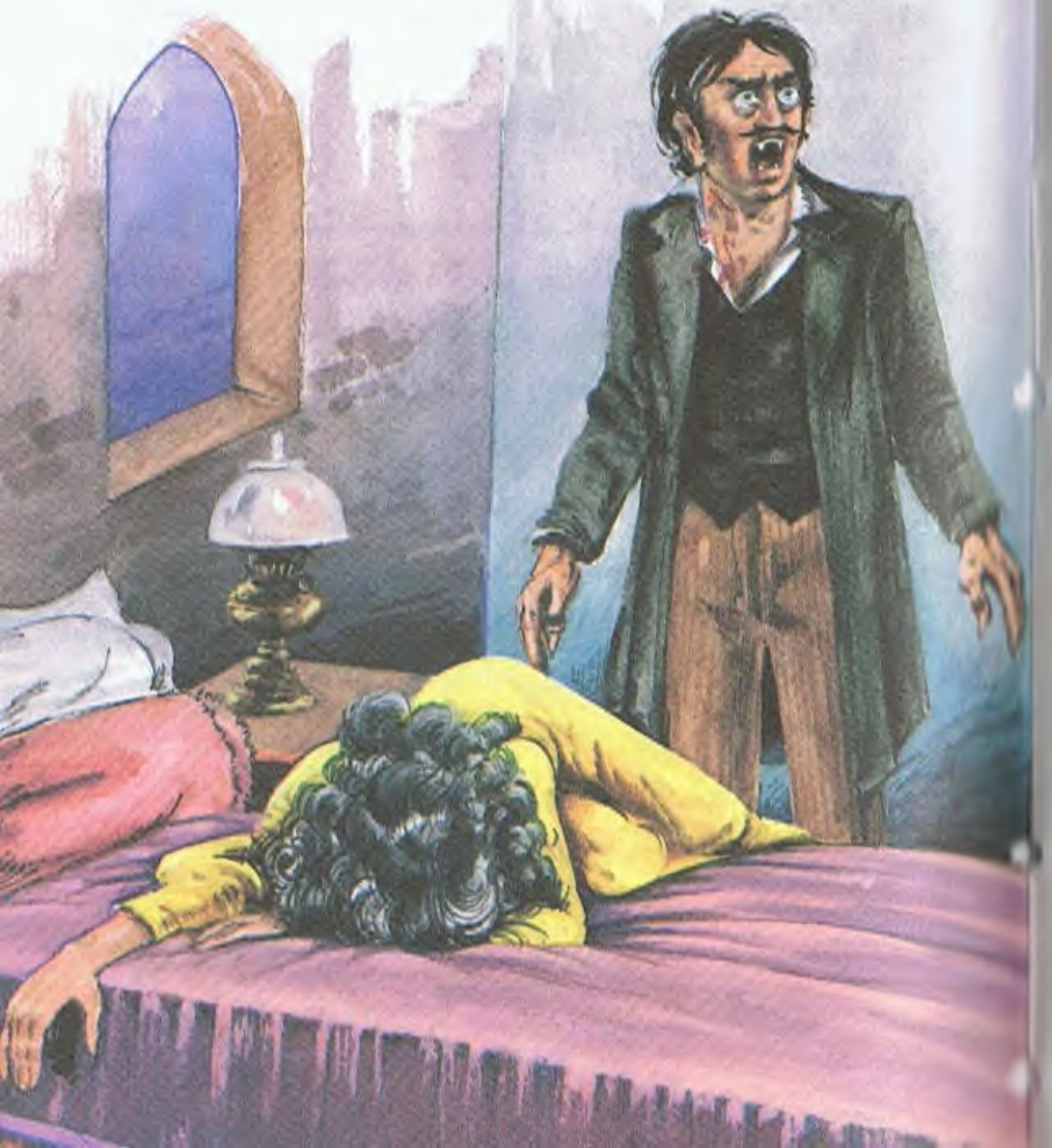

آحْمَرّ وَجْهُها وَ قَميصُ نَوْمِها مِمَّا عَلَقَ بِها مِنْ دِماءٍ . وَ في اللَّحْظَةِ الَّتي كانَ يَتَأَهَّبُ فيها لِكَي يَقْفِزَ كانَ ڤان هِيلْسِينْغ قَدْ تَمَكَّنَ مِنَ آلوقوفِ عَلى قَدَمَيْهِ وَ رَفَعَ الصَّليبَ في يَدِهِ وَ وَجَّهَهُ نَحْوَ دراكولا ، وَ آقتَدى بِهِ كُلٌّ مِنْ سيوارْد وَ آرْثَر بِصَليبَيْهِما . أَمَّا مَصَّاصُ الدِّماءِ فَقَدْ أُطْلِقَ صَرْخَةً ، وَ في اللَّحْظَةِ نَفْسِها تَسَلَّلَتْ ضَبابَةٌ إلى آلحُجْرَةِ وَ خَيَّمَتْ عَلَيْها ، وَ لَمْ تَكَدْ تَنْقَشِعُ حَتَّى كانَ آلكونْت قَدْ ذَهَبَ .

وَ آنقَضَتْ ساعةٌ قَبْلَ أَنْ تَسْتَعيدَ مينا قُدْرَتَها عَلى آلكَلامِ ، إذْ كانَتِ الصَّدْمَةُ الَّتي أَصابَتْها شَديدَةً . قالَتْ مينا : « لَقَدْ كانَ أَشْبَهَ بِحُلْمٍ .. حُلْمٍ رَأَيْتُهُ في اللَّيْلَةِ السَّابِقَةِ كُنْتُ عَلى وَشْكِ أَنْ يُدْرِكَني النُّعاسُ حينَما ظَهَرَ إلى جواري رَجُلٌ لامِعُ آلعَيْنَيْنِ ، وَ وَضَعَ يَدَيْهِ عَلَيَّ ، فَخارَتْ قُواي كُلُّها . ثُمَّ .. » وَ بَدا كَأَنَّما تُعاني مَشَقَّةً في آلاسْتِمْرارِ في كَلامِها ثُمَّ قالَتْ : « ثُمَّ فَتَحَ قَميصَهُ ، وَ أَنْشَبَ أَظافِرَهُ في عُنُقِهِ فَأَحْدَثَ جُرْحًا نَزَفَتْ دِماؤُهُ ، وَ جَعَلَني أَشْرَبُ مِنْ دَمِهِ . وَ بَيْنَما كُنْتُ أَشْرَبُ ، وَ كانَ ذٰلِكَ رَغْمًا عَنّي ... بَيْنَما كُنْتُ أَشْرَبُ .. قالَ .. » ثُمَّ تَوَقَّفَتْ .

فَقالَ ڤان هِيلْسِينْغ : « حاوِلي آلاسْتِمْرارَ يا عَزيزَتي . »

فَمَضَتْ تَقولُ : « قالَ : آلآنَ أَصْبَحْنا وَ لَنا دَمٌ واحِدٌ ، وَ عَقْلٌ واحِدٌ . لَقَدْ ساعَدْتِ أَعْدائي ، وَ لٰكِنَّكِ سَوْفَ تُساعِدينَني عاجِلًا . »

لَمْ يَتَكَلَّمْ أَحَدٌ ؛ إذ ماذا يُمْكِنُ أَنْ يَقولوا لِيُساعِدوها ؟ وَ مَضَتْ مينا تَقولُ وَ الدُّموعُ تَنْهَمِرُ مِنْ عَيْنَيْها ، وَ هِيَ تُمْسِكُ بِيَدَيْ ڤان هِيلْسِينْغ : « وَ لٰكِنْ هَلْ صَحيحٌ يا بُروفيسور ؟ هَلْ سَأَظَلُّ أَسيرَةً لدراكولا مُرْتَبِطَةً بِهِ إلى آلأَبَدِ ؟ وَ حينَما أَموتُ ، أَلا بُدَّ أَنْ أُصْبِحَ واحِدَةً مِنْ هٰؤُلاءِ ؟ »

فَرَدَّ ڤان هِيلْسِينْغ وَ هُوَ يَبْدو أَكْبَرَ سِنًّا وَ أَشَدَّ بَياضَ شَعْرٍ مِمَّا هُوَ : « يا آبْنَتي ، إنَّكِ مَعَ أَصْدِقاءَ يُضَحُّونَ بِحَياتِهِمْ لِكَيْ تَكوني آمِنَةً . لَقَدْ تَهاوَنّا في آلحِفاظِ عَلَيْكِ ، وَ لٰكِنَّنا لَنْ نَتَهاوَنَ بَعْدَ آلآنَ . إذا كانَ دراكولا يَظُنُّ أَنَّه كَسَبَ شَيْئًا في هٰذِهِ آلجَوْلَةِ فَهُوَ مُخْطِئٌ . لَقَدْ كانَ لَدَيْنا مِنْ قَبْلُ سَبَبٌ كافٍ يَدْفَعُنا لِتَدْميرِهِ ، أَمَّا آلآنَ فَإِنَّ هٰذا السَّبَبَ أَصْبَحَ أَقْوى مِمَّا كانَ أَلْفَ مَرَّةٍ . »

آلْفَصْلُ آلسّابِعَ عَشَرَ

عادَ جوناثان في الصَّباحِ التّالي وَ هُوَ يَشْعُرُ ــ عَلى غَيْرِ آلعادَةِ ــ بِالرِّضا عَنْ نَفْسِهِ ، فَقَدِ آهتَدى إلى ثَلاثَةِ أَماكِنَ أُرْسِلَتْ إلَيْها الصَّناديقُ . فَخَمْسَةٌ مِنْها أُرْسِلَتْ إلى مايل إند في شَرْقِ لَنْدَن ، وَ سَبْعَةٌ إلى وولوارث في جَنوبِ لَنْدَن ، وَ تِسْعَةٌ إلى رَقْمِ ١١٨ في بيكاديللي . وَ كانَتْ وُجوهُ أَصْحابِهِ آلحَزينَةُ الَّتي قابَلوهُ بِها في آلـمُسْتَشْفى تَنِمُّ عَنْ أَمْرٍ ما ، مِمَّا جَعَلَهُ مُسْتَعِدًّا لِتَلَقّي آلأَخْبارِ السَّيِّئَةِ عَنْ مينا . وَ مَعَ ذٰلِكَ فَقَدْ وَقَعَ آلخَبَرُ عَلَيْهِ وَقْعَ الصّاعِقَةِ . وَ لَوْلا أَنَّ مينا نَفْسَها كانَتْ في غايَةِ الشَّجاعَةِ لَفَقَدَ كُلَّ ما كانَ قَدِ آسْتَرَدَّهُ مِنْ قُوَّةٍ في آلجِسْمِ وَ آلعَقْلِ في آلأَسابيعِ آلقَليلَةِ آلـماضِيَةِ .

كانَ آلِاجْتِماعُ الَّذي عَقَدَهُ آلأَصْدِقاءُ في مَكْتَبِ الطَّبيبِ لِقاءً غَيْرَ سَعيدٍ . لَقَدْ حَدَثَ تَغَيُّرٌ في اللُّعْبَةِ . فَمِنْ قَبْلُ ، رُبَّما كانَ يَكْفي أَنْ تُدَمَّرَ الصَّناديقُ ، وَ يُضْطَرَّ دراكولا إلى مُغادَرَةِ إنْجِلْترا ، أَمَّا آلآنَ فَقَدْ أَصْبَحَ مِنَ الضَّروريِّ أَنْ يُدَمَّرَ دراكولا نَفْسُهُ إذا أُريدَ إنْقاذُ مينا . لَقَدْ شَرِبَتْ مِنْ دَمِ مَصَّاصِ الدِّماءِ ، وَ لا يَعْلَمُ أَحَدٌ مِنْهُمْ مَتى يَبْدَأُ الشَّرُّ وَ يَقَعُ آلبَلاءُ .

وَ لٰكِنَّهُمْ ــ عَلى آلأَقَلِّ ــ كانوا يَعْلَمونَ آلآنَ إلى أَيْنَ نُقِلَتِ الصَّناديقُ ، وإذا لَمْ يَكُنْ دراكولا قَدْ قامَ بِتَوْزيعِها حَوْلَ لَنْدن ــ مَرَّةً أُخْرى ــ فَمِنَ آلـمُمْكِنِ تَدْميرُها . وَ لٰكِنَّ دُكْتور سيوارْد أَثارَ أَوَّلَ مُشْكِلَةٍ ، إذْ قالَ : « كَيْفَ نَتَمَكَّنُ مِنْ دُخولِ آلـمَنازِلِ الَّتي بِها الصَّناديقُ ؟ »

فَرَدَّ جوناثان مُتَسائِلًا : « كَيْفَ تَمَكَّنَ آلكونْت مِنْ دُخولِها ؟ نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ لَهُ أَساليبَهُ في الدُّخولِ . وَ لٰكِنَّهُ عادَةً ــ يَسْتَخْدِمُ مَفاتيحَ ، وَ لا بُدَّ أَنَّهُ يَحْتَفِظُ بِهٰذِهِ آلـمَفاتيحِ في مَكانٍ ما . وَ مَنْزِلُ بيكاديللي يَقَعُ في وَسَطِ لَنْدَن . وَ لَوْ كُنْتُ مَكانَه لَاحْتَفَظْتُ بِآلـمَفاتيحِ فيهِ . »

فَقالَ الطَّبيبُ : « هٰذا صَحيحٌ . وَ لٰكِنْ لا يَزالُ عَلَيْنا أَنْ نَدْخُلَ هٰذا آلـمَنْزِلَ . وَ لَيْسَ

مِنَ السَّهْلِ أَنْ نَتَسَلَّلَ إلى مَنْزِلٍ كبيرٍ كَهٰذا يَقَعُ في حَيٍّ مأْهولٍ مِنْ أَحْياءِ لَنْدَن ، وَفي ضَوْءِ النَّهارِ ، دونَ أَنْ يُبْلِغَ أَحَدٌ الشُّرْطَةَ . »

وَكانَ الرَّدُّ عِنْدَ آرْثَر الَّذي قالَ : « اُتْرُكوا لي هٰذِهِ المُهِمَّةَ . كُلُّ ما أَحْتاجُ إِلَيْهِ هُوَ مَجْموعةٌ مِنَ الثِّيابِ الثَّمينةِ . »

فَنَظروا إِلَيْهِ مَدْهوشينَ ، وَلٰكِنَّه لَمْ يَلْفِظْ بِكَلِمةٍ ، وَإِنَّما كانَ يَبْدو وَهُوَ مُتَأَكِّدٌ تمامًا أَنَّ آلبُروفِيسور قَرَّرَ أَنْ يَثِقَ في خُطَّتِهِ أَيًّا كانَتْ هٰذِهِ الخُطَّةُ . وَلٰكِنْ بَقِيَتْ هُناكَ صُعوبةٌ واحِدَة ، إِذْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ مَنْ يُمْكِنُ أَنْ يَتْرُكوا مِينا في رِعايَتِهِ .

فَسَأَلَتْ مِينا : « وَلِماذا لا أُصْحَبُكُمْ إلى لَنْدَن ؟ »

فَقالَ آلبُروفِيسور : «لِأَنَّ آلعَمَلَ الَّذي نَقومُ بِهِ لَنْ يَكونَ مِنْ نَوْعِ آلعَمَلِ الَّذي تَتَحَمَّلُ رُؤْيَتَهُ النِّساءُ . »

فَقالَتْ مِينا : « بُروفِيسور ، إِنَّ الَّذي رَأَيتُ مِنْ قَبْل ، وَالَّذي عانَيْتُ مِنْ قَبْل ، لَمْ يَكُنْ مِنْ نَوْعِ آلعَمَلِ الَّذي تَتَحَمَّلُ رُؤْيَتَهُ النِّساءُ ، وَلٰكِنِّي رَأَيْتُهُ وَعانَيْتُهُ . إِنَّني ذاهِبةٌ مَعَكُمْ ، وَسَوْفَ تَرى أَنَّني لَنْ أُخافَ . »

وَفي هٰذِهِ آلمَرَّةِ لَمْ يَكُنْ لَدَى ڤان هِيلْسِينْغ ما يُجيبُ بِهِ ، وَذَهَبَتْ مِينا مَعَهُمْ .

عِنْدَما آقْتَرَبوا مِنْ لَنْدن آرْتَدى آرْثَر آلملابِسَ الثَّمينةَ ، وَبَدا كَأَنَّهُ آبْنُ لُورد ، ثُمَّ غادَرَ آلمَحطَّةَ وَحْدَهُ في عَرَبةٍ ، وَقالَ لَهُمْ وَهُوَ يَتْرُكُهُمْ : « أَمْهِلوني ساعةً واحِدةً فَقَطْ . »

وَبَعْدَ مُضيِّ السَّاعةِ تَمامًا كانَ ڤان هِيلْسِينْغ وَسِيوارْد يَسيرانِ إلى بيكاديللي ، وَعَلى بُعْدِ أَرْبَعينَ مِتْرًا خَلْفَهُما سارَ جوناثان وَمِينا كَأَنَّهُما لا يَعْرِفانِهِما . وَحينَما مَرَّ آلبُروفِيسور وَسِيوارْد بِآلمَنْزِلِ رَقْمِ ١١٨ أَخَذَتْهُما الدَّهْشَةُ إِذْ رَأَيا أَنَّ آلبابَ نِصفُ مَفْتوحٍ وَشاهَدا أَحَدَ آلعُمَّالِ يَقومُ بِعَمَلٍ ما في آلقُفْلِ . فَتَوَقَّفا وَتَظاهَرا بِأَنَّهُما يَتَأَمَّلانِ في مَعْروضاتِ أَحَدِ

المَتاجِرِ آلمُجاوِرةِ ؛ لِكَيْلا يَلْفِتا إِلَيْهِما آلأَنْظارَ . وَقَبْلَ أَنْ يَصِلَ جوناثان وَمِينا فُتِحَ بابُ آلمَنْزِلِ كامِلًا ، وَظَهَرَ آرْثَر مِنَ الدَّاخِلِ فَأَعْطى آلعامِلَ بَعْضَ النُّقودِ ، ثُمَّ حَمَلَ آلعامِلُ حَقيبَتَهُ وَآنْصَرَفَ .

وَآلْتَقى آلجَميعُ داخِلَ آلمَنْزِلِ فَأَغْلَقوا آلبابَ ، وَوَقَفوا في آلبَهْوِ يَتَحَدَّثونَ . وَوَجَّهَ آلبُروفِيسور سُؤالَهُ إلى آرْثَر : « كَيْفَ تَأَتَّى لَكَ أَنْ تَفْعَلَ هٰذا ؟ »

فَابْتَسَمَ آرْثَر وَقالَ : « ذَهَبْتُ إلى حانوتٍ لِبَيْعِ آلأَقْفالِ ، وَقُلْتُ إِنَّ خادِمي آلأَحْمَقَ سافَرَ وَمَعَهُ كُلُّ مَفاتيحي وَإِنِّي لا أَسْتَطيعُ دُخولَ مَنْزِلي ، وَسَأَلْتُهُمْ ما إذا كانوا يَسْتَطيعونَ فَتْحَ بابِهِ ، فَأَرْسَلوا أَحَدَ عُمَّالِهِمْ مَعي . حَقيقةً لَقَدْ كانَ آلأَمْرُ في غايةِ آلبَساطةِ . »

فَسَأَلَ سِيوارْد : « وَلٰكِنْ ... أَلَمْ يَسْأَلوكَ عَمَّنْ تَكونُ ؟ »

فَأَجابَ آرْثَر : « إِنَّهم في لَنْدن يُصَدِّقونَ الرَّجُلَ الَّذي يَلْبَسُ ثِيابًا أَنيقةً مادامَ يَبْدو واثِقًا مِنْ نَفْسِهِ . »

وَهٰكَذا شَرَعوا يَبْحَثُونَ في الطَّابَقِ آلأَرْضِيِّ حَتَّى وَجَدوا الصَّناديقَ في حُجْرةٍ خَلْفِيَّةٍ كَريهةِ الرَّائِحةِ ، وَقالَ ڤان هِيلْسِينْغ : « تِسْعةٌ ! آلحَمْدُ للهِ ، فَإِذا كانَ آلكونت في واحِدٍ مِنْ هٰذِهِ فَلَنْ نَكونَ في حاجةٍ إلى آلِاسْتِمْرارِ في آلبَحْثِ . »

وَتَرَكَ آلبُروفِيسور آلآخَرينَ لِيَقوموا بِفَتْحِ الصَّناديقِ ، وَصَعِدَ هُوَ إلى الطَّابَقِ آلعُلْوِيِّ وَدَخَلَ آلحُجْرةَ آلكُبْرى آلَّتي تُطِلُّ عَلى الشَّارِعِ . وَكانَ في وَسَطِ آلحُجْرةِ مِنْضَدةٌ عَلَيْها فِرْجَونُ شَعْرٍ ، وَفِرْجَونُ مَلابِسَ ، وَفِنجانٌ قَديمٌ بِهِ قَليلٌ مِنَ آلماءِ . وَبَدا كَما لَوْ كانَ آلماءُ قَدِ آسْتُخْدِمَ في إِزالةِ دَمٍ . وَكانَ هُناكَ مِفْتاحانِ أَيْضًا . فَأَخَذَهُما وَهَبَطَ إلى الطَّابَقِ آلأَرْضِيِّ في نَفْسِ آللَّحْظةِ آلَّتي كانوا يَفْتَحونَ فيها آلصُّنْدوقَ آلأَخيرَ . وَتَبَيَّنَ أَنَّ دراكولا لَمْ يَكُنْ في أَيٍّ مِنَ الصَّناديقِ التِّسْعةِ ، وَلٰكِنَّ ڤان هِيلْسِينْغ لَمْ يَكُنْ في آلحَقيقةِ يَتَوَقَّعُ أَنْ يَكونَ مَحْظوظًا إلى هٰذِهِ الدَّرَجةِ ، وَكانَ في جَعْبَتِهِ خُطَطٌ أُخْرى .

قالَ آلبروفيسور : « جاك ، سَوْفَ تَذْهَبُ إلى مايل إند ، أمّا آرْثَر و جوناثان فَيَذْهَبانِ إلى وِلْوارث ، وَ هاكُمُ آلـمِفْتاحَيْنِ ، وَ لا تَنْسَوا أنْ تَتَوَقَّفوا في الطَّريقِ عِنْدَ آلفُنْدُقِ الَّذي أنْـزِلُ فيهِ لِكَيْ تَأْخُذوا آلحَقيبَتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَحْتَوِيانِ عَلى كُلِّ مـا تَحْتاجونَ إلَيْهِ في مُهِمَّتِكُمْ . أمّـا مِينا وَ أنا فَسَنَبْقى هُنا ، وَ حاوِلوا أنْ تَعودوا إلى هُنا قَبْلَ حُلولِ الظَّلامِ . »

اِنْصَرَفَ الرِّجالُ الثَّلاثَةُ وَبَقِيَ ڤان هِيلْسِينْغ وَمِينا في آلمَنْزِلِ وَحْدَهُما ، فَصَعِدا إلى الطَّابَقِ آلعُلْوِيِّ ، وَ جَلَسا إلى النّافِذَةِ يَتَطَلَّعانِ إلى الشّارِعِ آلـمُزْدَحِمِ . وَ كانا يُحاوِلانِ ألّا يُفَكِّرا في الصَّناديقِ الَّتي في الطّابَقِ آلأرْضِيِّ ، أوْ في آلـماءِ آلـمَصْبوغِ بِالدَّمِ فَوْقَ آلـمِنْضَدَةِ خَلْفَهُما ، أو في أنْفاسِ مَصّاصِ الدِّماءِ الَّتي كانَتْ تَسْري في آلهَواءِ .

كانا يَعْلَـمانِ أنَّهما في أمانٍ في النَّهارِ ، وَلٰكِنْ ما إنْ ظَهَرَتْ بوادِرُ آلـمَساءِ ، وَ فَقَدَ النَّهارُ إشْراقَهُ حَتّى بَدَأ ڤان هِيلْسِينْغ يَنْتابُهُ آلقَلَقُ . هَبْ أنَّ آلأصْدِقاءَ تَأخَّروا وَ أنَّ دراكولا آلغاضِبَ الثّائِرَ عادَ إلى آلـمَنْزِلِ في قُوَّتِهِ وَ جَبَروتِهِ .

وَ في حَوالَى السّاعَةِ السّابِعَةِ كانَتْ هُناكَ طَرَقاتٌ عَنيفَةٌ عَلى آلبابِ آلأمامِيِّ ، وَ تَبَيَّنَ أنَّهُ جاك سيوارْد الَّذي قالَ إنَّه وَجَدَ آلـمَنْزِلَ وَ الصَّناديقَ آلخَمْسَةَ ، وَلٰكِنْ لَـمْ يَكُنْ دراكولا في أيٍّ مِنْها كَذٰلِكَ .

وَ مَرَّتْ نِصْفُ ساعَةٍ ، وَ أخَذَتِ الظُّلْـمَةُ تَزْحَفُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا ، وَ قُبَيْلَ أنْ يَعُمَّ الظَّلامُ آلـمَكانَ إذا بِآلبابِ يُطْرَقُ ثانِيَةً ، وَ دَخَلَ آرْثَر وَ جوناثان . وَلٰكِنْ لا أثَرَ لِدراكولا . لَقَدْ وَجَدا سِتَّةَ صَناديقَ خالِيَةٍ ، أمّا السّابِعُ فَمَفْقودٌ . يالَها مِنْ أخْبارٍ سَيِّئَةٍ ! إنَّ عَدُوَّهُمْ لا يَزالُ طَليقًا ، وَ أمّا آلـمَكانُ الَّذي يَخْتَبِئُ فيهِ فَإنَّهُ لا يَزالُ مَجْهولًا .

قالَ ڤان هِيلْسِينْغ : « وَلٰكِنَّهُ يَعْلَـمُ أنَّهُ في مَأْزِقٍ ، وَ سَوْفَ يَزورُ صَناديقَهُ ، وَ أعْتَقِدُ أنَّهُ سَيَأْتي في وَقْتِ ما اللَّيْلَةَ إلى هُنا ، وَ يَنْبَغي أن نَكونَ مُسْتَعِدّينَ لَهُ . إنَّ فُرْصَتَنا في قَتْلِهِ لَيْسَتْ كَبيرَةً وَلٰكِنْ لابُدَّ أنْ نَنْتَهِزَها إذْ رُبَّما لا تُتاحُ لَنا فُرْصَةٌ أُخْرى . »

وَطالَ آنْتِظارُهُمْ في آلحُجْرَةِ آلخَلْفِيَّةِ ثلاثَ ساعاتٍ قَبْلَ أنْ يَطْرُقَ أسْماعَهُمْ صَوْتُ آلـمِفْتاحِ في البابِ آلأمامِيِّ ، وَ حانَ آلوَقْتُ لِيَأْخُذوا أهْبَتَهُمْ . كانَ ڤان هِيلْسِينْغ يَقِفُ مُواجِهًا آلبابَ ، وَ آرْثَر إلى يَمينِهِ ، وَ سيوارْد إلى يَسارِهِ ، وَ وَقَفَتْ مِينا في أحَدِ أرْكانِ آلحُجْرَةِ . أمّا جوناثان فكانَ يَقِفُ خَلْفَ آلبابِ مُمْسِكًا بِالسِّكّينِ آلهِنْدِيِّ الطَّويلِ الَّذي كانَ يَدَّخِرُهُ لِهٰذِهِ اللَّحْظَةِ .

وَ سَمِعوا وَقْعَ أقْدامٍ حَذِرَةٍ في آلبَهْوِ ، وَ مَضَتْ لَحْظَةُ سُكونٍ ، وَ فَجْأةً تَهاوى آلبابُ كُلُّهُ وَ سَقَطَ ، وَ آنْتَصَبَ دراكولا في آلحُجْرَةِ بَيْنَهُمْ . أهْوى عَلَيْهِ جوناثان بِطَعْنَةٍ ، وَ لٰكِنَّ دراكولا كانَ أسْرَعَ فَقَفَزَ إلى أحَدِ آلجَوانِبِ كَما يَقْفِزُ القِطُّ ، فَلَـمْ يُصِبِ السِّكّينُ إلّا سُتْرَتَهُ مُحْدِثًا فيها ثَقْبًا واسِعًا . وَ تَساقَطَتِ النُّقودُ آلوَرَقِيَّةُ وَ الذَّهَبِيَّةُ الَّتي كانَتْ فيها ، وَ عِنْدَما كانَ ڤان هِيلْسِينْغ يَتَقَـدَّمُ مِنْهُ وَ الصَّليبُ في يَدِهِ أخَذَ وَجْهُ آلكونْتِ يَتَحَوَّلُ إلى أصْفَرَ مُخْضَرٍّ .

وَ في اللَّحْظَةِ الَّتي كانَ جوناثان يَتَأهَّبُ فيها لِلطَّعْنَةِ الثّانِيَةِ وَثَبَ آلكونْت فَأَلْقى بِنَفْسِهِ تَحْتَ ذِراعِهِ الَّتي تَحْمِلُ السِّكّينَ مُتَحاشِيًا الضَّرْبَةَ ، وَ آلْتَقَطَ في طَريقِهِ حُفْنَةً مِنَ النُّقودِ الَّتي عَلى آلأرْضِ ، ثُمَّ آنْدَفَعَ مُلْقِيًا بِنَفْسِهِ مِنَ النّافِذَةِ .

وَ حينَ سَمِعَ آلأصْدِقاءُ صَوْتَ تَهَشُّمِ الزُّجاجِ وَ رَنينِ بَعْضِ الذَّهَبِ الَّذي سَقَطَ ، سارَعوا إلى النّافِذَةِ في آلوَقْتِ آلـمُناسِبِ لِكَيْ يَرَوا دراكولا يَنْهَضُ مُتَثاقِلًا في الـمَمَرِّ الَّذي يَقَعُ خَلْفَ آلـمَنْزِلِ ، وَ تَطَلَّعَ إلَيْهِمْ وَ هُوَ يَصيحُ :

« إنَّكُمْ تَأْمُلونَ تَدْميري . إنَّكُمْ تَظُنُّونَ أنَّكُمْ تَرَكْتموني بِلا مَأْوًى أسْتريحُ فيهِ ، وَ لٰكِنْ لَدَيَّ آلـمَزيدُ . إنَّ مُهِمَّتي لَـمْ تَبْدَأْ إلّا آلآنَ .. الآنَ فَقَطْ ، وَ إنَّ آلوَقْتَ في صالِحي . »

ثُمَّ أشارَ بِأصْبُعٍ غَطّاها الشَّعْرُ إلى مِينا قائِلًا : « إنَّها أصْبَحَتْ مِلْكي ، وَ سَوْفَ أُدَمِّرُكُمْ كُلَّكُمْ . »

ثُمّ آنْطَلَقَ يَعْدو بَيْنَ طَيّاتِ الظَّلامِ ، وَ بَعْضٌ مِنَ آلعُمْلةِ الذَّهَبِيَّةِ يَتساقَطُ مِنْهُ فَيُحْدِثُ رَنينًا .

وَ قالَ آلبُروفِيسور : « إنَّهُ يَنْطِقُ بِكَلِماتٍ حَماسِيَّةٍ شُجاعةٍ ، وَ لٰكِنَّ آلواقِعَ أَنَّهُ يَخْشانا ، وَ لَوْ لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ فَفيمَ هٰذِهِ آلعَجَلةُ آلـمَحْمومةُ ؟ وَ فيمَ هٰذِهِ آلحاجةُ ــ آلَّتي تَبْدو مُلِحَّةً ــ إلى كُلِّ هٰذِهِ النُّقودِ ؟ »

قالَ دُكتور سِيوارْد : « وَ مَعَ هٰذا يابُروفِيسور فَإنَّه لايَزالُ يَمْلِكُ مَكانًا لِلِاسْتِراحةِ لا نَعْلَـمُ أَيْنَ هُوَ . إنَّه يَزْدادُ خِبْرةً بِمُرورِ آلوَقْتِ . هَلْ هُوَ حَقيقةً في حاجةٍ إلى كُلِّ هٰذِهِ الصَّناديقِ التُّرابِيَّةِ ؟ حينَما غادَرَ ترانْسِيلْڤانْيا كانَ مِنَ آلواضِحِ أَنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ في حاجةٍ إلَيْها فِعْلًا ، وَ لايَزالُ يَعْتَقِدُ ذٰلِكَ آلآنَ . وَ لٰكِنْ مِنَ آلـمُؤَكَّدِ أَنَّ لَدَيْهِ آلقُدْرةَ عَلى إيجادِ أَماكِنَ جَديدةٍ لِلِاسْتِراحةِ ، فَما مَوْقِفُنا مِنْهُ آلآنَ ؟ قَدْ نَكونُ مَهْزومينَ أَمامَهُ ، وَ قَدْ يَلْجَأُ إلى آلِاخْتِفاءِ سَنَواتٍ ، وَ في خِلالِ هٰذِهِ آلسَّنَواتِ مَنْ يَدْري ؟ »

وَ أَدْرَكَ آلباقونَ تَمامًا ماذا كانَ يَعْني بِهٰذِهِ آلعِبارةِ آلأَخيرةِ . ما آلَّذي سَيُصيبُ مِينا ؟ هَلْ مِنَ آلـمُسْتَطاعِ حَقًّا إنْقاذُ مِينا ؟

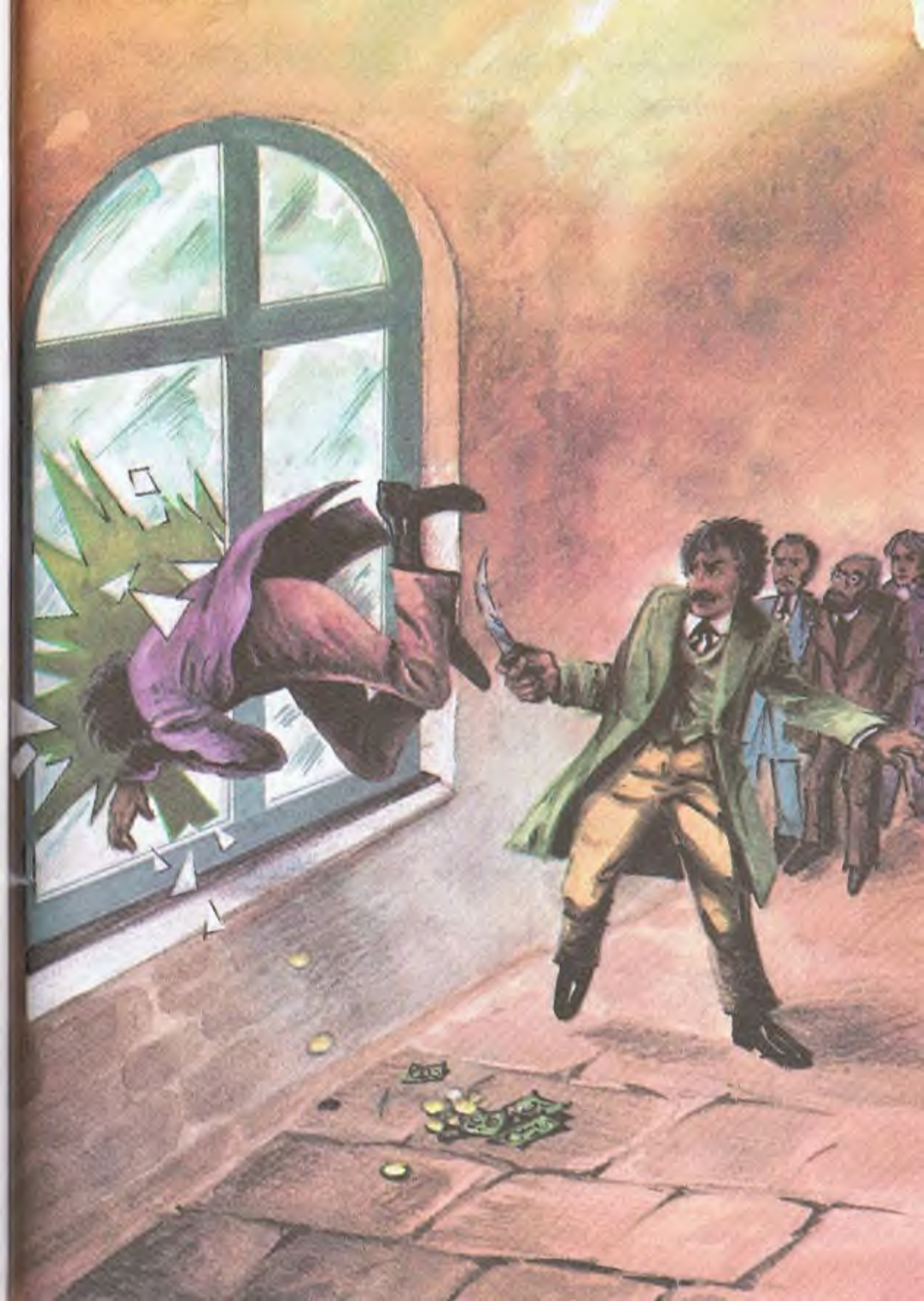

اَلْفَصْلُ الثَّامِنَ عَشَرَ

كانَتْ وَجْبَةُ ٱلإفْطارِ في صَباحِ ٱلْيَوْمِ التّالي وَجْبَةَ الصَّمْتِ وَ السُّكونِ ، إذْ كانوا جَميعًا مَشْغولينَ بِالتَّفْكيرِ : ماذا تَكونُ ٱلْخُطْوَةُ التّالِيَةُ ؟

وَ نَزَلَتْ مِينا إلَيْهِمْ مُتَأَخِّرةً ، فَبادَرَها دُكْتور سِيوارْد بِالسُّؤالِ : « كَيْفَ حالُكِ ٱلْيَوْمَ يامِينا ؟ »

فَأَجابَتْ : « مُتْعَبةٌ قَليلًا . لَقَدْ رَأَيْتُ أَحْلامًا كَثيرةً في اللَّيْلَةِ ٱلْماضيةِ . »

فَسَأَلَ الطَّبيبُ الَّذي كانَ دائِمًا يَرى أَنَّ لِلأَحْلامِ أَهَمِّيَّتَها : « أَحْلامًا شائِقةً ؟ »

فَٱبْتَسَمَتْ مِينا وَ قالَتْ : « لَيْسَتْ شائِقةً في ٱلْواقِعِ ، فَقَطْ مُخْتَلِفة . لَقَدْ رَأَيْتُ نَفْسي كَأَنَّما أَنا في زَوْرَقٍ وَ أَنَّني أَسْمَعُ خَريرَ ماءٍ ، لا شَيْءَ أَكْثَرَ مِنْ هٰذا . وَ لٰكِنَّ ٱلْحُلْمَ ظَلَّ يُعاوِدُني مَرَّةً بَعْدَ أُخْرى . »

فَسَأَلَها : « حينَما هاجَمَكِ دراكولا في تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، أَلَمْ يَقُلْ إنَّكِ وَ إيَّاهُ أَصْبَحْتُما مِنْ دَمٍ واحِدٍ وَ عَقْلٍ واحِدٍ ؟ »

قالت : « شَيْئًا مِنْ هٰذا ٱلْقَبيلِ . »

فَسَأَلَ الطَّبيبُ وَ هُوَ يَلْتَفِتُ إلى ڤان هِيلْسِينْغ : « هَلْ مِنَ ٱلْمُمْكِنِ بِالنِّسْبَةِ لِمِينا في حالَتِها ٱلْحاضِرةِ ، أَنْ تَدْخُلَ في عَقْلِ دراكولا بَيْنَما هي نائِمةٌ ؟ »

أَجابَ ٱلْبُروفِيسور : « هذا تَفْكيرٌ لَهُ وَجاهَتُهُ . »

فَسَأَلَ الطَّبيبُ : « إذا لَمْ يَكُنْ مُجَرَّدَ تَفْكيرٍ لَهُ وَجاهَتُهُ بَلْ كانَ حَقيقةً واقِعةً فَبِماذا تُفَسِّرُ ٱلْحُلْمَ الَّذي رَأَتْهُ مِينا عَنِ ٱلْماءِ ؟ »

تَدَخَّلَ جوناثان في ٱلْحَديثِ قائِلًا : « لِماذا ٱحْتاجَ دراكولا إلى كُلِّ هٰذِهِ النُّقودِ ؟ »

أَجابَ ٱلْبُروفِيسور : « إنَّهُ في حاجةٍ مُلِحَّةٍ إلَيْها بِدَليلِ أَنَّهُ تَوَقَّفَ لِيَلْتَقِطَ مِنَ ٱلأَرْضِ بَعْضًا مِنْها وَ هُوَ خارِجٌ . هَلْ مِنَ ٱلْمُمْكِنِ أَنْ يَكونَ دراكولا مُعْتَزِمًا مُغادَرَةَ إنْجِلترا ؟ »

كانَ ٱلْبُروفِيسور يُعَبِّرُ عَمَّا يَجولُ في أَذْهانِهِمْ جَميعًا مِنْ أَفْكارٍ . وَ مَضى يَقولُ : « تُرى هَلْ بَلَغْنا مِنَ النَّجاحِ مَعَهُ أَكْثَرَ مِمَّا تَصَوَّرْنا ؟ مِنَ ٱلْمُؤَكَّدِ أَنَّهُ ٱلآنَ يَتَمَلَّكُهُ الرُّعْبُ ، فَهُوَ يَرى أَنَّهُ لَمْ يَعُدْ يُحِسُّ بِالأَمانِ في لَنْدَن ، بَعْدَ أَنْ لَمْ يَتَبَقَّ لَدَيْهِ غَيْرُ صُنْدوقٍ واحِدٍ . إنَّهُ يَعْرِفُ أَنَّنا نَتَعَقَّبُهُ ، وَ لِذٰلِكَ يُفَكِّرُ في ٱلْهَرَبِ عَنْ طَريقِ ٱلْماءِ في سَفينةٍ عائِدًا إلى مَوْطِنِهِ . لا ، نَحْنُ لَمْ نَنْهَزِمْ بَعْدُ . إنَّ ٱلْمُطارَدَةَ مُسْتَمِرَّةٌ . »

وَ تَساءَلَتْ مِينا في حُزْنٍ : « وَ لٰكِنْ لِماذا ؟ أَكيدٌ أَنَّهُ يَكْفيكُمْ أَنْ تَدْفَعوهُ إلى ٱلْخُروجِ مِنْ هٰذا ٱلْبَلَدِ . فَلِماذا تُعَرِّضونَ أَنْفُسَكُمْ لِلْمَزيدِ مِنَ ٱلْمَخاطِرِ بِتَعَقُّبِهِ في ٱلْبَحرِ ؟ »

فَأَخَذَ ڤان هِيلْسِينْغ يَدَيْها كِلْتَيْهِما في يَدِهِ وَ تَطَلَّعَ في عَيْنَيْها قائِلًا : « يا سَيِّدةُ مِينا ، إنَّ لَدَيْنا رُوحًا نُريدُ أَنْ نُخَلِّصَها مِنْ إسارِها . مُنْذُ أُسْبوعٍ مَضى كانَ مِنَ ٱلْمُمْكِنِ أَنْ نَكْتَفِيَ بِما قُلْتِ ، أَمَّا ٱلآنَ فَعَلَيْنا أَنْ نَجِدَهُ حَتَّى وَ لَوِ اضْطُرِرْنا إلى الذَّهابِ إلى الشَّيْطانِ نَفْسِهِ . »

فَبَكَتْ مِينا مُتَأَثِّرةً بِكَلِماتِهِ ، بَلِ الرِّجالُ أَنْفُسُهُمْ أَحَسُّوا بِالدُّموعِ تَتَرَقْرَقُ في أَعْيُنِهِمْ . وَ لٰكِنَّ ڤان هِيلْسِينْغ أَسْرَعَ بِرَدِّهِمْ إلى جَوِّ ٱلْعَمَلِ الَّذي يَنْتَظِرُهُمْ فَقالَ لَهُمْ : « تَذَكَّروا ، لَيْسَ لَدَينا دَليلٌ حَتَّى ٱلآنَ عَلى أَنَّ ما يُراوِدُ أَفْكارَنا صَحيحٌ ، فَعَلَيْنا أَنْ نَبْحَثَ عَمَّا إذا كانَتْ هُناكَ سَفينةٌ غادَرَتْ لَنْدَن في اللَّيْلَةِ ٱلْماضيةِ مُتَّجِهةً إلى ٱلْبَحْرِ ٱلأَسْوَدِ ، ثُمَّ عَلَيْنا بَعْدَ ذٰلِكَ أَنْ نَعْرِفَ ما كانَتْ تَحْمِلُهُ هٰذِهِ السَّفينة . »

وَ لَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلْعَسيرِ أَنْ يَهْتَدوا إلى هٰذِهِ ٱلْمَعْلوماتِ ، فَإذا كانَ دراكولا قَدْ غادَرَ لَنْدن فَلابُدَّ أَنْ يَكونَ قَدْ رَكِبَ سَفينةً واحِدةً هِيَ كاثرين الَّتي أَقْلَعَتْ مُتَّجِهةً إلى ڤارْنا في السّاعةِ السّادِسةِ صَباحَ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ . وَ قَدْ ذَهَبَ جوناثان في نَفْسِ ٱلْيَوْمِ إلى ٱلْمَكْتَبِ ٱلْمَسْؤولِ

عَنِ السَّفينةِ وَعادَ بِقِصَّةٍ مُثيرةٍ . وَفي اَلْقِصَّةِ أَنَّ رَجُلًا طَويلًا نَحيلًا يَرْتَدي مَلابِسَ سَوْداءَ زارَ اَلْمَكْتَبَ في ساعةٍ مُتَأَخِّرةٍ مِنَ اللَّيْلِ ، وَعَرَضَ مَبْلَغًا كَبيرًا من النُّقودِ نَظيرَ شَحْنِ صُنْدوقٍ إلى قارْنا . وَلَمْ يَكُنِ الصُّندوقُ مَعَهُ ، فَأَخْبَرَهُ الرُّبّانُ أَنَّ الوَقْتَ قَدْ فاتَ لِأَنَّ السَّفينَةَ سَتُقْلِعُ في السّاعةِ الثّالِثةِ . وَلٰكِنْ عِنْدَما حانَتْ ساعةُ الإقْلاعِ ظَهَرَ في اَلْأُفْقِ ضَبابٌ كَثيفٌ ، وَاضْطُرَّتِ السَّفينةُ إلى اَلِانْتِظارِ . وَحينَئِذٍ عادَ الرَّجُلُ ذو اَلْمَلابِسِ السَّوْداءِ وَهُوَ يَسوقُ عَرَبةً تَحْمِلُ الصُّنْدوقَ ، وَشَحَنَهُ عَلى ظَهْرِ السَّفينةِ . ثُمَّ اِنْفَرَجَ الضَّبابُ ، وَأَقْلَعَتِ السَّفينةُ .

فَقالَ قان هِيلْسينْغ بَعْدَ أَنِ اِنْتَهى جوناثان مِنْ روايةِ قِصَّتِهِ : « يا أَصْدِقائي ، إنَّنا جَميعًا .. نَعَمْ جَميعًا » وَكَرَّرَ اَلْكَلِمةَ وَهُوَ يَنْظُرُ إلى مِينا ، وَاسْتَمَرَّ يَقولُ : « سَنَقومُ بِرِحْلةٍ . إنَّ هٰذِهِ السَّفينةَ ــ حَتّى مَعَ اَلاسْتِعانةِ بِالرِّيحِ الَّتي يُسَيْطِرُ عَلَيْها دراكولا ــ سَوْفَ تَسْتَغْرِقُ ثَلاثَةَ أَسابيعَ لِكَي تَصِلَ إلى قارْنا ، أَمَّا نَحْنُ فَسَوْفَ نَأْخُذُ اَلْقِطارَ وَنَسْتَقْبِلُهُ عِنْدَ وُصولِهِ . إنَّ لِقاءَنا التّالِيَ بِالكونْت يَجِبُ أَنْ يَكونَ اللِّقاءَ اَلْأَخيرَ . »

اَلْقِسْمُ اَلْخامِسُ
ترانْسِلْڤانْيا ... مَرَّةً ثانِيةً

اَلْفَصْلُ التّاسِعَ عَشَرَ

بَدا جوناثان حَزينًا وَهُوَ يُغادِرُ اَلْقِطارَ في قارْنا في أَواخِرِ شَهْرِ أُكْتوبر (تِشْرين اَلْأَوَّل) . وَكانَ أَصْدِقاؤُهُ قَدْ بَذَلوا كُلَّ جَهْدٍ لِكَيْ يَجْعَلوهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ مِينا بِخَيْرٍ . وَكانَ جَميلًا أَنْ يَفْعَلوا ذٰلِكَ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ يَعْلَمُ أَنَّ اَلْبروفيسور وَدُكْتور سيوارْد يُراقِبانِها يَوْمِيًّا لِكَيْ يَعْرِفا ما قَدْ يَطْرَأُ عَلَيْها مِنْ تَغَيُّرٍ في أَسْنانِها ، وَفي عَيْنَيْها ، وَفي بَشَرَتِها . ذٰلِكَ أَنَّ دَمَ مَصّاصِ الدِّماءِ أَشْبَهُ بِعَضَّةِ اَلْكَلْبِ اَلْمَسْعورِ ، فَهُوَ يُحْدِثُ تَأْثيرَهُ بِبُطْءٍ ، وَلٰكِنَّ أَثَرَهُ أَكيدٌ . وَلَيْسَ هُناكَ وَسيلةٌ لِإنْقاذِ الضَّحِيَّةِ الَّتي شَرِبَتْ مِنْ دَمِهِ إلّا بِمَوْتِ مَصّاصِ الدِّماءِ نَفْسِهِ .

وَكانَتْ هُناكَ تَغَيُّراتٌ طَفيفةٌ قَدْ بَدَأَتْ تَظْهَرُ في نَظَراتِها . وفي بَعْضِ أَوْقاتٍ كانَتْ تَظَلُّ صامِتةً صَمْتًا غَيْرَ طَبيعِيٍّ ، وَكانَ جوناثان يَعْرِفُ أَنَّ هٰذا الصَّمْتَ اَلْمُتَكَرِّرَ يُثيرُ اَلْقَلَقَ في الطَّبيبَيْنِ . كانَتِ اَلْخُطَّةُ الَّتي أَعَدُّوها بَسيطةً ، فَقَدْ دَبَّروا اَلْأَمْرَ قَبْلَ مُغادَرَتِهِمْ لَنْدَن لِكَيْ تُرْسَلَ إلَيْهِمْ بَرْقِيّاتٌ تُطْلِعُهُمْ أَوَّلًا بِأَوَّلٍ عَلى تَحَرُّكاتِ السَّفينةِ كاثرين . كَما أَنَّهُمْ أَبْلَغوا مَكْتَبَ السَّفينةِ في قارْنا أَنَّ عَلَيْها صُنْدوقًا يَحْتوي عَلى بَضائِعَ مَسْروقةٍ ، وَاتُّفِقَ عَلى أَنَّه عِنْدَما تَصِلُ السَّفينةُ سَيَصْعَدُ مَعَهُمْ إلى ظَهْرِها مَنْدوبٌ مِنَ اَلْمَكْتَبِ يَفْتَحُ الصُّنْدوقَ . فَإذا تَيَسَّرَ لَهُمُ الصُّعودُ إلى السَّفينةِ فَسَوْفَ يَقْتُلونَ دراكولا ، وَلَنْ يَدَّعوا أَحَدًا يَحولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ذٰلِكَ .

وَقالَ اَلْبروفيسور : « إنَّ الشُّرْطةَ لَنْ تُسَبِّبَ لَنا أَيَّةَ مَتاعِبَ ، إذْ لَنْ يَكونَ هُناك جُثَّةٌ . فَما إنْ يَدْخُلَ الطَّرَفُ اَلْمُدَبَّبُ قَلْبَ مَصّاصِ الدِّماءِ حَتّى يَتَحَلَّلَ جَسَدُهُ كُلُّهُ وَلَنْ يَسْتَطيعَ أَحَدٌ أَنْ يُثْبِتَ أَنَّنا قَتَلْنا أَحَدًا . »

في صَباحِ اَلْيَوْمِ اَلْخامِسِ وَالْعِشْرينَ مِنْ أُكْتوبَر كانَ اَلْأَصْدِقاءُ يَجْلِسونَ في اَلْفُنْدُقِ حَيْثُ

تَلَقَّوا بَرْقِيَّةً تَقولُ : « تُفيدُ التَّقاريرُ أَنَّ السَّفينةَ كاثرين في الدَّرْدَنيل اَليَوْمَ . »

كانَ اَلخَبَرُ مُثيرًا ، فَقَدْ كانَ يَعْني أَنَّ هُناكَ أَرْبَعًا وَعِشْرينَ ساعةً تَسْتَغْرِقُها السَّفينةُ مِنَ الدَّرْدَنيل حَتَّى ڤارْنا . وَكانَتِ اَلبَرْقِيَّةُ مُؤَرَّخةً في الرَّابِعِ وَاَلعِشْرينَ ، وَهٰذا يَعْني أَنَّها سَتَصِلُ هٰذا الصَّباحَ ، وَرُبَّما بَعْدَ الظُّهْرِ ، وَأَيًّا كانَتِ اَلحالُ فَإِنَّها سَتَصِلُ في ضَوْءِ النَّهارِ .

وَلٰكِنْ حَلَّتِ السَّاعةُ الثَّانِيةَ عَشْرَةَ وَلَمْ تَصِلِ السَّفينةُ كاثرين . وَانْقَضَتْ فَتْرةٌ ما بَعْدَ الظُّهْرِ وَلَمْ تَكُنْ ثَمَّةَ أَخْبارٌ عَنْها ، وَقيلَ إِنَّ هُناكَ ضَبابًا في بَعْضِ اَلأَماكِنِ ، وَقَدْ يَكونُ ذٰلِكَ سَبَبًا في تَأْخيرِ وُصولِها . وَلِذٰلِكَ أَوَوا إِلى مَضاجِعِهِمْ وَهُمْ مُبْتَئِسونَ ، عَلى أَنْ يَتَناوَبَ الرِّجالُ السَّهَرَ واحِدًا بَعْدَ اَلآخَرِ طَوالَ اللَّيْلِ في تَرَقُّبٍ .

وَفي هٰذِهِ اللَّيلةِ رَأَتْ مِينا في مَنامِها اَلماءَ كَذٰلِكَ ، وَفُسِّرَ اَلمَنامُ بِأَنَّ دراكولا — عَلى اَلأَقَلِّ — لايَزالُ عَلى ظَهْرِ السَّفينةِ .

وَمَرَّ اَليَوْمُ السادِسُ وَاَلعِشْرونَ كَما مَرَّ سابِقُهُ ، وَلٰكِنْ في السَّاعةِ اَلخامِسةِ بَعْدَ الظُّهْرِ وَصَلَتْ بَرْقِيَّةٌ أُخْرى تَقولُ : « تُفيدُ التَّقاريرُ أَنَّ السَّفينةَ كاثرين تَدْخُلُ غالاتز في السَّاعةِ اَلواحِدةِ . »

غالاتز ؟ إِنَّ غالاتز تَقَعُ عَلى بُعْدِ ثَلاثِمِئةِ كيلو مِتْرٍ تِجاهَ الشَّمالِ عَلى الدَّانوبِ ! إِنَّها أَقْرَبُ إِلى حِصْنِ دراكولا مِنْها إِلى ڤارْنا بِمِقْدارِ ثَلاثِمِئةِ كيلو مِتْرٍ . ياتُرى ما الَّذي حَدَثَ ؟

كانَ آرْثَر أَوَّلَ اَلمُتَحَدِّثينَ فَقالَ : « هُناكَ قِطارٌ يُغادِرُ إِلى غالاتز في السَّاعةِ اَلعاشِرةِ مَساءَ اللَّيْلةِ ، إِذا أَخَذْنا هٰذا اَلقِطارَ فَإِنَّنا نَسْتَطيعُ أَنْ نَصِلَ في اَثْنَتَي عَشْرَةَ ساعةً . »

كانَ آرْثَر أَحَدَ أُولٰئِكَ الَّذينَ يَحْتَفِظونَ بِجَداوِلِ اَلمُواصَلاتِ في رُؤوسِهِمْ . وَهٰكَذا وَصَلوا إِلى غالاتز في صَباحِ اَليومِ التَّالي ، وَكانَ رُبَّانُ السَّفينةِ اَلإِنْجليزيَّةِ الَّذي قابَلوه مُتَعاوِنًا مَعَهُمْ إِلى حَدٍّ كَبيرٍ فَرَوَى لَهُمْ قِصَّةً غَريبةً . حَدَّثَهُمْ عَمَّا صادَفَهُمْ في اَلبَحْرِ مِنْ حَظٍّ طَيِّبٍ

عَلى غَيْرِ اَلعادةِ إِذْ كانَتِ الرِّيحُ مُواتيةً حَتَّى اَلبَحْرِ اَلأَسْوَدِ . ثُمَّ حَدَّثَهُمْ عَنِ الضَّبابِ اَلكَثيفِ الَّذي خَيَّمَ بَعْدَ ذٰلِكَ وَاسْتَمَرَّ أَيَّامًا ، وَعِنْدما اَنْقَشَعَ الضَّبابُ إِذا بِهِمْ في الدَّانوبِ عَلى مَقْرَبةٍ مِنْ غالاتز ، وَبِما أَنَّ اَلأَوْراقَ اَلمُتَعَلِّقةَ بِالصُّنْدوقِ تَقولُ « غالاتز ، عَنْ طَريقِ ڤارْنا » فَقَدْ كانَ مِنَ اَلبَديهيِّ حينَما يَتَقَدَّمُ شَخْصٌ لِتَسَلُّمِ الصُّنْدوقِ أَنْ يُسَلَّمَهُ لَهُ .

فَسَأَلَهُ ڤان هِيلْسِينْغ : « ما اِسْمُ هٰذا الشَّخْصِ ؟ »

أَخَذَ الرُّبَّانُ يَبْحَثُ في أَوْراقِهِ ثُمَّ قالَ : « ها هُوذا هيلدشايم ، إِنَّه تاجِرٌ . »

فَشَكَروا لِلرُّبَّانِ مُعاوَنَتَهُ الصَّادِقةَ ، ثُمَّ غادَروا السَّفينةَ وَذَهَبوا إِلى اَلمَدينةِ يَبْحَثونَ عَنْ هيلدشايم الَّذي أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لا يَعْلَمُ شَيْئًا عَنِ الصُّنْدوقِ . كُلُّ ما في اَلأَمْرِ أَنَّهُ تَلَقّى تَعْليماتٍ مِنْ لَنْدَن لِكَيْ يُسَلِّمَهُ إِلى وَكيلٍ يُدْعى بيتر سكينسكي يَتَعامَلُ مَعَ السلوڤاك ، وَهُمْ بِدَوْرِهِمْ يَنْقُلونَ اَلبَضائِعَ مِنْ مَنابِعِ اَلأَنْهارِ وَمَصابِّها إِلى غالاتز .

وَقَصَدوا إِلى سكينسكي فَلَمْ يَجِدوهُ في مَكْتَبِهِ أَوْ في بَيْتِهِ . وَقالَ جيرانُهُ إِنَّهُمْ لَمْ يَرَوه مُنْذُ اَلبارِحةِ . وَبَيْنَما كانوا يَتَحَدَّثونَ إِلى اَلجيرانِ جاءَ صَبِيٌّ يَجْري لاهِثًا وَهُوَ شَديدُ اَلاضْطِرابِ ، وَقالَ إِنَّ سكينسكي وُجِدَ مُلْقًى قُرْبَ ساحةِ اَلكَنيسةِ وَقَدْ مُزِّقَ عُنُقُهُ شَرَّ مُمَزَّقٍ ، كَما لَوْ كانَ قَدْ نَهَشَهُ حَيوانٌ ضارٍ . وَما كادَ يُتِمُّ كَلامَهُ حَتَّى هُرِعَ اَلجيرانُ نَحْوَ اَلكَنيسةِ ، وَبَقِيَ اَلبُروفيسور وَأَصْحابُهُ وَحْدَهُمْ .

وَقالَ ڤان هِيلْسِينْغ : « أَعْتَقِدُ أَنَّ اَلسَّيِّدَ سكينسكي لَنْ يَكونَ قادِرًا عَلى مُساعَدَتِنا اَلآنَ ، وَلٰكِنَّنا نَسْتَطيعُ أَنْ نَكْشِفَ الدَّوْرَ الَّذي قامَ بِهِ في تَنْفيذِ خُطَطِ دراكولا . إِنَّ الصُّعوبةَ اَلماثِلةَ أَمامَ دراكولا اَلآنَ هِيَ كَيْفَ يَعودُ إِلى حِصْنِهِ . فَهُوَ يَسْتَطيعُ أَنْ يُسافِرَ بِطَريقٍ بَرِّيٍّ في عَرَبةٍ أَوْ في اَلقِطارِ ، أَوْ بِطَريقٍ نَهْرِيٍّ .

« أَمَّا الطَّريقُ اَلبَرِّيُّ فَهُوَ بَطيءٌ وَفيهِ مَخاطِرُ ، وَأَمَّا اَلقِطارُ فَهُوَ سَريعٌ وَلٰكِنْ يَفْتَقِرُ إِلى مَنْ يَتَوَلّى رِعايةَ الصُّنْدوقِ . ثُمَّ إِنَّ التَّوَقُّفاتِ في اَلمَحَطّاتِ قَدْ تَكونُ فيها مَخاطِرُ ، وَالَّذي

يَبْدو لي هُوَ أَنَّ تَعامُلَهُ مَعَ سكينسكي يُشيرُ إلى أَنَّهُ سافَرَ بِطَريقِ النَّهْرِ . ها هِيَ ذي خَريطةٌ ، وَأَنْتَ ذو خِبْرةٍ بِالإِقْليمِ ياجوناثان ، فَأَيْنَ تَظُنُّ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ ؟ »

وَنَظَرَ جوناثان إلى الخَريطةِ وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ هٰذا الجُزْءَ مِنَ الإِقْليمِ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ قَدْ تَعَلَّمَ الكَثيرَ مِنْ كُتُبِ الكونْت .

كانَ هُناكَ نَهْرانِ يَصُبَّانِ في الدَّانوبِ مِنَ الشَّمالِ ، نَهْرُ بْرُوث وَنَهْرُ سيرِث . وَكانَ يَعْلَمُ أَنَّ المِلاحةَ في نَهْرِ بْرُوث أَفْضَلُ بِالنِّسْبةِ لِلزَّوارِقِ ، أَمَّا نَهْرُ سيرِث فَهُوَ يَلْتَقي بِنَهْرِ بيسْتريتْز عِنْدَ فونْدو ، وَهُوَ يَسيرُ مُحاذِيًا لِطَريقِ بيسْتريتْز الجَبَلِيَّةِ وَلِذٰلِكَ قالَ جوناثان : « فَلْنَتْبَعْ نَهْرَ سيرِث . »

فَقالَ فان هيلْسينْغ : « وَهُوَ كَذٰلِكَ . وَأَعْتَقِدُ أَن الخُطَّةَ الَّتي يَنْبَغي أَنْ نُنَفِّذَها هِيَ أَنْ يَأْخُذَ آرْثَر وَجوناثان زَوْرَقًا بُخارِيًّا إلى مَنْبَعِ النَّهْرِ ، أَمَّا أَنْتَ ياجاك فَإِنِّي أُريدُكَ أَنْ تَأْخُذَ بَعْضَ الجِيادِ وَتَتْبَعَ جِسْرَ النَّهْرِ ، أَمَّا أَنا وَمينا فَسَوْفَ نَأْخُذُ القِطارَ إلى فرِسْتي ، وَمِنْ هُناكَ نَمْضي في طَريقِنا نَحْوَ الحِصْنِ فَإِذا لَقِيتُمْ دراكولا في الطَّريقِ فَتَصَرَّفوا مَعَهُ ، أَمَّا إذا لَمْ تَلْقَوْهُ فَسَوْفَ نَكونُ في انْتِظارِكُمْ في الجِبالِ . إنَّها فُرْصَتُنا الأَخيرةُ . »

اَلْفَصْلُ العِشْرونَ

حِينَما جاءَ جوناثان إلى ترانْسيلْڤانْيا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ كانَ الجَوُّ مُشْمِسًا ، وَمِنْ ثَمَّ كانَ السَّفَرُ مُتْعةً . أَمَّا الآن فَالدُّنْيا خَريفٌ ، وَالصَّباحُ الباكِرُ مُعْتِمٌ فَوْقَ النَّهْرِ ، وَالضَّبابُ مُخَيِّمٌ في أَغْلَبِ الأَوْقاتِ . وَلِذٰلِكَ كانَ جوناثان يَسْعَدُ بِالدِّفْءِ حِينَما يَفْتَحُ صُندوقَ الإِحْتِراقِ في الزَّوْرَقِ البُخارِيِّ الصَّغيرِ وَيَضَعُ فيهِ مَزيدًا مِنْ قِطَعِ الخَشَبِ .

وَطَوالَ يَوْمَيْنِ — كانَ الزَّوْرَقُ يَسيرُ فِيهِما لَيْلًا وَنَهارًا — كانا يَمُرَّانِ بِقَليلٍ مِنَ الزَّوارِقِ الصَّغيرةِ الَّتي لَمْ يَكُنْ حَجْمُها يَتَّسِعُ لِحَمْلِ صُنْدوقِ الكونْت . وَلٰكِنْ في اليَوْمِ الثَّالِثِ — وَحِينَما كانَ الزَّوْرَقُ يَمُرُّ خِلالَ نَهْرِ بيسْتريتْز — عَلِما مِنْ بَعْضِ السلوڤاك العابِرينَ أَنَّ هُناكَ زَوْرَقًا كَبيرًا كانَ يَمْخُرُ عُبابَ النَّهْرِ بِسُرْعةٍ غَيْرِ عادِيَّةٍ ، قَدْ مَرَّ بِهِمْ في اليَوْمِ السَّابِقِ . وَقَدْ أَحْيا هٰذا الخَبَرُ الأَمَلَ في نَفْسَيْهِما . وَحِينَما زادا مِنْ سُرْعةِ الزَّوْرَقِ كانَ مَجْرى النَّهْرِ قَدْ أَصْبَحَ ضَيِّقًا صَخْرِيًّا ، وَلَمْ يَحْتَمِلِ الزَّوْرَقُ الصُّخورَ فَأَصابَهُ عَطَبٌ في النِّهايةِ ، وَاسْتَغْرَقَ إِصْلاحُهُ عِدَّةَ ساعاتٍ ، كَما أَنَّ الطَّقْسَ بَدَأَ يَسوءُ .

كانا — في ذٰلِكَ الوَقْتِ — عَلى بُعْدِ حَوالَى تِسْعينَ كيلو مِتْرًا فَقَطْ مِنْ بيسْتريتْز . وَكانَ آرْثَر يَخْشَى أَنْ يَكونَ الصُّنْدوقُ قَدْ سَبَقَ نَقْلُهُ إلى البَرِّ . وَلِذٰلِكَ غادَروا الزَّوْرَقَ عِنْدَ أَوَّلِ مَدينةٍ صَغيرةٍ لِيَسْتَخْدِما الجِيادَ ، وَقَرَّرا أَنْ يَسيرا بِها عَبْرَ الطَّريقِ الرِّيفِيَّةِ الصَّغيرةِ مُتَّجِهَيْنِ إلى المَكانِ المُحَدَّدِ لِلِقاءِ مينا وَالبُروفِيسور . وَلَمْ يَكونا قَدْ شاهَدا جاك سيوارْد مُنْذُ أَوَّلِ يَوْمٍ غادَرا فيه غالاتز ، وَلِذٰلِكَ اعْتَقَدا أَنَّهُ سَبَقَهُما عَلى الطَّريقِ .

أَمَّا البُروفِيسور وَمينا فَكانا قَدْ وَصَلا إلى فرِسْتي في مُنْتَصَفِ نَهارِ اليَوْمِ الحادي وَالثَّلاثينَ . وَكانَتْ هٰذِهِ المَحَطَّةُ هِيَ نِهايةَ مَسارِ القِطارِ ، وَلِذٰلِكَ غادَراها لِيَرْكَبا عَرَبةً تَأْخُذُهُما لِمَسافةِ مِئةِ كيلو مِتْرٍ مِنْ فرِسْتي إلى طَريقِ بيسْتريتْز الجَبَلِيَّةِ .

وَاشْتَرى البُروفِيسور بَعْضَ الطَّعامِ وَالمَلابِسِ الثَّقيلةِ ، وَقالَ لِمينا : « رُبَّما لا نَرى مَدينةً أُخْرى لِمُدَّةِ أُسْبوعٍ . »

كانَتِ الطُّرُقُ سَيِّئَةً ، وَلٰكِنَّ ڤان هِيلْسِينْغ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ آلكَلَلَ ، وَمَضيا قُدُمًا ، وَلَمْ يَكونا يَتَوَقَّفانِ إلّا لِفَتَراتٍ قَصيرةٍ مِنْ أَجْلِ النَّوْمِ ، أَوْ لِتَغْييرِ آلجِيادِ كُلَّما كانَ ذٰلِكَ مُمْكِنًا . حَتّى بَلَغا طَريقَ بِيسْتريتْز في آلْيَوْمِ الثّاني .

كانَتْ مِينا تَنامُ كَثيرًا ، وَلٰكِنَّ آلأَحْلامَ الَّتي كانَتْ تَراها عَنِ آلماءِ تَوَقَّفَتْ ، مِمَّا يُشيرُ إلى أَنَّ دراكولا لابُدَّ أَنْ يَكونَ قَدْ غادَرَ النَّهْرَ . وَآلآن وَقَدْ أَخَذا يَزْدادانِ صُعودًا في آلجِبالِ ، بَدَأَتْ مِينا تَتَخَلَّصُ مِنْ رَغْبَتِها في النُّعاسِ ، وَبَدا عَلَيْها آلاِهْتِمامُ الشَّديدُ بِالطَّريقِ ، وَأَخيرًا هَتَفَتْ وَهِيَ تُشيرُ إلى طَريقٍ جانِبِيَّةٍ : « هٰذِهِ هِيَ الطَّريقُ . »

فَقالَ ڤان هِيلْسِينْغ : « أَأَنْتِ مُتَأَكِّدَةٌ ؟ »

فَأَجابَتْ : « بِالطَّبْعِ ، أَلَمْ يُسافِرْ جوناثان في هٰذِهِ الطَّريقِ وَيُخْبِرْني عَنْها ؟ »

وَمَعَ أَنَّ آلأَمْرَ بَدا لِڤان هِيلْسِينْغ غَريبًا فَإِنَّهُ أَطاعَها ، وَبَعْدَ ساعَتَيْنِ تَبَيَّنَ أَنَّها كانَتْ عَلى صَوابٍ ، فَقَدْ شاهَدا — لِأَوَّلِ مَرَّةٍ — مِنْ خِلالِ فُرْجَةٍ بَيْنَ آلأَشْجارِ جُدْرانًا تُكَلِّلُها السُّحُبُ .. جُدْرانَ قَلْعَةِ دراكولا . فَانْسَحَبا بَعيدًا عَنِ الطَّريقِ بَيْنَ آلأَشْجارِ ، وَأَدْرَكَ ڤان هِيلْسِينْغ أَنَّ الثَّلْجَ سَيَسْقُطُ ، فَأَوْقَدَ نارًا . ثُمَّ أَخَذَ عُودًا وَخَطَّ بِهِ دائِرَةً حَوْلَ النّارِ وَمِينا ، وَأَلْقى فيها بَعْضَ قِطَعٍ صَغيرةٍ مِنَ آلخُبْزِ آلمُقَدَّسِ . ثُمَّ مَشى إلى خارِجِ الدّائِرَةِ ، وَوَقَفَ يَنْظُرُ إلى مِينا وَهِيَ جالِسَةٌ بِجِوارِ النّارِ صامِتَةً كَالأَمْواتِ ، ثُمَّ نادى : « مِينا ، تَعالَيْ إلى هُنا . »

فَنَهَضَتْ وَبَدَأَتْ تَمْشي نَحْوَهُ ، ثُمَّ تَوَقَّفَتْ ، وَبَدا أَنَّها عاجِزَةٌ عَنِ التَّقَدُّمِ خُطْوَةً أُخْرى . فَمَدَّ ڤان هِيلْسِينْغ يَدَهُ نَحْوَها وَقالَ : « تَعالَي . »

فَهَزَّتْ رَأْسَها ثُمَّ انْهارَتْ فَوْقَ آلأَرْضِ . لَقَدْ حَدَثَ ما تَوَقَّعَهُ . كانَتْ فِعلًا قَدْ أَصْبَحَتْ نِصْفَ مَصّاصَةِ دِماءٍ ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَتَحَرَّكَ خارِجَ الدّائِرَةِ . وَلٰكِنْ إذا لَمْ تَكُنْ هِيَ قادِرَةً عَلى آجْتِيازِ الدّائِرَةِ لِتَخْرُجَ مِنْها ، فَإِنَّ الآخَرينَ لَنْ يَكونُوا قادِرينَ عَلى آقْتِحامِ

الدّائِرَةِ لِيَدْخُلوها . أَمّا هُوَ فَسَيَكونُ آمِنًا ما بَقِيَ في داخِلِ الدّائِرَةِ ، وَمادامَ يَحْرِصُ عَلى أَلّا يُصيبَهُ أَذًى مِنْ مِينا نَفْسِها . وَأَخَذَ يَتَطَلَّعُ إلَيْها ، أَمّا هِيَ فَقَدْ عادَتْ إلى النّارِ وَجَلَسَتْ بِجِوارِها مُسْتَغْرِقَةً في أَفْكارٍ عَميقَةٍ خَفِيَّةٍ .

خَيَّمَ الظَّلامُ عَلى آلمَكانِ ، وَكانَتِ آلجِيادُ تَصْهَلُ صَهيلًا مَذْعورًا ، وَتُحاوِلُ التَّخَلُّصَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتي رُبِطَتْ إلَيْها . فَاتَّجَهَ ڤان هِيلْسِينْغ إلَيْها ، وَرَبَّتَ عَلَيْها بِيَدَيْهِ لِتَهْدِئَتِها . وَمَعَ أَنَّهُ كانَ مَنْهوكًا مَكْدودًا فَإِنَّهُ لَمْ يَجْرُؤْ أَنْ يَنامَ قَبْلَ أَنْ تَنامَ مِينا الَّتي كانَتْ أَرِقَةً .

وَفي حوالَى السّاعَةِ الثّالِثَةِ صَباحًا بَدَأَتِ النّارُ تَخْمُدُ ، وَكانَ يُوشِكُ أَنْ يَنْهَضَ لِيُحْضِرَ بَعْضَ آلخَشَبِ قَبْلَ أَنْ يَتَكاثَرَ سُقوطُ الصَّقيعِ حينَما تَكَلَّمَتْ مِينا . قالَتْ : « لا تَخْرُجْ مِنَ الدّائِرَةِ آلآنَ . اِبْقَ كَما أَنْتَ آمِنًا . »

فَتَوَقَّفَ قائِلًا : « رُبَّما أَكونُ آمِنًا ، أَمّا أَنْتِ ... »

فَأَطْلَقَتْ ضِحْكَةً خافِتَةً غَيْرَ طَبيعِيَّةٍ وَقالَتْ : « لا تَخَفْ عَلَيَّ . لَيْسَ هُناكَ مَنْ هُوَ أَشَدُّ أَمانًا مِنّي . فَأَنا في أَمانٍ مِنْهُمْ . »

وَكانَ يُوشِكُ أَنْ يَسْأَلَها عَمَّنْ كانَتْ تَعْني بِقَوْلِها « مِنْهُمْ » حينَما صَهَلَتِ آلجِيادُ ثانِيَةً ، فَنَظَرَ فَإِذا ثَلاثُ نِساءٍ يَتَحَرَّكْنَ حَوْلَ حافَّةِ الدّائِرَةِ كَما تَفْعَلُ الرَّاقِصاتُ ، فَتَمَلَّكَهُ آلخَوْفُ إِذْ أَدْرَكَ أَنَّهُنَّ لابُدَّ أَنْ تَكُنَّ سَيِّداتِ آلقَلْعَةِ اللّائي شَرِبْنَ مِنْ دَمِ جوناثان . وَمَدَّتِ النِّساءُ أَذْرُعَهُنَّ نَحْوَ مِينا كَما لَوْ كُنَّ يَدْعونَها لِتُشارِكَهُنَّ . وَأَحَسَّ ڤان هِيلْسِينْغ بِما بَدَأَ يَنْتابُ مِينا مِنْ إثارَةٍ أَخَذَتْ تَتَزايَدُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا . وَفَكَّرَ ، تُرى هَلْ سَتَظَلُّ آلقُوَّةُ الَّتي في الدّائِرَةِ صامِدَةً ؟

وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَتْرُكَ آلأُمورَ لِلْمُصادَفَةِ ، فَالْتَقَطَ قِطْعَةً مِنَ آلخَشَبِ آلمُتَوَهِّجِ وَأَلْقاها عَلَيْهِنَّ وَصاحَ : « باسْمِ الرَّبِّ اذْهَبْنَ بَعيدًا . » فَإِذا بِهِنَّ يَبْتَعِدْنَ صارِخاتٍ لاعِناتٍ .

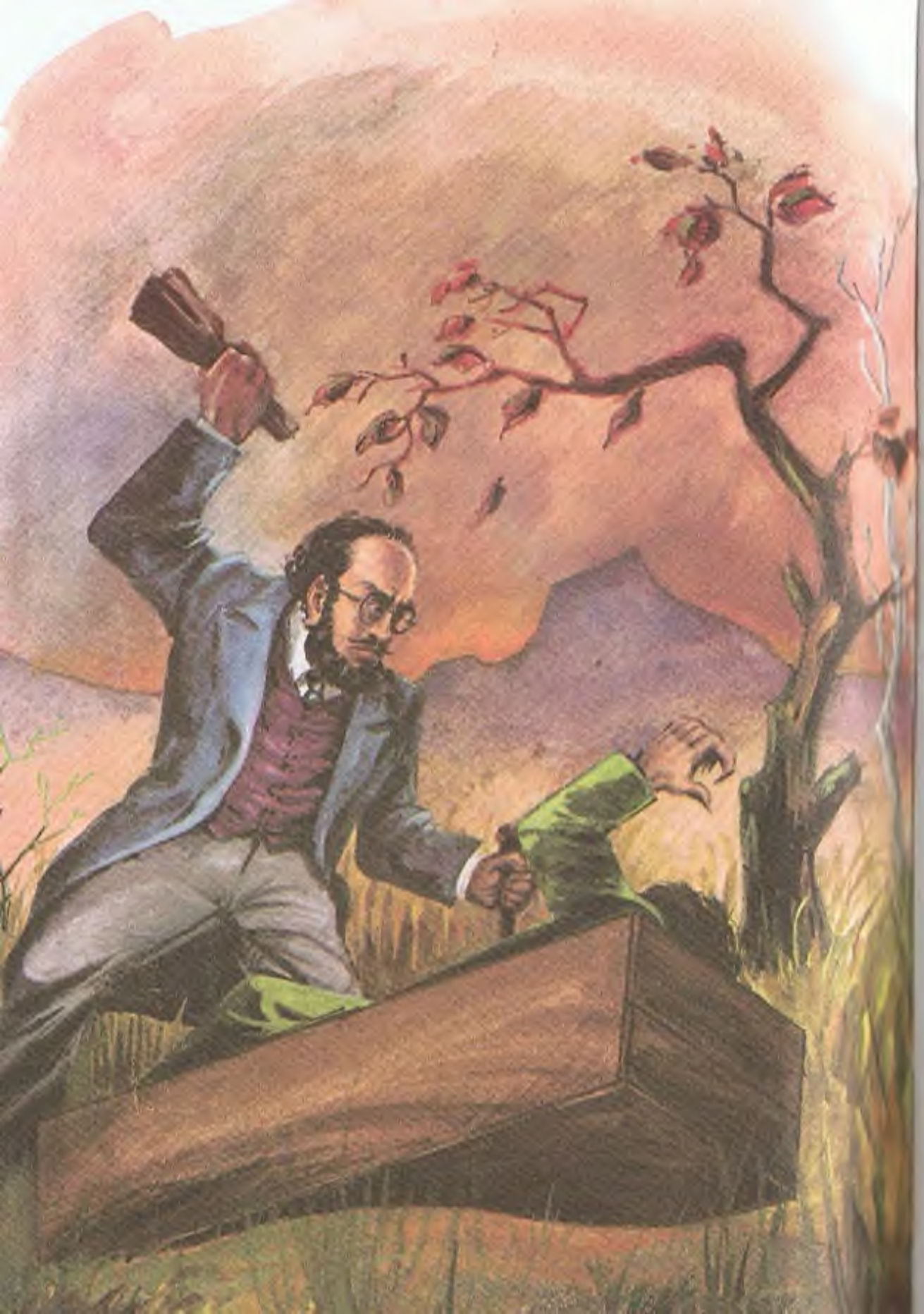

وَعادَ السُّكونُ يُخَيِّمُ عَلى آلـمَكانِ ، وَأَحسَّ بِإِرْهاقٍ لَـمْ يُحِسَّ بِهِ مِنْ قَبْلُ ، وَلٰكِنَّ مِينا كانَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ نَظَراتٍ غَريبةً . وَكانَ عَلَيْهِ أَنْ يُواجِهَ آلحَقيقةَ آلـمُفْزِعةَ ، إِذْ لَـمْ يَعُدْ هُناكَ أَمانٌ في أَنْ يَنامَ وَهُوَ بِصُحْبَتِها . إِنَّها تُوشِكُ أَنْ تَدْخُلَ عالَـمَ اللَّامَوْتى .

وَأَقْبَلَ النَّهارُ بِبُطْءٍ ، وَتَوَقَّفَ سُقوطُ الصَّقيعِ ، وَلٰكِنَّ السَّماءَ كانَتْ لاتَزالُ مُلَبَّدةً بِآلغُيومِ .

كانَ جوناثان وَآرْثَر قَدِ آلْتَقَيا بِجاك سيوارْد عَلى الطَّريقِ في آلَيَوْمِ السَّابِقِ . وَبَيْنَما كانَ آلفُرْسانُ الثَّلاثةُ في طَريقِهِمْ لاحَظوا آثارًا حَديثةً لِعَجَلاتٍ فَوْقَ آلأَرْضِ آلَّتي يَكْسوها الصَّقيعُ آلخَفيفُ . فَاسْتَدَلُّوا بِها عَلى أَنَّهم لا يَبْعُدونَ عَنْ عَدُوِّهِمْ إِلَّا مَسافةً قَصيرةً . وَبَعْدَ الظُّهْرِ بِقَليلٍ اسْتَطاعوا أَنْ يَلْـمَحوا في طَريقِ آلجَبَلِ فَوْقَهُمُ آلعَجَرَ آلَّذينَ كانَ السلوفاك قَدْ سَلَّـموا إِلَيْهِمُ الصُّنْدوقَ . وَحينَما أَخَذَتِ الشَّمْسُ تَميلُ بِبُطْءٍ لِلْـمَغيبِ كانَ واضِحًا لِلْجَميعِ أَنَّهُمْ في سِباقٍ مَعَ الزَّمَنِ .

وَفَجْأَةً سَمِعوا طَلْقةً تُدَوِّي في آلفَضاءِ ، وَكانَ مَصْدَرُها مِنْ مَكانٍ قَريبٍ مِنْهُمْ .

فَسَحَبَ جوناثان السِّكِّينَ آلهِنْدِيَّ آلَّذي مَعَهُ ، وَحَثَّ جَوادَهُ آلـمَكْدودَ لِيَنْطَلِقَ ، وَأَوْشَكَتِ آلـمَعْرَكةُ آلفاصِلةُ أَنْ تَبْدَأَ .

تَوَقَّفَ آلعَجَرُ ، وَتَجَمَّعوا حَوْلَ عَرَبَتِهِمْ وَفي أَيْديهِمُ السَّكاكينُ ، وَفي مُواجَهَتِهِمْ في وَسَطِ الطَّريقِ كانَ ڤان هِيلْسِينْغ يَقِفُ شامِخًا مُسَدَّسًا . وَبَدا عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ مُتَرَدِّدُونَ لا يَعْرِفونَ ماذا يَفْعَلونَ . كانَ ڤان هِيلْسِينْغ واحِدًا ، وَكانوا كَثيرينَ . صَحيحٌ أَنَّهُ يَحْمِلُ مُسَدَّسًا ، وَلٰكِنْ ماذا إِذا هاجَموهُ كُلُّهُمْ دُفْعَةً واحِدةً ؟

وَلٰكِنَّ آلوَقْتَ لَـمْ يُسْعِفْهُمْ لِكَيْ يَتَّخِذوا قَرارًا ، فَما هِيَ إِلَّا لَحْظةٌ حَتَّى كانَ آلفُرْسانُ الثَّلاثةُ يَنْدَفِعونَ بِجِيادِهِمْ نَحْوَهُمْ مُباشَرةً ، وَفي مُقَدَّمَتِهِمْ جوناثان يُلَوِّحُ بِسِكِّينِهِ وَيَصيحُ صَيْحاتٍ ضارِيةً .

كانَ ٱلعَجَرُ مَكْدودينَ مِنْ وَعْثاءِ السَّفَرِ ، وَأَخَذَهُمْ هَوْلُ ٱلمُفاجَأَةِ ، فَتَظاهَروا بُرْهَةً بِمَظْهَرِ ٱلمُقاتِلينَ ، وَلٰكِنْ سَرْعانَ ما نَكَصوا عَلى أَعْقابِهِمْ وَفَرُّوا هارِبينَ إلى سَفْحِ ٱلجَبَلِ .

كانَتِ الشَّمْسُ وَقْتِئِذٍ قَدْ أَخَذَتْ تَتَدَلّى نَحْوَ أَسْفَلِ ٱلجَبَلِ حَتّى بَلَغَتْ مُنْتَصَفَ ٱلمَسافَةِ ، وَأَدْرَكوا أَنَّهُ بَعْدَ دَقائِقَ تَعودُ إلى دراكولا قُوَّتُهُ وَيَفيقُ . فَكانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُسارِعوا قَبْلَ فَواتِ ٱلأَوانِ . وَلٰكِنَّهُمْ كانوا قَدْ فاتَهُمْ أَنْ يُحْضِروا آلَةً يَفْتَحونَ بِها الصُّنْدوقَ ، فَٱلتَقَطوا بَعْضَ ٱلأَحْجارِ وَتَسَلَّقوا ٱلعَرَبَةَ وَأَخَذوا يَطْرُقونَ أَعْلَى الصُّنْدوقِ بِشِدَّةٍ كَأَنَّهُمْ مَجانينُ . وَكانَتِ الشَّمْسُ قَدْ بَلَغَتْ في تَدَلِّيها ثَلاثَةَ أَرْباعِ ٱلمَسافَةِ نَحْوَ أَسْفَلِ ٱلجَبَلِ . وَكانوا يَكادونَ يُحِسُّونَ جَسَدَ دراكولا يَتَحَرَّكُ داخِلَ الصُّنْدوقِ ، وَأَخيرًا وَمَعَ الضَّرَباتِ ٱلمُتَتالِيَةِ بِٱلأَحْجارِ ، تَحَطَّمَ خَشَبُ الصُّنْدوقِ ، وَبَدَأَ يَظْهَرُ وَجْهُ دراكولا ، ثُمَّ ٱنْفَتَحَ فَمُهُ ، وَخَرَجَ مِنْهُ صَوْتٌ خَفيضٌ . إنَّ قُوَّةَ الشَّرِّ قَدِ ٱسْتَيْقَظَتْ . تُرى هَلْ فاتَ ٱلأَوانُ ؟

كانَتِ الشَّمْسُ قَدِ احْتَجَبَتْ أَسْفَلَ ٱلجَبَلِ حينَما وَضَعَ ٱلبروفيسور قِطْعَةَ ٱلخَشَبِ — الَّتي كانَ قَدْ قَطَعَها مِن شَجَرَةٍ — فَوْقَ قَلْبِ مَصّاصِ الدِّماءِ . ثُمَّ رَفَعَ كُتْلَةً مِنَ ٱلخَشَبِ وَطَرَقَها بِها بِشِدَّةٍ .

كانَتْ لَحْظَةً رَهيبَةً . وَهَيْهاتَ أَنْ يَنْسَوا ، مَهْما ٱمْتَدَّ بِهِمُ ٱلعُمْرُ — آخِرَ صَيْحَةٍ أَطْلَقَها دراكولا عِنْدَما ٱنْفَتَحَتْ عَيْناهُ وَٱنْغَرَزَ الطَّرَفُ ٱلمُدَبَّبُ في قَلْبِهِ . وَكانَتِ الصَّيْحَةُ هي الَّتي جَعَلَتْ مِينا تُهَرْوِلُ نَحْوَهُمْ مِنْ مِنْطَقَةِ ٱلأَشْجارِ حَيْثُ كانَتْ مُخْتَفِيَةً ، وَٱلْتَفَّ الخَمْسَةُ جَميعًا حَوْلَ جُثَّةِ عَدُوِّهِمْ .

وَأَخيرًا هَمَدَتِ ٱلجُثَّةُ ، وَتَوَقَّفَتْ حَرَكاتُ الذِّراعَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ الضّارِيَةُ ، وَنَظَروا فَإِذا وَجْهُهُ الَّذي لايَزالُ مَمْلُوءًا بِٱلحِقْدِ يَتَحَوَّلُ مِنْ أَبْيَضَ إلى أَصْفَرَ ثُمَّ إلى رَمادِيٍّ . وَبَدا ٱلجَسَدُ كُلُّهُ يَجِفُّ وَيَضْمُرُ شَيْئًا فَشَيْئًا ، وَما هيَ إلّا خَمْسُ دَقائِقَ حَتّى بَدا أَشْبَهَ بِٱلْخُضَرِ الذّابِلَةِ ، ثُمَّ ضَمُرَ وَذَوى نِهائِيًّا .

كانوا يُراقِبونَ وَلا يَسْتَطيعونَ أَنْ يُحَوِّلوا أَبْصارَهُمْ عَمَّا يَحْدُثُ . وَلَمْ تَكُنْ قَدْ مَضَتْ نَحْوَ عَشْرِ دَقائِقَ مُنْذُ ٱنْغَرَزَ الطَّرَفُ ٱلمُدَبَّبُ في قَلْبِ دراكولا — حَتّى كانَ ٱلجَسَدُ كُلُّهُ قَدْ تَحَلَّلَ . وَذَهَبَتْ إلى غَيْرِ رَجْعَةٍ قُوى الشَّرِّ الَّتي كانَتْ تَعيشُ فيه .

وَٱلْتَفَتَ الرِّجالُ إلى مِينا ، وَمَعَ أَنَّ ضَوْءَ النَّهارِ كانَ قَدْ ذَهَبَ ، فَقَدِ ٱسْتَطاعوا أَنْ يَلْحَظوا التَّغَيُّرَ الَّذي طَرَأَ عَلَيْها . فَٱلأَسْنانُ الطَّويلَةُ ، وَاللَّوْنُ غَيْرُ العادِي لِلْبَشَرَةِ ، وَالنَّظْرَةُ ٱلغَريبَةُ في عَيْنَيْها .. كُلُّ ذٰلِكَ قَدِ ٱخْتَفى .

لَقَدْ عادَتْ ثانِيَةً لِتَكونَ مِينا ... مِينا الَّتي كانَتْ مِنْ قَبْلُ .. مِينا الَّتي أَحَبَّها جوناثان . لَقَدْ نَجَتْ .

الروايات المشهورة

١ ــ جين إير
٢ ــ فرانكنشتاين
٣ ــ مونفليت
٤ ــ دراكولا
٥ ــ لورنا دون
٦ ــ دكتور جيكل ومستر هايد

مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح - بيروت
رقم مرجع كمبيوتر 01 C 198 104

2 114001 981041
51

هذا العمل هو لعشاق الكوميكس ، و هو لغير أهداف ربحية ولتوفير المتعة الأدبية فقط ، الرجاء حذف هذا العدد بعد قراءته ، و ابتياع النسخة الأصلية المرخصة عند نزولها الأسواق لدعم استمراريتها...

This is a Fan base production , not for sale or ebay , please delete the file after reading, and buy the original release when it hits the market to support its continuity